كلمة هيئة التحرير

مع صدور العدد الخامس من مجلة آداب الرافدين نشعر بضرورة الاعتذار الى قرائنا عن التأخر في صدوره، ولعل جانبا من ذلك يرجع الى ان هيئة التحرير حرصت على الا ينشر أي مقال دون الرجوع الى رأي خبير أو مختص مما ترتب عليه انتظار طويل لرد الخبراء كما أنه نشأت خلال فترة توقف المجلة عن الصدور فكرة تحديد أسس جديدة من حيث الشكل والاسلوب والمضمون كي تستطيع المجلة ان تغذ سيرها نحو الاحسن وتعكس واقع الحركة العلمية في كلية الآداب وتطلعات هذه الحركة في مجالات الفكر الانساني والبحث الاكاديمي. وقد تشكلت هيئة تحرير جديدة لتأخذ على عاتقها هذه المهمة وكان من أهم ماحرصت عليه ان تشارك الاقسام العلمية في مسؤولية تقييم البحوث قبل اتخاذ اي اقرار بصدد نشرها فنشأ عن ذلك جو أكاديمي اتسم بروح علمية هادفة فقامت الاقسام بتنظيم (ندوات علمية) لمناقشة هذه البحوث. اما المقالات التي لايوجد في الاقسام العلمية مختصون للنظر فيها فقد احيلت الى خبراء من خارج الجامعة فقاموا بتقييمها قبل الموافقة على نشرها.

ان هيئة التحرير تتبنى الفكر العلمي وترى في المنهج الاكاديمي النافذة المفتوحة نحو مجتمع متطور. انها لا تريد ان يكون محتوى الكلمة بعيدا عن المشكلات الفكرية التي يعانيها مجتمعنا، بل ترى ان يكون الفكر جريئا علميا في مواجهة هذه المشكلات من اجل تجاوز دهور التخلف واسباب الموت وبطء الحركة ملتزمين في كل ذلك النهج العلمي السليم الذي عبر عنه بروعة وايجاز الكاتب الشهير اج.جي.ويلز بقوله: «ان الطريقة العلمية الحقة هي هذه: الا يفرض اي فرض غير ضروري، الا يقبل اي خبر من غير تحقيقه، ان تختبر كل الاشياء بأقوى قوة مستطاعة، الا يحتفظ بأي اسرار، الا يحاول اي احتكار، وان يقدم الانسان خير مالديه في تواضع ووضوح، والا تخدم أية غاية اخرى». (١).

(١) ويلز: معالم الانسانيه ج٣ص٨١٠

ان ذلك مانصبو ان تعكسه المجلة، ومن هنا فأن الدعوة مفتوحه الى كل ذي فكر ان يسهم في كل مايؤدي الى ترسيخ هذا الاتجاه، كما اننا نأمل من جمهور القراء ان يوافونا بملحوظاتهم وآرائهم بصدد البحوث المنشورة في هذا العدد فأن باب النقد مفتوح دوما وهو وحده الطريق الى التقدم.



بسم الله الرحمن الرحيم   رب يسر يا كريم

مسئلة من التعجب من املاء أبي بكر محمد بن الأنباري

تقول ما أحسن عبد الله . ما رفعت رفعتها بما في أحسن ونصبت عبد الله على التعجب وتقول في الذم ما أحسن عبد الله فما لا موضع لها لأنها جحد ورفعت عبد الله بفعله وفعله ما أحسن . وتقول في الاستفهام ما أحسن عبد الله فما رفع بأحسن وأحسن بها . والتأويل أي شيء فيه حسن أعناه أو أنفعه . وتقول إذا رددته إلى نفسك في التعجب ما أحسنني فما رفع بما في أحسنني والنون والياء موضعهما نصب على التعجب .

وَأَبْصَرَهُمْ ، وَتَقُولُ كَانَ عَبْدُ اللّهِ قَائِمًا فَإِذَا تَعَجَّبْتَ مِنْهُ
قُلْتَ مَا أَكْوَنَ عَبْدَ اللّهِ قَائِمًا فَمَا مَرْفُوعَةٌ بِمَا فِي أَكْوَنَ
مِنْ اسْمِ كَانَ مُضْمَرٌ فِيهَا وَعَبْدَ اللّهِ مَنْصُوبٌ عَلَى التَّعَجُّبِ
وَقَائِمًا خَبَرُ كَانَ فَإِنْ طَرَحْتَ مَا وَتَعَجَّبْتَ قُلْتَ
أَكْوِنْ بِعَبْدِ اللّهِ قَائِمًا وَأَكْوِنْ بِعَبْدَيِ اللّهِ قَائِمَيْنِ وَأَكْوِنْ
بِعَبِيدِ اللّهِ قِيَامًا ، وَأَخْيِرْ بِعَبْدِ اللّهِ رَجُلًا ،
قَالَ الفَرَّاءُ لَمَّا لَمْ أُصَرِّحْ بِرَفْعِ الاسْمِ أَدْخَلْتُ البَاءَ
لِتَدُلَّ عَلَى المَطْلُوبِ مَا هُوَ ، وَتَأْوِيلُهُ عَبْدُ اللّهِ حَسَنٌ
فَلَمَّا لَمْ تَصِلْ إِلَى رَفْعِ عَبْدِ اللّهِ جِئْتَ بِالبَاءِ لِتَدُلَّ عَلَى المَطْلُوبِ
مَا هُوَ ، وَإِذَا قُلْتَ تَمَكَّنَ عَبْدُ اللّهِ قَائِمًا فَأَرَدْتَ
أَنْ تَتَعَجَّبَ بِمَا قُلْتَ مَا أَمْكَنَنِي لِعَبْدِ اللّهِ قَائِمًا ، فَإِنْ قَالَ
أَسْقِطْ مَا وَتَعَجَّبْ قُلْتَ أَمْكِنْ بِي لِعَبْدِ اللّهِ قَائِمًا ،
تَمَّتْ نَقَلْتُهَا مِنْ خَطِّ ابْنِ الخَشَّابِ وَالحَمْدُ لِلّهِ وَحْدَهُ ،

الحمد لله انهيته قراءة على عين الاعيان ونادرة الزمان جامع المعاني كالعقيان ومحبرها بالفضل لمن بعد الامكان ابي الحسن علي بن موسى الهوري المالكي امتع الله بحياته وذلك في السابع والعشرين من شعبان المكرم سنة ٩٣٦ وكتبه سليم بن عبد الرحمن المغربي الجزري حامدا ومصليا ومسلما

الدكتور محيي الدين توفيق ابراهيم

التعجب بين البصريين والكوفيين

عرف ابن عصفور (ت ٦٦٩) التعجب . بأنه استعظام زيادة في وصف الفاعل خفي سببها ، وخرج بها المتعجب منه عن نظائره(١) ، وعرفه بدر الدين بن مالك وهو ابن ناظم الألفية ، بأنه استعظام فعل فاعل ظاهر المزية فيه (٢) . وأورد ابن حمدون على تعريف ابن عصفور : أنه غير جامع لانه لا يشمل «كيف تكفرون بالله(٣) ولا نحو قوله صلى الله عليه وسلم : (سبحان الله المؤمن لا ينجس) مما التعجب فيه من أصل الوصف لا الزيادة فقط لان التعجب في الاول من أصل الكفر ، وفي الثاني من ظن أبي هريرة أن المؤمن ينجس ، ولا يشمل نحو ما أحصره من اختصر المبني للمفعول ، لان التعجب فيه من وصف المفعول لا من وصف الفاعل ، وهو وان كان شاذاً فلابد من شمول التعريف له ، وبأن فيه دوراً لأخذ المتعجب منه في حد التعجب ، فيتوقف التعجب على المتعجب منه ، والمتعجب اسم مفعول مشتق من التعجب ومعرفة المشتق منه الذي هو التعجب سابقة على معرفة المشتق وهو المتعجب منه فجاء الدور ، لأن هذا التعريف انما هو للتعجب لغة لا أصطلاحاً ، والتعجب اصطلاحاً هو اللفظ المتعجب به ، وكلام النحاة انما هو في الألفاظ لا في المعنى(٤) .

---

(١) المقرب ٧١/١ ، وانظر حاشية ابن حمدون على شرح المكودى ص٢٣٧ .
(٢) شرح ابن الناظم ص ١٧٦ ، وانظر شرح الأشمونى ١٦٥/٤ .
(٣) آية ٢٨ من سورة البقرة .
(٤) حاشية ابن حمدون ص ٢٣٨ .

ولعل تعريف الرضي الاسترابادي للتعجب أقرب الى حقيقته وأوضح، يقول: «التعجب انفعال يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببه، ولهذا قيل إذا ظهر السبب بطل التعجب(١) (٢)».

وللتعجب في اللغة العربية أساليب كثيرة أغلبها سماعي منها. قوله تعالى: «كيف تكفرون بالله وكنتم امواتاً فأحياكم» وقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «سبحان الله ان المؤمن لا ينجس»، وقولهم لله أنت، وقول الشاعر:

واها لليلى ثم واهـا واهـا هي المنى لو أننا نلناهـا(٣)

وقول الاخر(٤):

بانت لتحزننـا عفـاره يا جارتا ما أنت جـاره

وقول الاخر انشده أبو علي(٥):

يا هي مالي من يعمر يفنـه مر الزمان عليه والتقليـب

ومثله ما أنشده ثعلب:

يا هي مالي قلقت محـاوري وصار أشباه الفغا ضرائري(٦)

وقول حميد الارقط:

ألا هيما مما لقيت وهيمـا وويحاً لمن لم يدر ما هن ويحما(٧)

---

(١) هكذا في الأصل، ولعل الأصح «بطل العجب».

(٢) شرح الكافية ٣٠٧/٢، ونسب الصبان ١٦/٣ هذا التعريف الى الدماميني خطأ.

(٣) هذه رواية ابن الناظم، وفي شرح الأشموني ١٦٥/٤ (واها لسلمى) ويبدو أن هذا البيت ملفق من عدة أبيات لأبي النجم العجلي، رواه صاحب اللسان في مادة (ويه) وهي:

واها لريا ثم واها واها ياليت عيناها لنا وفاها

بثمن نرضي به أباها فاضت دموع العين من جراها

هي المنى لو أننا نلناها

(٤) هو الأعشى ميمون بن قيس.

(٥) نسب ابن الناظم أنشاد هذا البيت لأبي علي، ونسبه ابن منظور اللسان مادة(هيا) الى أبي عبيد.

(٦) اللسان ٢٥٢/٢٠.

(٧) اللسان ٢٥٣/٢٠ .

ولله دره فارسا، ويالك من رجل، وكاليوم رجلا، وويلمه رجلا، وناهيك به(١)، وقاتله الله من شاعر، ولا شل عشره(٢)، وأبرحت ربا(٣)، وحسبك بزيد رجلا، وكفى به عالما(٤).

وقد يستفاد من الاستفهام معنى التعجب نحو: (مالي لا أرى الهدهد)(٥). على أن النحاة يعنون بصيغتين هما صيغة ما أفعله وأفعل به لاطرادهما(٦).

ويقع الخلاف على ما ترويه كتب الخلاف في صيغة ما أفعله. فذكروا أن البصريين يذهبون الى أنه فعل جامد. وأن فيه فاعلا مستتراً. وأن المتعجب منه منصوب على أنه مفعول به لهذا الفعل، فإذا قلنا ما أجمل السماء، فإن معناه شيء عظيم أجمل السماء، أي جعلها جميلة. وواضح ما في هذا من تكلف وابعاد بهذا الاسلوب الانفعالي عن غايته وبلاغته. وطبيعي أن الذي دفعهم الى مثل هذا التأويل كغيره من التأويلات: سيطرة نظرية العامل والمعمول عليهم، وعدم استطاعتهم أن يفهموا أن هناك اسماً يمكن أن يقع في الجملة العربية لا يخضع

---

(١) في اللسان مادة (نهى) وقولهم ناهيك بفلان معناه كافيك: من قولهم قد نهى الرجل من اللحم وأنهى اذا أكتفى منه وشبع ٢٠/٢٢١ .

(٢) اللسان مادة (شلل)، لاشل عشرك أي أصابعك .

(٣) هذه العبارة من بيت للأعشى وهو :

أقول لها حين جد الرحيـ ... ـل أبرحت ربا وأبرحت جارا

قال ابن منظور في اللسان مادة (برح) أي (اعجبت وبالغت) وقيل معنى هذا البيت «أبرحت» أكرمت أي صادفت كريما وأبرحه بمعنى أكرمه وعظمه: وقال أبو عمرو برحي له ومرحى له اذا تعجبت منه وانشد بيت الأعشى وفسره فقال معناه أعظمت ربا وقال آخرون أعجبت ربا ويقال أكرمت من رب .

(٤) أنظر هذه الأساليب : ابن الناظم ١٧٦، ابن عقيل ٦٦٨/١، ابن هشام في أوضح المسالك شرح الكافية ٣٠٧/٢، شرح الأشموني، حاشية ابن حمدون ٢٣٧-٢٣٨ .

(٥) حاشية الصبان ١٧/٣، والآية ٢٠ من سورة النمل .

(٦) يضيف ابن عصفور صيغة فعل بضم العين الى صيغتي التعجب كقولهم ضرب زيد أي ما أضربه وضرب بزيد أي أضرب به. ينظر المقرب ٧٤/١-٧٨ والنحاة يعدون هذا من أساليب المدح أو الذم .

لعمل عامل فلابد أن يكون لكل مرفوع رافع، ولكل منصوب ناصب. ولكل مجرور جار. وهذا أيضاً هو الذي جعلهم يحارون في توجيه معنى (ما) التعجبية فذهب جمهورهم الى أنها نكرة تامة بمعنى (شيء) في محل رفع مبتدأ، وأن الجملة بعده المؤلفة من (أفعل التعجب والضمير المستتر فيه والمتعجب منه) في محل رفع خبر. وذهب الأخفش (ت٢٠٧هـ) الى أنها اسم موصول مبتدأ والجملة بعده صلته والخبر محذوف والتقدير الذي أجمل السماء شيء عظيم. وذهب بعضهم الى أنها اسم أستفهام مبتدأ والجملة بعده خبر عنه، والتقدير أي شيء أجمل السماء. وذهب بعضهم الى أنها نكرة موصوفة. والجملة التي بعدها صفة لها والخبر محذوف، والتقدير شيء أجمل السماء عظيم(١).

افعل التعجب عند الكوفيين

نسب ابن الأنباري الى الكوفيين القول باسمية أفعل التعجب، ونص على أن **الكسائي منهم** ذهب في هذا **مذهب البصريين الذين يقولون بفعليتها (٢).**

واحتج الكوفيون فيما يذكر ابن الأنباري على أسميته بجموده، وعدم تصرفه تصرف الأفعال. وانه يصغر والتصغير من خصائص الأسماء، واستشهدوا بقول الشاعر(٣):

ياما أميلح غزلانا شدن لنـــــا من هاؤليائكن الضال (٤) والسمر

ورفضوا قول البصريين بأنه انما صغر لجموده، فأشبه الاسم من هذه الناحية، قالوا إن هذا ينتقض بليس وعسى وصيغة أفعل به في التعجب، فهذه جميعها

---

(١) شرح ابن عقيل ٢/١٥٠ .

(٢) الانصاف مسألة ١٥ .

(٣) النحاة الذين استشهدوا بهذا البيت لم يسموا قائله ونسبه الباخرزي (دمية القصر طبعة حلب) الى بدوي أسمه كامل الثقفي وفي طبعة القاهرة من الدمية ٦٦/١ أسمه كامل المتفقي، ونسبه العيني الى العرجي. انظر هامش ١٦٧/٤ من شرح الأشموني، وانظر حاشية الصبان ١٨/٣.

(٤) الضال هو السمار البري، اللسان مادة (ضيل) ٤٢٢/١٣، والسمر ضرب من العضاه وقيل من الشجر صغار الورق قصار الشوك، اللسان (مادة سمر) ٤٥/٦ .

جامدة، ومع ذلك لا يجوز تصغيرها ولو كان الجمود يبيح التصغير لجاز تصغيرها. واحتجوا أيضاً بصحة عينه وعدم إنقلابها ألفاً في نحو: (هذا أقوم منك وأبيع منك) ولو كان فعلا لوجب أن تعل عينه وتقلب ألفاً كما قلبت من الفعل في نحو قام وباع وأقام وأباع. وردوا على البصريين في تقديرهم لمعنى ما أعظم الله ونحوه بأن تقديره شيء أعظم الله. وقالوا إن هذا يعني أن الله عظيم بفعل فاعل وهذا غير صحيح(١).

ومن الواضح أن ابن الأنباري قد لخص مسألته هذه عن استاذه ابن الشجري فلم نجد لها ذكراً عند غيره، حتى السيرافي الذي أولع بذكر المسائل التي اختلف عليها الكوفيون والبصريون لم يذكرها؛ بل اكتفى بايراد مذهب سيبويه في علة تصغيره وهو جموده الذي رده الكوفيون كما ذكرنا آنفاً(٢).

أما ابن الشجري فقد خصص لهذه المسألة المجلس التاسع والخمسين(٣)، وقد لخصها ابن الأنباري عنه ، فكل ما أورده من حجج البصريين والكوفيين، والرد على الكوفيين ذكره ابن الشجري الا في احتجاج الكوفيين اعتراضهم على القول بأن (ما أعظم الله) تقديره شيء أعظم الله. وكل الشواهد من القرآن الكريم والشعر مذكورة في أمالي ابن الشجري، ولم يرد ابن الأنباري على أن اختصر كلام ابن الشجري وحذف بعض عباراته وحور بعضها الآخر وغالباً ما ينقل كلامه نصاً، على أن ابن الأنباري ذكر حجج الكوفيين على حدة وذكر حجج البصريين واعتراضات الكوفيين عليها وجواب البصريين على الاعتراضات على حدة أيضاً، وأورد في رده على الكوفيين ردود البصريين عليها. أما ابن الشجري فقد أورد بعض حجج البصريين ثم رد الكوفيين عليها، وبعض حجج الكوفيين ثم رد البصريين عليها وكرر ذلك الى آخر المجلس.

وأغلب الظن ان هذه الآراء التي نسبها ابن الشجري الى الكوفيين عامة

---

(١) انظر احتجاج الكوفيين في المسألة نفسها ص٨١ .
(٢) أنظر السيرافي ،شرح الكتاب ١٦٩/٦ (مخطوط) .
(٣) الأمالي ١٢٩/٢-١٤٦ .

ونقلها عنه ابن الأنباري ليست من قول الكوفيين المتقدمين، ولا تعد مذهباً كوفياً يعول عليه، ولعلها نقلت عن بعضهم وخاصة المتأخرين منهم.

وليس في المسألة التي ننشرها لأبي بكر الأنباري أي قول، أو أية حجة مما نسب اليهم، ومذهبه كما يبدو قريب من مذهب البصريين، فهو يتفق معهم في أن(ما)التعجبية مبتدأ مرفوع بما في أحسن. أما قوله بأن عبدالله منصوب على التعجب فلا أظنه يريد الا انه منصوب على المفعولية، فلا يعرف عن الكوفيين أنهم عدوا من المنصوبات المتعجب منه.

راى المحدثين

وينظر المحدثون الى أن أسلوب التعجب القياسي في صيغتيه(ما أفعله)، و(أفعل به)على أنه من الأساليب التي كان لها استعمال خاص، ثم جمد بعد ذلك. ومن غير المجدي تطبيق التحليل الاعرابي للجملة الاسنادية على هذا النوع من الأساليب.

ويرى الدكتور مهدي المخزومي أن(ما)في صيغة(ما أفعله)كانت في الأصل هي(ما) التي يكنى بها عن غير العاقل المستعملة في الاستفهام، ثم ضاع الاستفهام منها باستعمالها مع(أفعل)متلازمتين في التعجب(١).

وهذا الرأي في حقيقته لا يبعد كثيراً عن رأي الكوفيين في معنى(ما). فهم يذهبون الى أن قولهم(ما أحسن زيداً معناه أي شيء أحسن زيداً)(٢).

ورأى المخزومي في أن بناء(أفعل)في التعجب«هو بناء الأفعال، ولكنه باستعماله في التعجب جمد، وفقد دلالة الفعل(٣)»، وهو رأى يقارب رأى البصريين كما عرفنا سابقاً، إذ يذهبون الى أنه فعل خلافاً للكوفيين الذين يذهبون، الى أنه اسم. فهو يذهب في توجيهه (ما)التعجبية مذهب الكوفيين. وفي

---

(١) المخزومي: في النحو العربي قواعد وتطبيق ص ٢١٥ .

(٢) أنظر شرح الأشموني ١٧٦/٤ .

(٣) المخزومي : في النحو العربي قواعد وتطبيق ص٢١٥ .

نظرته الى(أفعل)التعجب مذهب البصريين،غير أنه يزيد على المذهبين بأن الصيغة في مجملها قد جمدت،فلم يعد يلحظ فيها الاستفهام أو الفعلية.

ولعل تحليل الدكتور ابراهيم السامرائي لجملتي التعجب أقرب الى علم اللغة الحديث،وأبعد عن التكلف الذي وقع فيه النحاة القدامى،ومن تبعهم من المحدثين.فهو يرى أن انشغالهم بالاعراب هو الذي دفعهم الى تفسير(ما) التعجبية تلك التفسيرات المعروفة والمذكورة في كتب النحو،(وكان أصلح للعربية والنحو العربي أن يقتصر في هذا التركيب على القول بأن ذلك أسلوب التعجب الذي يتألف من(ما)التعجبية متلوة ب(فعل)على أفعل أو ب(أشد ونحوها) متلوة بالمصدر في حالات أخرى سطرها النحاة فيما كتبوا.وان هذا(الفعل)من الأفعال الخاصة غير المتصرفة التي جاء بناؤها لتكون مادة صالحة للاعراب عن التعجب(١)..

وهو يذهب مذهب المخزومي في الاقرار بفعلية(أفعل)في(ما أفعله)و(أفعل) في(أفعل به)،(فهما من المواد الفعلية التي بنيت على هذه الصورة المخصوصة ففارقت التصرف وابتعدت عن قبول علامات الأفعال،وذلك لانصرافها عن عناصر الفعلية وهي الدلالة على الحدث،وترشيحها لزمان ما لتؤدي أسلوب التعجب(٢) .

(١) الدكتور ابراهيم السامرائي –الفعل زمانه وأبنيته ص٧٣.
(٢) المصدر السابق ص ٧٣.

كتاب مسألة من التعجب

يحتفظ معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بنسخة مصورة على ميكروفيلم من كتاب مسألة من التعجب لابي بكر بن الأنباري برقم ١٤٩ نحو، وهي نسخة مصورة عن نسخة مكتبة كوبريلي برقم ١٣٩٣—٦. وتقع المخطوطة في ثلاث ورقات من الحجم الصغير، كتبت سنة ٩٣٦ تقريباً، اولها بعد البسملة «رب يسر يا كريم. مسألة من التعجب من القاء ابي بكر محمد بن الانباري». وفي آخر المخطوطة كتب بخط مغاير ما يلي:

«الحمد لله انهيته قراءة على عين الأعيان ونادرة الزمان جاعل المعاني كالعيان ومبرزها بالفعل بعد الامكان ابي الحسن علي بن موسى البحري المالكي امتع الله بحياته، وذلك في السابع والعشرين من شعبان المكرم سنة ٩٣٦ كتبه سليم ابن عبدالرحمن المغربي الحربي حامدا ومصلياً ومسلماً».

بسم الله الرحمن الرحيم

مسألة من التعجب من القاء ابي بكر محمد بن الانباري(١)

نقول ما أحسن عبدالله(ما) رفع رفعتها بما في أحسن(٢)، ونصبت عبدالله على التعجب وتقول في الذم ما أحسن عبدالله «فما» لا موضع لها لأ نها جحد(٣) ورفعت عبدالله بفعله وفعله ما أحسن. وتقول في الاستفهام ما أحسن عبدالله؟ «فما» رفع بأحسن وأحسن بها(٤). والتأويل اي شيء فيه حسن أعيناه أو أنفه.

(١) ابوبكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الانباري . كان من اعلم الناس بالنحو والادب وأكثرهم حفظاً. سمع من ثعلب وخلق، وكان صدوقا فاضلا دينا خيرا من اهل السنة وكان مشهورا بحفظه، وقد أخذ عنه جماعة منهم الدار قطني. توفي في بغداد سنة ٣٢٨. انظر ترجمته في البغية ١/ ٢١٢.

(٢) يريد الضمير المستتر في احسن، والرفع بالضمير العائد الذكر من اقوال الكوفيين

(٣) الجحد: النفي وهو من مصطلحات الكوفيين، انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٨.

(٤) الكوفيون يقولون بأن المبتدأ والخبر يرفع احدهما الاخر. انظر الانصاف مسألة ٥. وانظر بحثنا ابن الانباري في كتابه الانصاف (مخطوط) ص٢١٩. وانظر ايضا شرح القصائد السبع الطوال لابي بكر الانباري نفسه ص ٣١٧.

وتقول اذا رددته الى نفسك في التعجب ما أحسنني فما رفع بما في أحسنني والنون والياء موضعهما نصب على التعجب. وتقول في الذم اذا رددته الى نفسك ما أحسنت فما جحد لا موضع لها والتاء مرفوعة بفعلها، وفعلها ما أحسنت. وتقول في الاستفهام ما أحسني؟ فما رفع بأحسن وأحسن بها والياء في موضع خفض باضافة أحسن اليها. فان قلت أباك ما أحسن او ما أباك أحسن كان محالا لانه(١) ما نصب على التعجب لا يقدم على التعجب لا نه لم يعمل فيه فعل متصرف فيتصرف بتصرفه. وكان الكسائي يجيز أبوك ما أحسن. قال لما لم اصل الى نصب الاب اضمرت له هاء تعود عليه فرفعته بها، والتقدير أبوك ما أحسنه. وقال الفراء لا أجيز الاب لانه ليس هاهنا دليل يدل على الهاء ولا أضمر الهاء(٢) الا مع ستة أشياء مع كل ومن وما وأي ونعم وبئس وتقول عبدالله ما أحسنه ترفع عبدالله بما عاد عليه من الهاء وترفع «ما» بما في أحسن، والهاء موضعها نصب على التعجب. وتقول عبدالله ما أحسن جاريته من قول الكسائي. قال لما لم اصل الى نصب الاول اضمرت له هاء فرفعته، والفراء يحيلها(٣)، قال: ليس ها هنا دليل على الهاء، وتقول في الاستفهام عبد الله ما أحسنه؟ ترفع عبدالله بأحسن وأحسن بعبد الله، وما أستفهام والهاء موضعها خفض بأضافة أحسن اليها. فان قلت عبدالله ما أحسن كان محالا وأنت تضمر الهاء لأن المخفوض لا يضمر ولان المضاف والمضاف اليه كالشيء الواحد فلا يفرق بينهما فلا تضمر المخفوض وتظهر الخافض.

وتقول عبدالله ما أحسن ترفع عبدالله بما في أحسن وما جحد لا موضع لها. واذا قلت ما أحسن عبد الله فاردت ان تسقط ما وتتعجب قلت أحسن بعبدالله واذا اردت ان تأمر من هذا قلت يا زيد أحسن بعبد الله رجلا، واذا ثنيت قلت يا زيد ان احسن بعبدي الله رجلين، ويا زيدون احسن بعبيد الله رجالا، وتنصب

---

(١) هكذا في الاصل ولعل الصحيح ان تحذف الهاء.
(٢) الاضمار بمعنى الحوف من مصطلحات الكوفيين.
(٣) أي يعدها من المستحيل.

رجالا على التفسير(١)واحسن لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث لانه اسم جنس، وأحسن ليس بأمر للمخاطب وانما معنى احسن به ما أحسنه،قال الله تبارك وتعالى:«أسمع بهم وأبصر»(٢)معناه والله اعلم ما أسمعهم وأبصرهم،وتقول كان عبدالله قائماً فاذا تعجبت منه قلت ماأكون (٣)عبدالله قائماً فما مرفوعة بما في أكون واسم كان يضمر فيها وعبدالله منصوب على التعجب وقائماً خبر كان،فان خرجت ما وتعجبت قلت أكون بعبد الله قائماً،وأكون بعبدي الله قائمين وأكون بعبيد الله قياما،وأحسن بعبدالله رجلا.

قال الفراء لما لم اصرح برفع الاسم أدخلت الباء لتدل على المطلوب ما هو وتأويله عبدالله حسن فلما لم تصل الى رفع عبدالله جئت بالباء لتدل على المطلوب ما هو.واذا قلت ظننت عبدالله قائماً فأردت أن تتعجب بما قلت ما أظنني لعبدالله قائماً فان قال أسقط ما وتعجب قلت أظنن بي لعبد الله قائما.



(١) التفسير : التمييز وهو أيضا من مصطلحات الكوفيين.انظر،كتابنا ابن السكيت اللغوي ص٣٢٠.

(٢) سورة مريم: آية ٣٨.

(٣) أجاز الكوفيون اشتقاق أفعل التعجب من الفعل الناقص،ومنعه البصريون.
أنظر شرح ابن عقيل ١٥٤/٢

مصادر البحث ومراجعه

١- الاشموني: مطبعة مصطفى البابي الحلبي-مصر ١٩٣٩.
٢- ابن الانباري: ابو البركات-الانصاف في مسائل الخلاف-مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٤٥.
٣- الانباري-ابو بكر-شرح القصائد السبع الطوال-القاهرة-دار المعارف ١٩٦٣.
٤- بدر الدين بن مالك: شرح ابن الناظم-مطبعة القديس جاورجويس-بيروت ١٣١٢هـ.
٥- ابن حمدون: حاشية ابن حمدون على شرح المكودي
٦- الرضي الاستراباذي: شرح الكافية-المطبعة العامرة المحمية-١٢٧٥هـ.
٧- السامرائي-الدكتور ابراهيم-الفعل زمانه وابنيته-مطبعة العاني-بغداد ١٩٦٦
٨- السيرافي: شرح الكتاب-مخطوطة-جامعة القاهرة.
٩- السيوطي: بغية الوعاة-مطبعة عيسى البابي الحلبي-مصر ١٩٦٤.
١٠- ابن الشجري: امالي ابن الشجري، دائرة المعارف العثمانية-حيدر آباد الدكن ١٣٤٩هـ.
١١- ابن عصفور المقرب مطبعة العاني-بغداد ١٩٧١.
١٢- ابن عقيل-شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك-مطبعة السعادة-مصر ١٩٦٤.
١٣- الفراء: معاني القرآن-مطبعة دار الكتب ١٩٥٥.
١٤- محيي الدين توفيق-دكتور-ابن الانباري في كتابه الانصاف-مخطوط.
١٥- محيي الدين توفيق-دكتور-ابن السكيت اللغوي-مطبعة الجاحظ-بغداد ١٩٦٩.
١٦- المخزومي-الدكتور مهدي-في النحو العربي-قواعد وتطبيق-القاهرة ١٩٦٦.
١٧- ابن هشام-اوضح المسالك-دار احياء التراث العربي-بيروت ١٩٦٦.

الدكتور حازم الحاج طه

أصول الألفاظ الثنائية والثلاثية

حظيت الدراسات اللغوية منذ عصور مبكرة بعناية الغيارى على اللغة العربية، والحريصين على حفظها وسلامتها، والطامحين الى استنباط مكنون فوائدها ودقائق معانيها، فجاهدوا في سبيل ذلك اصدق الجهاد وأروعه، وأبلوا خير البلاء وأحسنه، فأتت جهودهم أكلها، وأينعت ثمارها، ودنت قطوفها. وكان من جملة هذه الدراسات ظاهرة ثنائية الالفاظ وثلاثيتها التي عني بها حذاق اللغويين قدامى ومحدثين. اذ استبان لهم وجود الفاظ مشتركة في حرفين وفي معنى عام يجمع مابينهما، ويربط بعضها ببعض، فحرصوا اشد الحرص وغايته على الوقوف عند نشأة هذه الالفاظ، وهل لهذه المشاركة في عدد من الحروف، وفي المعنى العام العام صلة وثيقة في نشأتها؟.

وقبل ان ابين هذا الامر على وجه التفصيل لابد لي من الاشارة الى أن من أدق المباحث اللغوية، وأشدها استعصاء، وأبعدها غورا موضوع البحث عن مبدأ اللغة العربية وأطوارها. لان العربية التي ورثناها لم تكن معرفتنا بها معرفة دقيقة تتعدى الاسلام كثيرا من الناحية الزمنية، فإن اي بحث عن نشأتها وتاريخها الموغل في القدم يعد ضربا من التخمين تارة، ويخضع لكثير من الفروض والنظريات تارة أخرى، وتزداد المسألة تعقيداً كلما اضطربت الاراء، واختلفت وجهات النظر فتغدو، ظاهرة تاريخية كظاهرة ثنائية الالفاظ وثلاثيتها من الظواهر التي لايستطيع الباحث ان يحكم في اصل نشأتها حكما فاصلا، ويجزم

جزما قاطعا مبنيا على برهان علمي ساطع ،ويستند الى دليل قاطع لايشوبه ريب. وموضوع الوضع الاول لحروف اللغة العربية من حيث الثنائية أو الثلاثية من تلك المباحث التي تخضع لهذه الاعتبارات التي بيناها آنفا ولا تخلو من غموض وابهام وتشعب في الاراء والمباحث...

وها أنا ذا أورد بعض الامثلة التي تجلي هذه الظاهرة كي يستبين المنحى الذي نحته تلك الالفاظ:

(أ) أمثلة التذليل

١»فالالفاظ: قطب، قطع، قطف، قطل، قطم: تشترك في الحرفين (القاف والطاء)، وفي المعنى العام وهو (الفصل).

٢»والالفاظ: جذب، جذر، جذل، جذم: تشترك في الحرفين (الجيم والذال). وفي المعنى العام وهو (الأصل).

٣»والالفاظ: نفث، نفج، نفح، نفخ، نفد، نفذ، نفس، نفش: تشترك في الحرفين (النون والفاء)، وفي المعنى العام وهو (الخروج والانتقال).

٤»والالفاظ: حجب، حجر، حجز، حجم، تشترك في الحرفين (الحاء والجيم) وفي المعنى العام وهو (الحجز والمنع).

وانت اذا تدبرت هذه الامثلة وجدت الحرف المزيد واقعا في آخر اللفظة. ويسمى تذييلا، وهذا هو الاكثر ورودا.

(ب) أمثلة التصدير

وقد يقع الحرف الزائد في صدر اللفظة ويسمى تصديرا، مثل:

١»الالفاظ: بهر، صهر، سهر، شهر، ظهر، قهر، مهر، نهر: تشترك في الحرفين (الهاء والراء)، وفي المعنى العام وهو (الوضوح والظهور).

(ج) أمثلة الحشو

وقد يقع الحرف الزائد وسط اللفظة، ويسمى حشوا، مثل:

١) الالفاظ: وسم، وشم، وصم، وضم: تشترك في الحرفين (الواو والميم) وفي المعنى العام وهو (الاتصاف).

والامثلة في ذلك اكثر من ان تحصى. وما اوردناه يشعر باشتراك عدد من الالفاظ في حرفين، وفي معنى عام يجمعها. وهذه الظاهرة هي التي لفتت انظار اعلام الباحثين من قدامى ومحدثين.

ولابد لنا من بيان آراء مختلف العلماء الذين أبدوا رأيا في هذه الظاهرة بادئين بأولئك الذين فتحوا ابواب هذه الدراسات وأصلوها وأثاروا في أذهان الذين جاءوا من بعدهم أسئلة وآراء متنوعة.

١. الخليل بن احمد الفراهيدي

لو تدبر ناظر في مقدمة كتاب العين للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ ه لوجد اشارة الى الثنائية فنراه يقول (والمضاعف في البيان: ماكان حرفا عجزه مثل حرفي صدره، وذلك بناء يستحسنه العرب فيجوز فيه من تأليف الحروف جميع ماجاء من الصحيح والمعتل، ومن الذلق والشفوية والصتم، وينسب الى ذلك الثنائي لانه يضاعفه. ألا ترى الحكاية ان الحاكي يحكي صلصلة اللجام فيقول: صلصل اللجام، وان شاء قال: صل، مخففة مرة اكتفاء بها، وان شاء أعادها مرتين او أكثر من ذلك فيقول: صل صل، يتكلف من ذلك مابدا له).(١)

فهو يربط بين ظاهرة الثنائية وبين النظرية الطبيعية في نشأة اللغة تلك النظرية التي ترى أن اللغة نشأت محاكاة لاصوات الطبيعة، كما أنه يشير الى الاصلين اللذين نشأت عليهما اللغة أول مانشأت وبنيت عليهما في مراحلها الاولى بدليل قوله (صل).

---

(١) الفراهيدي-الخليل بن أحمد، كتاب العين، ٦٢/١.

وقد علق الدكتور ابراهيم السامرائي على ماذكره الخليل قائلا: (في هذه الملاحظة اشارة واضحة الى القيمة التأريخية للاصل الثنائي الذي بنى منه المعربون الثلاثي ثم الرباعي المضاعف).(١)وهذا ماوجدناه في معجمه فقد ابتدأ ترتيبه بالثنائي واول كلمة تناولها فيه هي (عق) وآخرها هي (مع).(٢)

٢.ابن دريد

أما ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١هـ،فهو من أولئك الذين عدوا المضعف الثلاثي ثنائيا ويدل عليه قوله(الثنائي الصحيح لايكون حرفين البتة الا والثاني ثقيل (أي مضعف) حتى يصير ثلاثة أحرف اللفظ الثنائي والمعنى ثلاثي،وانما سمي ثنائيا للفظة وصورته.فاذا صرت الى المعنى والحقيقة كان الحرف الاول أحد الحروف المعجمة،والثاني حرفين مثلين أحدهما مدغم في الآخر نحو «بت يبت بتا» في معنى قطع ،وكان أصله(بتت) فادغموا التاء في التاء فقالوا (بت)،وأصل وزن الكلمة(فعل)وهو ثلاثة أحرف فلما مازجها الادغام رجعت الى حرفين في اللفظ فقالوا(بت) فأدغمت احدى التائين في الاخرى، وكذلك كل ماأشبهها من الحروف المعجمة)(٣)فهو يضع حدا للمضعف ويجعل ظاهرة الثنائية قائمة على الصورة الصوتية للفظة وعلى رسم تلك اللفظة والدليل على ذلك قوله آنفا(وانما سمي ثنائيا للفظة وصورته).

٣. ابن فارس

وصرح ابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥هـ في معجمه بأن الالفاظ الثلاثية ترجع الى أصل ثنائي وضرب لذلك أمثالا منها أن أصل باب (القاف والطاء) ومايثلثهما يرجع الى معنى(القطع)فيراه في (قط) الذي يدل على صرم وابانة شيء من شيء.

---

(١) السامرائي-الدكتور ابراهيم ،تنمية اللغة العربية في العصر الحديث ص ١٨٤ .

(٢) الفراهيدي-الخليل بن أحمد،كتاب العين،١/٦٨،١٠٨.

(٣) أبن دريد،أبو بكر محمد بن الحسن،الجمهرة،١/١٣.

وفي (قطف) الذي يدل على أخذ ثمرة من شجرة، وفي (قطل) الذي يدل على قطع الشيء، وفي (قطم) الذي يدل على قطع الشيء ايضا. فالعين والفاء واللام والميم وردت حروفا زائدة على الاصل الثنائي (قط) فخصصت معنى القطع، ونوعته حسب مايتطلبه المقام. فإن أردنا ابانة شيء من شيء وفصله عنه أضيفت (العين) فصار الفعل (قطع)، وان أردنا أخذ شيء من آخر دون معاناة كأخذ وردة من غصنها أضيفت (الفاء) فصار الفعل (قطف).(١)

٤. الاصفهاني

ولقد لفت الأب أنستاس الكرملي الانظار في كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها): الى ماذهب اليه الراغب الاصفهاني المتوفى سنة ٥٠٣هـ في مؤلفه (غريب القرآن) وهو اعتبار الحرف المضعف في آخر الكلمة حرفا واحدا فقال: (وممن قال به ولم يحد عنه قيد شعرة الاصفهاني صاحب كتاب غريب القرآن، فانه بنى معجمه الجليل على اعتبار المضاعف هجاء واحدا ولم يبال تكرار حرفه الاخير فهو عنده من وضع الخيال لا من وضع العلم والتحقيق، أي انه اذا أراد ذكر (مد يمد مدا) مثلا في سفره، ذكرها كأنها مركبة من مادة (مد) أي ميم ودال ساكنة، ولا يلتفت أبدا الى أنها من ثلاثة أحرف، اي (مدد) كما يفعل سائر اللغويين. ولهذا السبب عينه يذكر (مد) قبل (مدح) مثلا، ولا يقدم هذه على تلك على مانشاهده في معظم معاجم اللغة كالقاموس، ولسان العرب، وأساس البلاغة، وتاج العروس وغيرها).(٢)

٥. الاب انستاس الكرملي

ويرى الأب الكرملي ان اللغة قد وضعت في الاصل على حرفين متحرك فساكن وأن الحرف الثالث قد نشأ بعد ذلك نتيجة لتصرف في المتكلم المبني على اختلاف المكان والزمان. فيقول: (اللغويون على فريقين متعادلين على سرر

(١) مقاييس اللغة، ٥/١٠١-١٠٣، وانظر الصالح-الدكتور صبحي، دراسات في فقه اللغة، ١٥٦.
(٢) ص ٢.

موضوعة: فريق يذهب الى ان الكلم، وضعت في أول أمرها على هجاء واحد: متحرك فساكن، محاكاة لاصوات الطبيعة ثم فئمت (أي زيد فيها حرف أو أكثر في الصدر او القلب أو الطرف). فتصرف المتكلمون بها تصرفا، يختلف باختلاف البلاد، والقبائل والبيئات. وفريق يقول: ان الكلم وضعت في أول نشوئها على ثلاثة احرف بهجاء واحد او بهجائين. ثم جرى عليها المتكلمون بها على حد ماتقدمت الاشارة اليه.

على اننا اتبعنا الرأي الاول، منذ ان أولعنا بهذه اللغة المبينة الرائعة، فأخذنا بنشره وتفصيل دقائقه منذ سنة ۱۸۸۱؛ ولا ننفك نصرح به الى يومنا هذا دون ماملل ولا وجل، نبوح به على رؤوس الملأ أو نجهر به في المجالس أو ندافع عنه في المجامع أو ندعمه في الاندية. (۱)

وقال كذلك داعما رأيه في مقالة (أصول الكلم وتراكيب حروفها). (ان أول ماوضعت عليه اصول هذه اللغة، كان يتقوم من حرفين، ثم كسع (۲) بحرف ثالث للتثبت من تحقيق لفظ الحرف الثاني من الكلمة، ومنذ ذلك الحين بنيت كل لفظة عربية على ثلاثة احرف، وأصبحت لها كالأثافي وعليها أحكم وضع أصولها، وما زيد على ذلك القدر من الاحرف ألحق بها لغايات شتى، يذكرها علماء العربية في مطاوى مباحثهم). (۳)

٦. جورجي زيدان

وممن خاض في هذا الموضع جورجي زيدان، وقد نحا فيه منحى خاصا إذ بنى نشوء الثلاثي على ظاهرة النحت المعروفة في اللغة العربية؛ فهو يرجع اللفظة الثلاثية الى اصلين ثنائيين ثم تنحت منهما اللفظة الثلاثية بعد ذلك اذ يقول في نحو (قطف) ويفيد القطع والجمع، والاصل فيه على مأأرى (قط لف) الاولى قطع، والثانية جمع، وبالاستعمال أهملت اللام ونقلت حركتها الى ماقبلها فصارت

(۱) الكرملي، الأب أنستاس، نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ص۱، ۲.
(۲) كسع: ذيل.
(۳) الكرملي: الاب أنستاس، نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها، ص۱۰۷.

(قطف) .و(قش)أي جمع ماعلى الارض من فتات، فانها ترد الى اصلين(قم قش)، الاول بمعنى(كنس)، والثاني(جمع)فكانوا اذا أرادوا كنس شيء ما وجمعه قالوا(قم قش)وبالتخفيف الغيت(القاف الوسطى)فقيل(قمش).(١)

على اننا نرى ان رأي زيدان ليس من بنات أفكاره، وانما سبقه اليه علماء اللغة القدامى، فمن أولئك ابن فارس في معجمه مقاييس اللغة، فقد قال: (اعلم ان للرباعي والخماسي مذهبا في القياس يستنبطه النظر الدقيق، وذلك ان اكثر ماتراه منه منحوت، ومعنى النحت ان تؤخذ كلمتان وينحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعا بحظ.... ومن ذلك(بحثرت)الشيء: اذا(بددته)، و(البحثرة) الكدر في الماء، وهذه -أي لفظة بحثر- منحوتة من كلمتين: من(بحثت)الشيء في التراب، ومن(البثر)الذي يظهر على البدن).(٢)فاللفظة(بحثر)اذن مولدة عن طريق النحت، ولكن زيدان لم يأخذ بنظرية علماء اللغة القدامى على اطلاقها، وانما حصر ذلك النحت في الثلاثي مجافياً لنظرية القدامى حسب تفصيلها السابق. ورأيه في ارجاع الكلمة الثلاثية الى اصلين ثنائيين يصح ان كان لكل منهما معنى في نفسه.(واذا لم يكن لكل من اللفظين معنى في نفسه، فلا يخلو ان يكون لاحدهما اولا فأن كان الاول أحد اللفظين فعلا والآخر حرفا زيد اعتباطا وهو في الغالب أحد هذه(ل م ن ر)ربما توهم الواضع في هذه الزيادة شيئا من المبالغة او تنويع الفعل بما يطابق قصده نحو فض، ورفض، وهب، ولهب، وكن، وسكن. واذا لم يكن لاحدهما -أي الاصلين- معنى في نفسه أي أن لايكون اسما ولا فعلا فلا يخلو ان يكون حرفاً(وربما كان اسما او فعلا في الاصل ولم يعد مميزاً الان. ولدينا من هذا النوع بعض الكلمات العربية نقدمها مثالا: من ينظر في لفظة(مال)بمعنى مقتنيات لايخطر له الا انها اصل مستقل، ولكنها في الواقع مركبة من(ما)الموصولة، و(لام الاضافة)وكانوا يريدون بقولهم

(١) زيدان: جورجي، الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية ص ٥٨.
(٢) ١/٣٢٨-٣٢٩، ٣٣٠.

(مالك)الذي لك أي مالك ومقتنياتك.ومثل لفظة (ويل)فأن اصلها(وى مع لام الاضافة)وأصلها(ويلي).....وهكذا يقال في الفعل الناقص(ليس)الذي هو بحسب الظاهر أصل مستقل فأنه مركب من(لا)حرف نفي،و(أيس)الدال على الكون المطلق في بعض اللغات السامية فأدغمتا معاً وكونتا كلمة واحدة).(١)

وهذا المنحى وان تجلى في بعض الأمثلة،فلا ينهض متكأ لبناء أحكام عامة، فالامور اللغوية يجب أن تتحقق في مواد كثيرة من اللغة،بحيث يتحقق لدى الباحثين معنى الاستقراء،ويستطيع أن يثبت الوجهة التي ارتآها بما بدا له من الفاظ تحقق فيها هذا الغرض.

٧.الأب مرمرجي الدومنكي

وقد عقد الأب مرمرجي موازنات بين المضعف الثلاثي في اللغة العربية،وما يقابله في السريانية،فاستبان له أن هذا المضعف لا يقابله في السريانية،الا حرفان (مثلا مقابل:(مص=مص،وبحذاء صم=صم،وبازاء مس=مس.وهكذا كل المضاعفات التي هي بالحقيقة ثنائيات،والثنائي وارد في كل الساميات،متصفاً بمعنى حقيقي وتام).(٢)

وقد أورد عدداً من الأدلة معززاً رأيه،منها:(ما صاغه العلماء من الأفعال المضاعفة والمكررة مستخرجين عناصره الأولية من أسماء الأصوات، ودعاء الحيوانات،وزجرها،وبعض أسماء الأفعال،فهي جميعاً ثنائية.فمثلا:أف كلمة تكره.بخ لاستعظام الشيء.صع:اسم صوت يزجر به الجمل عند ترويضه. صه:أمر بالسكوت.مه:أمر بالكف.فمن هذه الثنائيات صيغت أفعال اما بتحريك الساكن وتشديده،واما بتكرار الثنائي ذاته وتحريك الآخر،فقيل:أف،بخ، صع،صهصه،مهمه).(٣)

---

(١) زيدان،جورجي،الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية ص ٦٠.

(٢) من كلمة ألقاها في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ص٨،نقلا عن الصالح،الدكتور صبحي، دراسات في فقه اللغة،ص١٥٥.

(٣) المصدر نفسه

وقد أشار الى هذه الأصول التي ترجع اليها الألفاظ العلامة طه الراوي فقال: (والذي يتقرى كلم اللغة العربية بانعام نظر يجد أن لمعظم موادها أصلا يرجع اليه كثير من كلماته ان لم نقل كلها، خذ على ذلك مثلا مادة(فل)وما يثلثها، تجد الجميع يدور حول معنى الشق والفتح مثل: فلح، فلج، فلع، فلق، فلد، فلى. ومثل ذلك مادة(قط)وما يثلثها تقول: قط، قطع، قطر، قطف، قطن، وكلها بمعنى الانفصال).(١)

وأورد الأستاذ سعيد الافغاني في مؤلفه رأيا لمحدث آخر(٢)يبين أن(الهمزة والباء مدلولهما النفور والبعد والانفصال بين الشيئين:

١.أب للسير: تهيأ له.
٢.أبت اليوم: أشتد حره فقطع الناس عن أعمالهم.
٣.أبد الوحش: نفر.
٤.ابر النخل: قطع منها شيئاً.
٥.أبز الضبي: وثب وانطلق.
٦.أبق العبد: نفر عن مولاه.
٧.أبل: توحش
٨.أبه عن الشيء: تنزه عنه.
٩.أبى عن الضيم: فر عنه)(٣)

وهو لم يخرج عما ذكره من قبله من الباحثين في اشتراك كثير من الألفاظ بمعنى واحد بعد اتفاقهما في أصلين.

وأنت اذا أمعنت النظر في الآراء والأمثلة السالفة الذكر، تجلى لك ما ذهبوا اليه، وهو أن الألفاظ التي تشترك في حرفين، وفي معنى عام يربط بعضها ببعض كانت في أصلها ثنائية المقطع، ثم دعت الحاجة بعد ذلك الى أن تكون ثلاثية،

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣/٢٢٠، وانظر الافغاني سعيد، في أصول النحو، ١٢٥.
(٢) لم يذكر أسمه.
(٣) الافغاني: سعيد، في اصول النحو، ص ١٢٥.

فكانت زيادة المبنى مقرونة بزيادة المعنى مع تخصص جزئي في معاني تلك الالفاظ الثلاثة التي اتحدت في المعنى العام الذي تدور عليه مادتها، واختلفت في صورة الحرف الأخير الثالث منها.

٨.عبدالله العلايلي

وقد ذهب اللغوي المعاصر عبدالله العلايلي مذهباً فيه اختلاف غير يسير عمن سبقوه فقد رأى أن يرد الى المعلات أكثر الثنائيات.وأن يفسر نشأة الثلاثي من الثنائي بوساطة تلك المعلات.يقول:(وكيفما كان الامر،فحديثنا الآن عن تأكيد أن الثلاثي نشأ عن الثنائي،وأن كثرة من الثلائيات احتفظت بها العربية بعد تصحيح الصوت حرفاً،وهذه الثنائيات التي نظنها هي المعلات.وهذه المعلات المحفوظة في شتى المعاجم،يجب أن نتخذها عمدتنا في الدرس لفهم الثلاثي على وجهه،لانها الاصل الذيانفصل عنه.ولم يكن عمل التصحيح الا ضرباً من اقرار اللغة على صورة واحدة من الثلاثي،فالواوي منها ينظر الى الضمة الممدودة، واليائي الى الكسرة،كذلك ومن ثم يتأيد ما ذهبنا اليه من أن هذه الحركات تراد لمعان بعينها في العهد الصوتي،ثم تصححت كل حركة بحرف من جنسها بعد أن أتخذت العربية وحدتها في الثلاثي.

ونستطيع أن نقول من بعد هذا،ان مطلق الثلاثي نشأ عن الثنائي على هذه الصورةالتي عليها المعلات بزيادة حرف من الهجاء قد سبق لنا بيان أن محله الوسط)(١).

واني لاؤيد الدكتور الصالح فيما ذهب اليه من أن العلايلي قد اضطر الى التكلف في تطبيق رأيه على بعض الامثلة،فجعل(عبل)مأخوذة من(علا)المعتلة، وأصلها(عل)،أما الياء فهي عين الكلمة مكوفة بالفاء واللام،كأنهما سياج لها. فسلمت من الحذف مع أنها هي الحرف المحشو المزيد،وبذل الحرف المعتل للعوارض حتى حذف،فكأن حرف الباء الصحيح المحشو تعويض عن حرف

(١) العلايلي : عبد الله،مقدمة لدرس لغة العرب،٢٠٣

العلة الساقط المحذوف.ولو أسقطنا حرف الباء المزيد–قياساً على سقوط الحرف المعتل–لظهرت لنا الكلمة الثلاثية على صورتها الثنائية الحقيقية،فاذا هي(عل) فقط .فأي جامع يجمعها بعد هذا بهاتين المادتين(عبث وعبد)وما أشبههما من المواد التي تتوسطها الباء؟ان(عبث)تعود الى(عث)وصورتها المعتلة(عثأ)أما(عبد) فتعود الى(عد)وصورتها المعتلة(عدا).وإنما رمينا هذه النظرية بالتكلف،لان تطبيقها العملي لا يتم–كما رأيت في المثال–الا بتجريد حرف الوسط ثم تناول المادة ومعها المعلات التي وقع فيها الحرفان على ترتيبهما،مع أن تجريد مادة ما من حرف الوسط ،انما يكون بمنزلة الحذف والاسقاط ،لذلك الحرف المحشو فكيف يسلخ من بنية المادة لا يتجزأ منها،تظل هذه المادة معبرة–دونه–عن غرضها تعبيراً دقيقاً كاملا؟!)(٢)

ولعلنا بعد ما سقنا من الآراء اتضح لنا جلياً الخلاف في هذه الظاهرة اللغوية، واني لامتح مع الماتحين لعلني أسهم في خدمة اللغة العربية،فأقول دون أن أعد رأيي هنا نهائياً لا يقبل النقاش والمراجعة،وعلى هذا أحصره فيما يأتي:

أولا: ان الثنائية قد تبدو أكثر قبولا،لان ابتداء اللغة بألفاظ ذات أصوات قليلة يبدو شيئاً معقولا،ثم تطورت تلك الالفاظ من حيث عدد أصواتها تبعاً لتطور الانسان اجتماعياً وفكرياً،فيحتاج الى ألفاظ متطورة الأصوات تطور حياته نفسها ليتحقق له عن طريقها التعبير عن حاجاته الحسية والمعنوية،وعلى هذا فلا يستبعد أن تكون اللغة قد بدأت بأقل الالفاظ أصواتاً ، أي بألفاظ ذات حرفين أولا مثل(قط)بسون الطاء،ثم تطورت بعد ذلك الى أخرى ثلاثية،مثل(قط)قطع،قطف...الخ).

ثانياً: ان الاستطالة في صيغ الالفاظ والنمو فيها أمر لا يبعد عن الفكر، وخاصة ان الاستقراء اللغوي دل على ان العربية عرفت صيغاً متطورة عن أخرى في الاسماء والافعال فلفظة (مكلوت) مثلا وهي ، اسم متطورة من لفظة

---

(٢) الصالح–الدكتور صبحي،دراسات في فقه اللغة،ص ١٦٣.

(ملك)والزيادة الصوتية التي في لفظة(ملكوت)،تقترن بزيادة معنوية،لان (الملكوت)أبلغ وأوسع من الملك،ويشعر بذلك قوله تعالى(وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين).(١)والامر كذلك في الأفعال فلا خلاف في أن الثلاثي يأتي منه المزيد ليدل على معان أخرى غير منقطعة الوشيجة بالفعل الاصلي الثلاثي.فالفعل الثلاثي(كبر) تولد منه كبر، وأكبر،واستكبر،وتكبر،وكابر....وكلها صيغ جديدة متولدة عن الصيغة الاولى الثلاثية،وقد أوجدتها ودعت الى اشتقاقها حاجة المتكلم كلما جد له معنى من المعاني،أو غرض من الأغراض.

وعلى هذا فلا يبعد أن تكون اللغة العربية قد بدأت بالصيغة الثنائية.ثم تطورت بعد ذلك حسب الحاجة الى أخرى ثلاثية فرباعية...على أن القول بثنائية اللغة قد يوحي لنا بشيء آخر،وهو أن اللغة لم تكن في أصولها الاولى معربة،لان القول بثنائية اللغة يعني الوقوف على اللفظة بالسكون لتتحقق الثنائية.فاللفظة تتألف من حرفين: متحرك فساكن،والسكون اذا كان ظاهرة مطردة فإنه يعني عدم الأعراب..فهذا امر آخر يولده لنا القول بالثنائية.والذي يبدو هو أن الإعراب ليس ظاهرة بدائية،بل انه ليبدو ظاهرة حضارية،ووجها لتطور الامة العقلي،فكأنه من مظاهر استكمال اللغة لتطورها وأدائها للحالات الذهنية المختلفة،وبعبارة أدق أن الاعراب في اللغة العربية يبدو أنه كان مسبوقاً بحالة لا اعرابية...ويدعم هذا ان ترك الاعراب يعد عندنا في عصرنا الحاضر حالة من حالات النكوص اللغوي،وظاهرة من ظواهر العامية،والعامية ليست حالة من حالات رقي اللغة كما هو معلوم،بل هي وجه من وجوه تأخرها والعامية تقف على الكلمات بالسكون لانه على السنة الناطقين بها أيسر.فشأنها من هذه الناحية شأن اللغة في مهدها اذ ليس من المعقول أن تبدأ اللغة بما هو صعب في مراحلها الاولى—وهو الاعراب—وخاصة أن الاعراب كما بينا يعد وجهاً

---

(١) سورة الانعام،آية ٧٥.

حضارياً، ومظهراً لتقدم الامة العقلي لا تأخرها، ويقوي هذا اننا نعلم أن ثمة من يرى أن العربية (فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ملتزماً بضوابط الاعراب، ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم بعناء هذه الضوابط)(١) فالاعراب اذن سمة من سمات رقي اللغة وتقدمها وتطورها، لان لغة الكتابة الفصحى أرقى من لغة التخاطب اليومية الاعتيادية حتى في عصور الفصاحة. فهذا كله يشعرنا بأن اللغة بدأت في أصولها الأولى غير معربة، ويمكن أن يوحي لنا أيضاً بأن ثنائية الالفاظ سابقة لثلاثيتها. ولعل هذا الرأي يجد تعزيزاً من النظرية الطبيعية التي ترى ان اللغة نشأت محاكاة لاصوات الطبيعة، لان هذه المحاكاة يمكن أن تتحقق بأقل الالفاظ أصواتاً وهي الالفاظ الثنائية، مثل قط، وشط، وغيرهما، اذ أن الجرس هو الذي يحقق هذه المحاكاة، وهو ممكن التحقق عن طريق الالفاظ الثنائية وحدها.

وبعد:

فهذه آراء اللغويين قدامى ومحدثين في ظاهرة ثنائية الالفاظ وثلاثيتها انتقيتها وأضفت اليها ما تراءى لي في هذا البحث الشائك، وأرجو أن أكون قد حققت ما صبوت اليه.

(١) السامرائي – الدكتور ابراهيم – فقه اللغة المقارن، ص ٢٢.

المصادر

١)ابن فارس: أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا—معجم مقاييس اللغة، دار أحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي. الطبعة الاولى ١٣٦٦هـ بالقاهرة. بتحقيق وضبط عبدالسلام هارون.

٢)الازدي: أبو بكر بن حسن الازدي البصري—جمهرة اللغة، الناشر مكتبة المثنى.

٣)الفراهيدي: الخليل بن أحمد—كتاب العين، تحقيق الدكتور عبدالله درويش. مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨٦هـ—١٩٦٧م.

المراجع

١)زيدان: جرجي زيدان، الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية، الطبعة الثانية، ١٩٤٠ م.

٢)السامرائي: ابراهيم السامرائي، تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، مطبعة الجبلاوي بالقاهرة ١٩٧٣م.

٣)السامرائي: ابراهيم السامرائي، فقه اللغة المقارن. دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨ بيروت، الطبعة الثالثة.

٥)العلايلي: عبدالله العلايلي، مقدمة لدرس لغة العرب.

٦)الكرملي: الأب انستاس الكرملي، نشوء اللغة العربية ونموها—المطبعة العصرية بالقاهرة، ١٩٣٨م.

الدكتور عمر الطالب

الفن القصصي عند العرب وحركة التحرر العربي

حاولت الامة العربية فيما تقضى من سنوات هذا القرن، أن تبحث عن ذاتها وتحدد شخصيتها، بعد أن أنطمست معالم هذه الشخصية، بتأثير عوامل خارجة عن ارادتها بدوافع استعمارية، أسكتت الالسن الحرة في وطننا. فقد وجدت البلدان العربية نفسها تحت وطأة الاحتلال الأجنبي منذ أن أستباح هولاكو والفرنجة والاقوام الأجنبية هذا الوطن. فوجدت نفسها ترزح تحت أشياع لهذا الاستعمار في الداخل. ولقد لعب هذا أو ذاك دوراً خطيراً في توجيه أقتصاد هذه البلدان كما وجه الفكر وجهات مختلفة نحو خدمة هذا الاقتصاد. وكان لهذا وذاك تأثيره الفعال على الادب العربي عامة، وعلى لغة الاداء والتعبير لهذا الأدب خاصة. فقد أصبح الأدب وسيلة ارتزاق وواسطة للتقرب من الحكام ومسح الأعتاب وإهدار ماء الوجه من أجل لقمة تقيم الأود أو مال يتنعم به، أو منصب يتربع فوقه أنتهازي يحرك من قبل أعداء الوطن.

ولم تكن القصة والرواية قد دخلتا بعد ضمن اطار الأدب، فقد كان الأدب للخاصة وكانوا ينظرون الى هذين الجنسين الأدبيين نظرة ازدراء وأحتقار حتى أوائل هذا القرن وكأنهم استلهموا أحتقارهم لهذين الجنسين الادبيين من أحتقارهم لألف ليلة وليلة العظيمة، التي خلقت الأدب القصصي في الغرب، وأضفوه على كل نتاج قصصي، ولم يجدوا في السير الشعبية كالهلالية والعنترية وغيرهما من القصص الشعبي غير أداة لتسلية العامة وإبعادهم عن قضيتهم

الأصلية وسط حشيش هذه المغامرات التي تعج بها هذه السير لابعادهم عن الفضائح التي كان يرتكبها الحكام بواسطة مسارب جانبية وخصومات فردية في المقاهي والمجتمعات الخاصة، التي تقرأ فيها هذه السير، فقد كانت السير وسيلة من وسائل الالهاء السياسي ينظر اليها الخاصة بأحتقار على أنها أدب شعبي وجد للضحك من الشعب ولابعاده عن الصراع من أجل حياة كريمة.

وقد ظهرت القصة منذ نهاية القرن الماضي، وبداية القرن الحاضر عاملا فعالا في إبراز المقومات الوطنية بروح ايجابية بناءة، وأخذ القصاص دورهم القيادي في الدعوة الى الوطنية المستوحاة من النظريات الاجتماعية، والمفاهيم الفكرية الحديثة، فقد عبرت المقالات القصصية (لعبدالله نديم) التي كتبها في جريدة التنكيت والتبكيت عام ١٨٨٠ عن الكفاح التحرري ضد الاستعمار، وخير مثال على ذلك قصة (مجلس طبي لمصاب بالفرنجي) فقد عرض فيها قضية الدين العربي، الذي وقعت مصر فريسة له على يد الخديوي اسماعيل، بسبب اسرافه ولهوه، حيث تدخل الاجانب بحجة الدفاع عن هذا الدين. واستخدم الكاتب الرمز لتعميق الصورة أو للتخلص من المسؤولية آنذاك، فقد رمز الى مصر بشاب أصيب بالزهري نتيجة لاتصاله بفتاة مريضة بهذا الداء، والفتاة ليست الا الاستعمار الانكلو-فرنسي. (١)

وقد ساعدت مثل هذه المقالات القصصية في تنبيه الرأى العام المصري للوقوف ضد السياسة غير الصائبة التي انتهجها الخديوي اسماعيل وكبل فيها مصر بقيود ثقيلة رزحت تحتها فترة طويلة من الزمن.

ونلمس مثل هذا الاتجاه في المقالات القصصية التي نشرت في الصحف العراقية: التي كانت تتسم بالطابع القومي منذ عام ١٩١٠ مثل (رؤيا عربية) (٢) وتتلخص هذه الرؤيا بأن الراوي يرى في المنام نوراً وهاجاً يسأل عن مصدره

---

(١) عباس خضر، أدب المقاومة ص ٤٦.
(٢) مجلة لغة العرب، ج٤ ص١٩٨ لعام ١٩١٣.

فيخبرونه بأنه العروبة ويستطرد الكاتب بدعوته السياسية ويطالب بتعليم اللغة العربية في المدارس العراقية، بدلا من اللغة التركية، ويذكر مآثر كل قطر من الاقطار العربية ويدعو الى الرابطة القومية التي تعيد للعرب مجدهم الغابر.

وتتوالى المقالات القصصية في مجلة(لغة العرب)التي كان يصدرها(الأب أنستاس الكرملي)والتي تبنت هذا الأتجاه بين عامي ١٩١٣-١٩١٤، الذي دعا دعوة قومية واضحة ساندتها الجمعيات السياسية الوطنية التي انتشرت في العراق وفي العالم العربي بأسره.

ولم يقتصر النضال السياسي على المقالات القصصية فقط، بل تعداه الى اللون الجديد-أدب القص-الذي أخذ يطرق باب الادب العربي بقوة، فهذا المويلحي في(حديث عيسى بن هشام)١٩٠٦، يصور مفهوماً قومياً في بعث(الباشا) وخروجه من عالم الأموات الى دنيا لم يعهدها في رحلة بحث فيها عن الحقيقة في كل مكان، ولم تكن هذه الحقيقة غير روح مصر البرجوازية المتطلعة الى التحرر من ربقة السيطرة التركية، حيث يقوم الباشا وعيسى بن هشام برحلتين احداهما داخلية محلية تمتد في الزمان والمكان الى عصور متتابعة.(١) ويعرض في هذه الرحلة انماطاً عدة من الوان الحياة في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ينقد فيها الكاتب نقداً موضوعياً ساخراً تلك المظاهر الاجتماعية المتخلفة عن طريق تصارع الافكار بين الباشا وعيسى بن هشام والنماذج المختلفة للبرجوازية المصرية والمثل الاعلى في الحياة الاجتماعية المتمثل في مصر البرجوازية آنذاك، وعندما يتعرض المويلحي الى ارستقراطي الاستعمار التركي، واتباعهم من العلماء والمشايخ والى الاستعمار الانكليزي وذيله المتمثل بالمتفرنجين، فانه يصورهم جميعاً تصوير الاعداء الذين يعوقون مصر الناهضة عن الحركة والتطور ويشدونها الى ماض يجب أن تتخلص منه، ويمنعونها من التحرك الى المستقبل الذي كانت البرجوازية المصرية تحلم

(١) علي الراعي: دراسات في الرواية المصرية، ١٣.

بالانتقال اليه. فقد نشطت البرجوازية المصرية المهاجمة، وحطمت قيم ما سبقتها من مجتمعات متأثرة بالروح التركية، وقدمت قيماً جديدة محل قيمها القديمة، قيماً أساسها الايمان بالعلم الحديث، وبناء مجتمع قوي دأبه التحرر من السيطرة الأجنبية. أما الرحلة الخارجية في فرنسا، فقد جاءت مناهضة للاستعمار المضطهد للشعوب. لذا يعد حديث عيسى بن هشام بالاضافة الى النقد الاجتماعي الساخر عملا وطنياً تحررياً مناهضاً للاستعمار.(١) ولا أريد أن أبحث طبيعة هذا العمل هل يغلب عليه فن الرواية كما يرى الدكتور علي الراعي في كتابه (دراسات في الرواية المصرية) أم يغلب عليه فن المقامة كما يرى الدكتور عبدالمحسن طه بدر في كتابه (تطور الرواية العربية) لان مثل هذا الحديث لا يدخل في مجال بحثنا هذا.

وتدخل رواية (زينب - ١٩١٤) لمحمد حسين هيكل في هذا المضمار التحرري لما تضمنته من حنين الى الوطن وتصوير للطبيعة المصرية وجمالها ومحاولة لاظهار الصراع الطبقي والاستغلال من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والعاطفية (٢). وقد تطرق الكاتب الى تصوير الريف المصري بعاداته وتقاليده وطيب أهله ومعتقداته، كل ذلك لنقد الواقع من جهة والالتصاق بأرض الوطن من جهة أخرى وهو مغترب للدراسة في فرنسا رغم أن الكاتب يقع في تناقضات عدة. وتبدو شخصياته سلبية لا تقوى على تغيير الواقع الآسن الى ما هو أفضل، وقد صدرت عن وجدان وطني خالص فكل ما كان يهدف اليه مؤلفها هو تمجيد مصر والتغني بها، واظهار شخصيتها واذابة كل شخصية أخرى دخيلة عليها.

وقد تناولت قصص أخرى الصراع الدائر بين الفلاحين والأعيان من غير العرب في مصر وثورتهم ضدهم والمطالبة بحقوقهم في التعلم والحصول على حقوقهم المشروعة. وخير مثال على ذلك قصة محمد تيمور (في القطار) ١٩١٧ من

(١) المصدر السابق، ص١٤.

(٢) عباس خضر، أدب المقاومة ص٤٧.

مجموعته(ما تراه العيون)«وهي تمثل ثورة على ظالمي الفلاح من الشراكسة والأعيان ومطالبة لحقه في التعليم والمعاملة الكريمة»(١)وقصص عيسى عبيد في مجموعته(احسان هانم)الصادرة عام ١٩٢٢ وخاصة قصة(مذكرات حكمت هانم)التي «صور فيها ثورة ١٩١٩ وخاصة مظاهرات السيدات ووقوفهن أمام رصاص الانجليز في الشوارع وفي القصة نزاع عنيف بين رجلين أحدهما مسيحي والآخر مسلم ينتهي بالصلح والتآخي وسط الظواهر والعواطف الوطنية الرائعة» (٢)ومجموعة شحاتة عبيد(درس مؤلم)الصادرة عام ١٩٢٢ أيضاً وخاصة قصة (الصلاة)التي «يتحدث فيها عن سوق الاحسان الخيري الذي أقيم سنة ١٩٢٠ وبيعت فيه بالمزاد صورة لسعد زغلول بمبلغ ٧٢٠ جنيهاً تعبيراً عن تقدير الشعب لجهاد الزعيم الكبير»(٣).

وكتب محمود حقي رواية(عذراء دنشواي)للتعبير عن حادثة دنشواي الخطيرة التي أدت الى الفوران الشعبي.وتروي الرواية الاعتداء الواقع على الشعب ومقاومة الفلاحين لهذا الاعتداء،وما أعقب ذلك من محاكم ظالمة وشنق الوطنيين الذين وقفوا ضد الطغيان(٤).وما الصراع الدائر خلال رواية(عودة الروح)١٩٣٣ لتوفيق الحكيم الا تثبيت للروح الوطنية وتمجيد للحياة التي يحياها الفلاح في الريف«فأهل المدن وأهل القرى في عودة الروح في حالة تأهب ثوري ينتهي بأنفجار عنيف،وأبطال الرواية كلهم يسعون الى تحسين أحوالهم وكلهم يتطلع الى أن يحدد لنفسه مستقبلا جديراً بآماله ومواهبه»(٥)حيث يلقي عبده بنفسه في غمار الثورة كما القت مصر نفسها وراء قائدها سعد زغلول في خضم ثورة ١٩١٩.وقد أقتسموا الأعمال كل حسب قدرته فمنهم من أسهم في طبع المنشورات ومنهم من نظم الجمعيات السرية ومنهم من شارك مشاركة

(١) المصدر السابق ص٤٨.
(٢) عباس خضر،المصدر السابق ص ٤٨.
(٣) عباس خضر،المصدر السابق ص٤٨.
(٤) عباس خضر،المصدر السابق ص ٤٧.
(٥) علي الراعي،المصدر السابق ص ١٠٨.

فعالة في القتال كل ذلك لمقاومة الاستعمار والتعسف. ويمجد توفيق الحكيم حضارة مصر الزراعية ويتطلع الى مستقبلها الصناعي، فالرواية لا تقدس الماضي وتدعوه الى العودة بل تلجأ اليه لتدعيم الحاضر والتهيئة للمستقبل.

وكما شارك الفن القصصي المصري في ثورة ١٩١٩، فان الفن القصصي في العراق دخل هو الآخر ميدان ثورة العشرين. فقد دارت رواية (جلال خالد) ١٩٢٨ لمحمود أحمد السيد في هذا الاطار. كما تروى رواية في (الفرات الاوسط) ١٩٣١ لمحمد حسن النموي أيضاً أحداث ثورة العشرين، وتألب عشائر الجنوب ضد الاحتلال الانكليزي. ودارت أحداث قصة (نجم البقال) (١) ليوسف رجيب في النجف أبان ثورتها ضد السيطرة الانكليزية وازدحمت بالحقائق المأخوذة من الواقع التي تبعث على الحماس والثورة. الحاج نجم رجل في الستين من العمر يملك دكاناً للبقالة في السوق الكبير في النجف يبيع فيها الخضار والتمر، يضيق صدره بأفعال الانكليز فيتزعم جماعة من الشباب ويدخلون (السراي) بعد أن يخدعوا الحراس بأعتبار أنهم يحملون رسالة هامة الى القائد في داخل (السراي) يقتلون القائد وعدداً من الجنود الانكليز ثم يهربون، وفي الصباح يذهب الحاج نجم الى حانوته ويسأل بوداعة وبساطة عن أصوات إطلاقات النار التي سمعت في الليل. وكان هذا الحادث الشرارة التي انبعثت عنها الثورة حتى شملت النجف بأسره. وقد تحدثت قصص عراقية كثيرة عن هذه الثورة.

ودارت أحداث قصص أخرى حول الحرب العالمية الثانية، وما قاساه العراق من أهوال، وخاصة مدينة الموصل التي عانت من المجاعة الشيء الكثير عام ١٩١٧، وقد أوردها بهنام وديع في روايته (الايام العمياء والناس الحمقى) بشكل تسجيلي، وما فعله البعض من قتل الإطفال، وأكل لحومهم بالاضافة الى أكل القطط والكلاب. كما تعرض للصراع الدائر بين الاهلين والقوات العثمانية المسيطرة. كما تعرض ذنون أيوب في مجموعته (الكارثة الشاملة) ١٩٤٤ لهذه المآسي التي مات من جرائها المئات. وأول من عالج موضوع الصراع العثماني

(١) جريدة الانباء البغدادية، العدد الثاني، ١٩٥٤.

العراقي محمود أحمد السيد في قصته الطويلة(في سبيل الزواج)١٩٢١،وهي مليئة بالأحداث المتتابعة والاعمال البطولية الخارقة،ثم أعاد الكرة في قصته الطويلة الثانية(مصير الضعفاء)١٩٢٢،حيث عرض لنا الصراع الدامي بين (ابراهيم)الضابط العربي الذي يحب(زهراء)أخت القائد التركي،وبين هذا القائد الشرس المستبد،حتى يتغلب عليه ويودعه السجن وينكل بأمه ولكن زهراء تثأر لهما وتقتل أخاها.وقد عوض الكاتب في قصته هذه عن آماله المحطمة بعد أن أصابت وطنه نكبات متوالية من احتلال انكليزي بعد استعمار عثماني ومن فشل لثورة العشرين التي ضحى فيها الشعب العراقي بأرواحه في سبيل التخلص من السطيرة الاجنبية،وقد غلبت النزعة التعليمية على هاتين القصتين.(١)أما قصة يوسف رجيب(الشيخ قادر)(٢)فتدور في العمارة وفي بيئة صيادي السمك. حيث أرسل القائد التركي جاويشاً على رأس أربعين من فوارس(الجندرمة) لمراقبة،دكان الشيخ قادر،وعرف الشيخ بالأمر،أستمال الجاويش بالمال،كتب الجاويش للقائد تقريراً يمدح به الشيخ قادر وينفي عنه الاخبار السابقة.

وتعد(الرواية الايقاظية)١٩١٩لسليمان فيضي رواية تعليمية،إذ يحاول المؤلف فيها انقاذ المجتمع من العادات والتقاليد والتعاليم التي غرسها المستعمرون العثمانيون في البيئة العراقية،وتطهير هذه البيئة من قيمهم المتهرئة.وإن لم تتطرق للنضال السياسي بين الشعب العراقي والسلطات العثمانية.

وقد برز النضال ضد السيطرة العثمانية في القصص الشامي عامة كرواية (الاسهم النارية)لانطون الصقال.وروايات ميخائيل الدلال(النفح العاطر في الفتى المهاجر،احسان الانسان،الفتاة الخرساء)وروايات نعمان عبده القصطالي (الفتاة الامينة وأمها،مرشد،فتنة وأنيس)وأهمها رواية انطون الصقال(العبر) ١٩١١.

---

(١) عمر الطالب،الرواية العربية في العراق ص٨.
(٢) مجلة الاعتدال ،العدد العاشر،١٩٣٥.

وقد لجأ بعض القصاص في أرجاء الوطن العربي الى المقارنة بين الاوضاع المتردية في الوطن العربي.وبين الحضارة الاوربية،وكانت قصصهم ورواياتهم دعوة الى التخلص من حالة التخلف هذه.وهذا لا يتم طبعاً الا بالتخلص من السيطرة الاستعمارية،فقد ظهرت في العراق رواية آكوب كبرائيل(عجائب الزمان في صرح عروس البلدان)١٩٢٨،وقد أقتدى فيها بروايات فرح أنطون (اورشليم الجديدة أو فتح العرب لبيت المقدس،الدين والعلم والمال أو المدن الثلاث،الوحش الوحش الوحش أو سياحة في أرز لبنان).

ونحن نلمس هذا الشعور الوطني ضد الاستعمار في القصص الشامي عامة اذ يحدثنا فؤاد الشايب عبر مجموعته(تاريخ جرح)-ومعظم اقاصيصها كتب بعد الثورة السورية عام١٩٢٥ولكنها لم تضم في مجموعة جميع قصصه حتى عام ١٩٤٤-باسم الجيل.كله، ففي القصة التي تحمل اسم المجموعة صراع بين (حسان)فتى القرية الفار من الجندية وبين الضابط التركي الذي قبض البدل عن حسان اخته«وأذل من أجل ذلك أهل القرية حتى كان يوم ركضت فيه الفتاة الى ساحة القرية فمزقت ملابسها أمام الملأ فدبت النخوة في الناس وهاجموا الضابط الظلوم بالقتل واما حسان فقد مجد لاخته عريها الشريف بأن طعنها في صدرها وهي تقبل يده شكرانا لتلك الطعنة»(١)وفي قصته«جموح القطيع»يتعرض لزعيم وطني مناضل ضد الاستعمار اتهم بالخيانة اتهاماً غير مقطوع بصحته فيتعرض خادمه للفتك من قبل الشعب ظناً منهم بأنه الزعيم الوطني.ويتعرض(نسيب الاختيار)في مجموعته(طيف الماضي)التي لم يجمع فيها كل نتاجه للقضايا الوطنية النضالية كما في قصة(الحصادة)التي تصور الصراع الدائر بين الالة التي جلبها الاقطاعي الاجنبي لتحل محل الايدي العاملة وبين الفلاحين الذين يهددون بحرق الحصادة لانها سببت لهم البطالة.اما روايته(سقوط الفرنك) ١٩٣٧فتصور العمال والحركة العمالية في سوريا حيث يتكتل السجناء السياسيون

(١) شاكر مصطفى،محاضرات في القصة السورية ص٣٣٤ .

ويتابعون نضالهم لتحقيق الحركة النقابية والقضاء على السيطرة الاجنبية. اما قصص ميشيل عفلق فهي «لاتستقي من مشاكل المجتمع ولا تتحدث عن الحب ولاتصف مظاهرة أو تعكس بؤس عامل كادح، القضايا الاجتماعية أو الخلقية أو السياسية لاتهمه الا بمقدار علاقتها بما هو اهم منها: حياة الانسان، فالانسان أولا، والموقف الانساني هو مايجب ان تعبر عنه القصة. وهو يعالج مشاكل التمرد، الشرف، الكرامة، الحقيقة. الحرية، من خلال الحياة الانسانية، ويشرف على الافق الميتافيزيكي لمشكلة الحقيقة او الحرية بالسهولة التي يشرف بها الكتاب الاخرون على احداث الحياة العادية... وهو لايقارب تلك الموضوعات من جانبها الفكري ولكن من جانبها الانساني الذي عاشه هو نفسه في اعماقه».(١)

وقد بشرت قصص ميشيل عفلق بالروح القومية النضالية وأثرت قصصه مثل (انسان جديد، (٢) الصفقة. (٣) شيطان نصف الليل، (٤) رأس سعيد افندي، (٥) موت السندباد (٦) وغيرها من القصص في جيل الكتاب السوريين والعرب كمطاع صفدي مثلا، وهكذا بدأت ظاهرة التمرد آنذاك تنتشر لا في نطاق السياسة فقط بل بالنسبة للحياة كلها «ولكن التمرد الذي دعا اليه الاستاذ ميشيل عفلق كان أشمل وأعمق، كان التمرد المبدع الذي يقود الحياة الى توترها الاعلى ويستنزف كل خصبها كان الاستاذ عفلق يلوك المشكلة بفكر يريد ان يطلق كل امكانيات الوجود الانساني معاً».(٧)

وهكذا بدأ الفن القصصي المعاصر يتخلص من المظاهر السلبية واتجه الى ابراز المقومات الوطنية والقومية بروح ايجابية بناءة وأخذ كتاب القصة والرواية

(١) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص٣٢٣-٣٢٤.
(٢) جريدة الايام ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٤.
(٣) الايام ٣١ مايو، ١٩٣٥.
(٤) الايام، ١٩، ٢٨ يناير ١٩٣٥.
(٥) الايام ٢١ حزيران ١٩٣٥.
(٦) مجلة الطليعة، العدد الخامس، ١٩٣٦.
(٧) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص٣٢٥

دورهم في الدعوة الى الفكر الوطني والتحرري معاً على اسس قويمة مستمدة من طبيعة الامة العربية ومستوحاة من النظريات والمفاهيم الفكرية الحديثة.

فقد دارت روايتا شكيب الجابري(قدر يلهو)١٩٣٩و(قوس قزح)١٩٤٦، وهما في الحقيقة رواية واحدة في جزئين في جو«الثورة العربية لسنة١٩١٦،التي كانت ترمي الى التحرر من النفوذ التركي وانشاء دولة عربية»(١).اما رواية (الرغيف)لتوفيق يوسف عواد فقد «صور فيها اليقظة العربية وبعث الروح العربي على مستوى يشمل مختلف البلاد العربية مع الدعوة الى الوحدة بينهما»(٢)، وتحت ضغط الاحساس بالانسحاق الوطني واهدار الكرامة العربية العربية من من جراء السيطرة الاستعمارية دقت الرواية التاريخية باب الفن القصصي لايقاظ الهمم وبعث اليقظة العربية العربية المتمثلة بالسلف وعرض بطولات الاجداد ورفضهم للرضوخ ونشرهم لواء العدل في الامصار ليكونوا قدوة لهذه الامة التي كانت ترزح تحت سياط الاستعمار،فاستلهموا من التاريخ العربي الاحداث للتعبير عن الروح الوطني لتصعيد النضال ضد الاستعمار كما فعل (معروف الارنووط)في روايته(سيد قريش)١٩٢٩وقد قسمها الى ثلاثة أجزاء (سطيح وامرؤ القيس،تيودورا،رايات ذي قار)ثم ظهرت روايته الثانية(عمر بن الخطاب)عام١٩٣٦وتقع في أربعة أجزاء(تحت راية سيد قريش،فرسان اليرموك،خالد بن الوليد،آخر ملوك غسان)ثم اصدر روايته التالية(طارق بن زياد).

وقد شاعت فكرة النزوع الى الماضي والعناية بأمجاد الاجداد وتصوير البطولات كمظهر من المظاهر الوطنية والقومية على نطاق الوطن العربي كله كما في روايات جرجي زيدان وعلي الجارم ومحمد فريد ابو حديد ومحمد سعيد العريان وعلي احمد باكثير ومحمد عوض محمد وعادل كامل ومحمد السباعي وابراهيم المصري وغيرهم.وهذا مافعله القصاص في العراق حيث لجأوا الى

(١)و(٢) عباس خضر،المصدر السابق ص٦٣.

التاريخ العربي يستوحونه البطولات لتحقيق الدفع التحرري واشعال الروح المتوثبة في نفوسهم للتحرر كمافعل يوسف عنيمة في (غادة بابل) وعبد المسيح بلايا في (سبي بابل) وعبدالله حسون في (أرينب) ومحمد طاهر توفيق في (قصة يوسف) وطاهر العميد (المسلم الثائر) وسليمان صائغ في (يزداندوخت) وشعبان رجب الشهاب في (سلمى التغلبية) وداؤد سلوم في (عهد مضى) .

وقد كان للصراع الجزائري الفرنسي أثر كبير في الادب الجزائري «ونستطيع ان نؤكد ان القصة القصيرة الجزائرية عاشت عصراً ذهبياً أيام ثورة نوفمبر التحريرية أما بعد الاستقلال وحتى اليوم فأنها لم تحقق بأي حال ماكان يرجو منها من تقدم وتطور وثراء... وهنا نتساءل أين اذن هؤلاء القصاصين الذين لمعت اسماؤهم وازدهرت على أيديهم القصة خلال الخمسينات؟ والجواب انهم موجودون ولكن الحافز اختفى فقل انتاجهم... والواقع ان الثورة كانت من اقوى عوامل تطور القصة وازدهارها... فقد وجد الكتاب فيها المنبع الخصب الذي يغترفون منه فاستمدوا منها — ابطالهم — من دنيا الواقع وسط الدم واللهيب فهم اناس بسطاء عاديون ولكنهم عرفوا طريق الحرية».(١) وقد ابرزت روايات الكاتب الجزائري محمد ديب (الدار الكبيرة، الحريق، النول صيف افريقي، من الذي يذكر البحر) ورواية مولود فرعون (ابن الفقير) والاعمال القصصية لكاتب ياسين، واسيا جبار الصراع الدائر بين الشعب الجزائري والقوات الفرنسية المستعمرة بصورة تجمع بين الواقعية الفنية وبين الرمز المؤثر، وكانت كلماتهم لاتقل اثراً عن رصاص الفدائيين. وتكمن مأساة هؤلاء الكتاب الجزائريين في انهم لايحسنون الكتابة باللغة العربية بسبب محاولة المستعمرين الفرنسيين القضاء على هذه اللغة لجعل الجزائر جزء من فرنسا. فكتبوا مأساتهم بلغة اعدائهم. والى جانب هؤلاء القصاص نجد كتاباً تناولوا موضوع الثورة الجزائرية في قصصهم ودونوها باللغة العربية بعد ان ظل موضوع الثورة يتناول من قبل القصاص حتى بعد نيل الاستقلال مثل (البهي

(١) عبد الله ركيبي، البطل في القصة الجزائرية القصيرة، مجلة الآداب، العدد ٧، ١٩٧٣ .

فضلاء)في مجموعته(دقت الساعة)و(ابو العيد دود)في مجموعته(بحيرة الزيتون) و(الطاهر وطار)في مجموعته(طعنات)و(زهور ونيسي)في مجموعتها(الرصيف النائم)الى جانب قصاص آخرين لمعوا في الاولآ نة الاخيرة مثل(عبد الحميد هدوقة ،عثمان سعدى، حنفي بن عيسى)(١)ففي قصة(اثنان وثلاثون طلقة)لعثمان سعدى «نلتقي بشاب جندي جزائري تطوع في الجيش الفرنسي ايام حرب الهند الصينية وبعد رجوعه التحق بجيش التحرير بعد ان اقتنع بأن الثورة قامت لصالح الشعب وليس كما يصورها له الفرنسيون عبارة عن تمرد لجماعة خارجة على القانون»(٢).اما في قصة(الفجر الجديد)لابي العيد دودو فقد تناول فيها المشكلة بشكل آخر،حيث يعرض علينا موظفا حكوميا يعمل في الادارة الفرنسية قانعاً بحياته محبا لزوجته لذا فهو لايتفاعل مع الثورة الجزائرية بل يتعامل معها بشكل سلبي،مما يدفع زوجته الى السخرية منه،فيندفع هو الاخر الى الشك بها خاصة وهي كثيرة التغيب عن الدار،فيهجر حياته الامنة ويلتحق بالجبل هروباً من واقعه المؤلم،وهناك يتبين أن زوجته تعمل مع الثوار ويتأكد له اخلاصها وتفانيها في سبيل القضية فيندفع الى العمل مع الثوار بروح جديدة وايمان مطلق بالثورة.(٣)وقد جاء تصوير البطل تجسيداً كاملا بأبعاده الاجتماعية والنفسية والفكرية والفيزيكية المتسقة مع دوافعه وتصرفاته الناجمة عن هذه العوامل. مع الايمان المطلق بقضية متجذرة في اعماقه وان لم يكن قد وعاها بعد.

أما في ليبيا فقد عاش الاحتلال الايطالي والاستعمار الجديد والقواعد الاجنبية وبقى الانسان الليبي محاصرا من قبل هذه القيود التي خلفت الفقر والجهل والمرض . ولم تعالج القصة الليبية في مرحلتها الاولى مشكلة الصراع السياسي فقد وقعوا في «أسر اللغة وطغيان التراكيب اللغوية على الشكل الفني وعلى المحتوى معا».(٤)وقد برز في المرحلة الثانية القاص (علي مصطفى المصراتي) في مجموعته (الشراع الممزق) ١٩٦٣.وتبرز وسط القصص الاجتماعية قصة

(١، ٢، ٣)عبدالله ركيبي المصدر السابق

(٤) أحمد محمد عطية، القصة والانسان في ليبيا، الآداب، العدد ٦، ١٩٦٨.

(سليمان شنابو) التي تعالج مشكلة استغلال الشركات الاجنبية للبترول الليبي، «وسليمان شنابو عامل بترول يوضح كيف يمتص الاستعمار الجديد دماء الانسان الليبي العامل وتنهب ثروته في مقابل الكفاف،وكيف تتكون طبقات انتهازية وسيطة بين الشركة وبين العمال . وتبدأ هذه الطبقة من سمسار العمال الى رئيس العمل الى مندوب الوزارة الذين يقبضون جميعا ويعيشون في رفاهية عدا العامل البائس الذي يعمل لقاء قروش في الصحراء المحرقة». (١)
وقد برز في المرحلة الثالثة القاص (يوسف الشريف) في مجموعته القصصية (الجدار) ١٩٦٥ والتي تعالج مشكلة الموظف الذي يقف من رؤسائه موقف الانسان الانتهازي ويتقرب منهم ومن المحرك الاجنبي الذي يدير الامور العامة.فيبتعد عن أصدقائه وينظر اليه بأحتقار من قبل الجميع(٢).

أما قصص (احمد ابراهيم الفقيه) فكانت أكثر فنية من القصص الاخرى في مجموعته (البحر لا ماء فيه)التي فازت بالجائزة الاولى عام١٩٦٥ وأصدرتها وزارة الثقافة الليبية على حسابها عام ١٩٦٦ يتحدث في قصته (الطحالب) عن كفاح الشعب الليبي ضد المستعمرين الايطاليين «قصة كفاح دموي رهيب ضد مستعمر يستخدم الدم والارهاب الوحشي لانتزاع الارض من أصحابها.وربما كانت الخطابية والتقريرية تغلبان على هذه القصة،ولكن يبدو أن الاعمال الفنية التي تتعرض لكفاح الشعوب ضد المستعمر،محكومة دائما بالخطابية والمباشرة»(٣):

وبرز في هذه المرحلة القاص (رمضان عبد الله) الذي نشر مجموعته (حوار في المدينة)في القاهرة.وتبرز قصة (علبة كبريت) التي دارت حول العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦ قصة نضالية مهمة.«وان كتب عليها رمضان عبد الله- من من وحي الجنوب- كي تمر للنشر.فلم تمر بالرغم من ذلك-لان في ثناياها تحريضا ضد الانكليز في ليبيا-ان رمضان عبد الله خصم عنيف وعنيد للانكليز

(١-٣) احمد محمد عطية، المصدر السابق

ولكل مستعمر، كذلك (صالح) بطل قصته علبة كبريت، الفدائي الذي يعول أمه العجوز واختيه الارملتين اللتين فقدتا زوجيهما في احدى مظاهرات العمال ضد القاعدة البريطانية، ومع ذلك قرر ان يقوم بعمل فدائي ضد القاعدة البريطانية وهو ينظر شزراً الى الشبان الذين يكتفون بمعاكسة النساء الانكليزيات»(١)

وهكذا احتلت القصة المقارعة للاستعمار مكانا مرموقا في الادب العربي الحديث سواء أكان هذا المستعمر الدولة العثمانية أم انكلترا أم فرنسا أم ايطاليا. وبعد اعلان الحكم الوطني في الاقطار العربية، اتجهت القصة العربية الحديثة الى مقارعة الاستعمار المقنع وأعلان الثورة ضد الحكام المرتبطين بعجلات اجنبية فقد قارعت القصة العراقية الاستعمار المقنع بعد اعلان الحكم الوطني من قبل المنتدبين الانكليز فدارت هذه الا عمال حول اشكال الاستعمار واساليبه وطرقه التي دأب الاجنبي على تطبيقها في العراق وسائر الاقطار العربية وهي لاتعدو اذلال الشعوب وسلب خيراتهم مباشرة او عن طريق اذنابه من الحكام، وخير مثال على ذلك الاهداء الذي تقدم به محمود احمد السيد لمجموعته القصصية (الطلائع) ١٩٢٩ فقد اهداه «الى فتية البلاد المستعدة للجهاد في سبيل الحق والحرية مثلها الاعلى يحدوها الامل الذي لاتقوى على تحطيمه قوة في الارض» وقد انطلق هذا النداء من اعماقه الوطنية الممتدة عبر وجدانه القومي. ومن ابرز المقارعين للاستعمار المقنع المتمثل بأذناب المستعمرين من الحكام ذنون ايوب عبر مجموعاته القصصية (صديقي ١٩٣٨، وحي الفن ١٩٣٨، برج بابل ١٩٣٩، الكادحون ١٩٣٩، العقل في محنته ١٩٤٠، الكارثة الشاملة ١٩٤٤، عظمة فارغة ١٩٤٨، صور شتى ١٩٥٤) ولناخذ مثالا على ذلك قصة (ثائر) من مجموعته (الكادحون) للموضوع الطريف الذي عالجه فيها، حيث نلاقي (وحيد) الذي يعيش على صيد السمك، يهجم (بفالته) على جيش الانكليز ويفعل الافاعيل ثم يقتله ابن عمه بغدارته، وسبب ذلك ان قبيلته أعلنت عصيانها على الحكومة لان

---

(١) احمد عطية، المصدر السابق

شيخها لم يفز بكرسي النيابة،ويدافع وحيد عن شيخه بينما يدافع ابن عمه الجندي عن الحكومة«كان منظر المقاتلين غريباً حقاً،قسم يدافع عن شيخه وقسم يدافع عن مليكه وحكومته وكلهم من قبيلة واحدة ولا اظن أنه قد خطر في بال أحد من الجنود أو من الثوار أن سبب كل تلك المجزرة كان كرسياً في مجلس النواب».(١)واذا تناول أيوب الموضوع من جانبه السلبي فقد تناول نفس الموضوع يحيى عبد الحميد (جيان) في قصته (اللهب)(٢) وتدور أحداث القصة عن ثورة العشائر في الجنوب ضد الحكومة عام خمس وثلاثين بسبب التدخل في في الانتخابات النيابية.وهي اقصوصة زاخرة بالاحداث والانفعالات والتصوير الواقعي الجيد،يقود (عذافة) جماعته من الاعراب ويهجم على القلعة التي يعتصم فيها أفراد الشرطة ويحمل حزمة شوك مشتعلة فوق رأسه مشبعة بالبترول ويهجم على القلعة ليشعل فيها النيران ومن ورائه افراد القبيلة المسلحين،وبعد أن يستولوا على القلعة يقع (عذافة) مضرجا بدمائه سعيدا بأنتصار الشعب«أحس بالنار تلامس أصابعه حيث يطبق بذراعه على كارة السعف فباعدهما .النار تتقدم محرقة حارة لاسعة.وسقطت جمرة على قفاه،وانتفض كالجريح أراد ان يقذف بالسعف من فوق رأسه وانغرزت الجمرات عند كتفيه فصرخ بألم وقوة اضرب ياعسر،اضرب النوب.

لقد تملكه عنف وحشي هائل وحث خطاه مخترقا نسيج الرصاص المتداعي حواليه».

يجيد الكاتب في تصوير شخصية (عذافة) حيث يبعث فيها قوة الحياة لانه لايصفها من الخارج فقط بكل دقائقها بل يتعمق في بواطنها ويكشف دوافعها وانفعالاتها.وينمو بها مع نمو الحدث ويأخذ من ملامحها الداخلية والخارجية مايساعده على تكثيف الأزمة .

---

(١) ذنون أيوب،الكادحون،ص ٢٨.

(٢) مجلة المثقف،العدد العاشر،١٩٥٩.

أما اذا ماانتقلنا الى روايات ذنون أيوب (الدكتور ابراهيم ١٩٣٩،اليد والارض والماء ١٩٤٨،وعلى الدنيا السلام ١٩٧٢)نجدها تدور حول مشكلة الديمقراطية الاساسية ألا وهي مشكلة العدل الاجتماعي حيث يعرض أيوب في روايته الاولى انتهازية المثقفين في العراق قبل الحرب العالمية الثانية وبعدهم أداة كأداء في سبيل التطور الثقافي والسياسي والاقتصادي للقطر لارتباطهم بالاستعمار ولانهم يخدمون مصالح أسيادهم ولا يعملون من أجل أبناء الشعب البسطاء. ومثل هذا الموقف لا يختص به العراق وحده بل هو صورة لما كان يسود العالم العربي من انتهازية سياسية بسبب الضغط الاستعماري وحكم الاقطار العربية من قبل صنائع استعمارية.بينما تعالج روايته الاخيرة(وعلى الدنيا السلام) مأساة المثقفين العرب الذين اغتربوا عن أوطانهم لاسباب سياسية،فاذا مالاح فجر الانطلاق الثوري نحروا قرابين على محراب السراب الخلب.اما روايته (اليد والارض والماء) فتعالج مشكلة الارض والاقطاع ومساندة الحكومة للاقطاعيين للتشديد في استغلال الفلاحين وجلهم من النواب الذين كانوا يحكمون العراق بصورة غير مباشرة لما يلاقونه من تأييد المستعمر وأذنابه من الحكام . وهي في موضوعها تقترب من رواية (الارض) لعبد الرحمن الشرقاوي ولكنها تبتعد عنها من حيث البناء الفني فمشكلة الاقطاع ومساندة المستعمرين له مشكلة عامة يعاني منها الشعب العربي معاناة قاسية وما زال يعاني في الاقطار العربية التي لم تمارس الاصلاح الزراعي لحد الآن.

ونتبين في قصص ذنون أيوب أن سبب هذا التخلف الفكري والاجتماعي والاقتصادي يعود الى التنظيمات الادارية التي بلغت حد التفسخ بسبب الاستعمار الكامن خلفها.

ومن أبرز القصاص الذين تناولوا موضوع التحرر السياسي في العراق في الخمسينات من هذا القرن،عبد الرزاق الشيخ علي في مجموعتيه (حصاد الشوك،

عباس افندي) ومهدي عيسى الصقر في مجموعته (مجرمون طيبون،غضب المدينة) وغائب طعمة فرمان في مجموعتيه (حصيد الرحى، مولود آخر) وروايتيه (النخلة والجيران،خمسة أصوات) وعبد الملك نوري في مجموعته (نشيد الارض) وصالح سليمان في مجموعته (السجن الكبير).

وما أن لاح فجر التحرر السياسي حتى وقف القاص العربي المؤيد للثورة الفرح بها،المقارن بين عصرها الطافح بالخير وبين ماكان يعانيه الشعب أيام العهود المبادة،مؤملا تجاوز السلبيات في سبيل حياة هانئة تقود الشعب الى الهناء والسعادة،فقد استقبل القصاص العراقيون ثورة تموز ١٩٥٨ بفرحة غامرة وعاطفة منفعلة مع الحدث العظيم وبفيض من القصص والمجموعات القصصية وأبرز كتاب هذه الفترة(حازم مراد) في مجموعته (وتحطمت الاغلال) وجاسم محمد الجوي في مجموعته (دماء خضراء) وأدمون صبري عبر مجموعاته (ليلة مزعجة،هارب من الظلم،في خضم المصائب،خبز الحكومة).

وقد عولجت القصة التي تدور حول التحرر السياسي في الستينات من هذا القرن وخاصة بعد ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ بصورة أكثر فنية عند كثير من الكتاب الشباب في العراق ففي قصة (العنكبوت) (١) ليوسف الحيدري ادانة لواقع سياسي يتحمل مسؤولية كبرى امام الانسان المسحوق،فقد مسخ البطل بفعل الاضطهاد والتعذيب،قتل الطغاة شقيقه الاصغر فأصيب بصدمة عصبية اظهرته كالمجنون بالنسبة للآخرين تدفعه رغبة عارمة للانتقام من الجلادين وعندما يفقد القدرة على تحقيق هدفه بصورة ايجابية لايجد بدا من قتل العناكب فقد ارتبطت بذهنه مع مصاصي الدماء«وهو يصر على خوض حربه الخاصة حتى النهاية ضد المسخ والاضطهاد والقتل من أجل عالم أنساني نظيف»(٢).

أما في مجال الرواية فقد برزت روايات اسماعيل فهد اسماعيل (كانت السماء زرقاء،المستنقعات الضوئية،الحبل، الضفاف الاخرى) ورواية (المناضل)

(١) فاضل ثامر وياسين النصير،قصص عراقية معاصرة ص٢١١ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٧.

لعزيز السيد جاسم ورواية (الوشم) لعبد الرحمن الربيعي وروايتا(مخلوقات فاضل العزاوي الجميلة والقلعة الخامسة) لفاضل العزاوي و (الزقاق الضيق) لغانم الدباغ و(شقة في شارع أبي نواس) لبرهان الخطيب وغيرها. وجميعها ترتكز على ركائز نضالية ضد الاضطهاد والاستعباد والدعوة الى التحرر والانطلاق .وخير مثال على ذلك رواية (كانت السماء زرقاء) لاسماعيل فهد اسماعيل ،حيث يخوض البطل وحول الحياة في هربه من وجه الطغاة الى (عبادان) يحمل معه ذكرياته الاليمة ماضيه النضالي، كما يحمل زميله الهارب ـأحد جلاديه السابقين ـوضحية جديدة من ضحايا الاستبداد كلاهما صريع جيشان عاطفي من تلك الفورات التي اجتاحت وطننا العربي. وهو في هربه يحمل صراعات نفسه التي تحاول ان تتخلص من وحول الحياة لتتطلع الى براءة المستقبل ونقائه والى الحرية التي يطمح الى نيلها ولكن رصاصة تستقر في عجيزة الضابط فتقعده عن السير وتدفعه الى الموت الذي طالما أذاقه للآخرين بينما كان يحاول التخلص من ماضيه الملطخ بالدماء فقد تلوث بطلنا بدم البراءة ذاتها.

وقد أهتم كتاب القصة في مصر بقضايا التحرر السياسي فقد صورت رواية يوسف السباعي (رد قلبي) أنتصار الثورة المصرية.كما أرخ القصاص نضال الشعب المصري ضد العدوان الثلاثي كما فعل يوسف أدريس في مجموعته (البطل) «كما كتب يوسف السباعي روايتين (جفت الدموع ،ليل له آخر) تدور أحداثهما بين مصر وسوريا في عهد الوحدة بين الاقليمين وعقب الانفصال وتصور الثانية التيارات السياسية في الفترة التي تمت فيها الوحدة وتحلل العوامل المعوقة التي أدت الى الانفصال»(١).ولمعت أسماء كثيرة في هذا المجال منهم المتمرس في الكتابة كعبد الرحمن الشرقاوي وعبد الرحمن الخميسي واحسان عبد القدوس،ومحمد عبد الحليم عبد الله.والكثير منهم شباب لا يقتحم المشكلة مباشرة ولا يستند على التقريرية ولا يلجأ الى الخطابية كما فعل الجيل السابق بل

(١) عباس خضر: ادب المقاومة ص ٦٤.

يلجأون الى الاسلوب غير المباشر كما في قصص حسن محسن ومحمد البساطي ومجيد طوبيا وضياء الشرقاوي وأحمد يونس وأحمد هاشم الشريف وسليمان فياض وأحمد الخميسي وابراهيم منصور وجمال الغيطاني الذي يعد خير مثال لهذا الجيل في مجموعته القصصية (أوراق شاب عاش منذ الف عام).وأفضل من يمثل هذا الاتجاه في مصر،نجيب محفوظ عبر رواياته السابقة على الثورة (القاهرة الجديدة،زقاق المدق،الثلاثية) نجد فيها تفاصيل ثورية للواقع السياسي، فقد انبعثت ثورتهم من الماضي المتهرىء الى أمل مستقبلي حيث يصرخ (علي طه) أحد أبطال(القاهرة الجديدة)في وجه المستعمر وأذنابه،ولا يرهبه السجن ولا الموت في سبيل تحرير بلاده من الطغاة،أما (عباس الحلو) بطل (زقاق المدق) فهو أيضا يبحث عن مكان جديد غير الزقاق مكان ينقله من ماضي الزقاق المؤلم الى مستقبل أكثر رحابة، وهذا ماتفعله (حميدة) بطلة الرواية، وبينما تترك (حميدة) الزقاق وتترك معه الماضي المظلم—على الرغم من ان المستقبل أكثر ظلاما—يعود عباس الحلو الى الزقاق ثانية ليحقق آماله المستقبلة ولكنه لم يجد غير السراب فالموت ، اما الزقاق فيستمر على ماكان عليه،وهكذا يموت عباس الحلو بضربات الجنود الانكليز وهو يحاول انقاذ (حميدة) من المهاوى التي انحدرت اليها.أليس (عباس الحلو)رمزا لهذا الجيل المصري الشاب الذي حاول ان ينقذ مصر من السيطرة الاجنبية فلم يستطع قبل أن تتحقق الثورة المصرية. ويستمر (فهمي عبد الجواد) أحد أبطال (بين القصرين)في كفاحه الثوري من أجل تحقيق الحرية السياسية غير ملتفت الى موقف والده السلبي حتى يقدم دمه قربانا للوطن في مظاهرة احتجاجية قوبلت بالرصاص فالموت.

وقدم نجيب محفوظ في مرحلته الثانية (الفلسفية) نماذج وطنية سعت الى تحقيق الحرية السياسية ضمن الاطار الذي تؤمن به ولكنها لم تكن ايجابية كما في شخصيات مرحلته الاولى(التأريخية) فهذا (عيسى الدباغ) بطل رواية (السمان والخريف)يتخلى عن كل الآمال الوردية التي كان يحيا من أجلها.لقد ترك

النضال وذهب ليساوم الفدائيين المصريين الذي قاتلوا الانكليز المحتلين بعد أن تربع في وظيفته الوجيهة التي تدر عليه مالا كثيرا عن طريق مشروع أم غير مشروع ،ولم يسلك الطريق الثوري الذي سلكه ابن عمه(حسن الدباغ) يقول (عيسى الدباغ) في حديثه مع (ابراهيم خيرت): «والحقيقة أن عقلي يقتنع أحيانا بالثورة ولكن قلبي دائما مع الماضي ،والمسألة هل يمكن التوفيق بين عقلي وقلبي»(١) وينتهي(عيسى الدباغ)في آخر الرواية الى القاعدة تمثال سعد زغلول يتابع بنظراته شابا أسوداً يحمل زهرة حمراء في عروته يسير بأمل في الطريق الطويل المفتوح. ان افريقيا تستيقظ ثائرة على مستعبديها، فهل سيحفز ذلك(عيسى الدباغ) ويعود الى عقله؟ نعم هذا مايريده نجيب محفوظ حيث ينهي الرواية بهذين السطرين «وانتفض قائماً في نشوة حماس مفاجئة ومضى في طريق الشاب بخطى واسعة تاركاً وراء ظهره مجلسه الغارق في الوحدة والظلام»(٢).

وقد عالج أزمة المنتمي القديم في روايته(الشحاذ) حيث يستمر(عثمان خليل) في نضاله من أجل قضية سياسية، بينما يلقي رفيقه في النضال(عمر الحمزاوي) اسلحته ويرضى بحياة راكدة يبحث جاهداً عن طعم حقيقي لها فلا يجد الا بتقديم نفسه فداءا لصديقه السابق—الذي هرب من السجن—عندئذ يهدأ من ذلك القلق السرمدي الذي اكتنف روحه كما تسرب الى حياته.

وما لبث نجيب محفوظ ان نقلنا الى انماط من المناضلين السياسين والمنتمين الذين لم يفقدوا ايمانهم بقضيتهم رغم انسحاقهم وهروبهم من المجابهة الايجابية في الصراع الدائر بين العدالة والظلم. نلتقي في بنسيون(ميرامار)(بمنصور باهي) وهو صورة اخرى لعمر الحمزاوي «هو ثمرة هذا الانحناء الدائم للعاصفة الذي عرفنا بدايته في عمر الحمزاوي فقادته الى الارتداد فالخيانة مرموزاً اليها بالعلاقة بينه

---

(١) نجيب محفوظ ،السمان والخريف ، ص ١٢٦.

(٢) نجيب محفوظ ،المصدر السابق ص ١٩٨.

وبين زوجة استاذه فوزي.على ان الاضافة الهامة التي يضيفها الكاتب في هذه الرواية هي شخصية (سرحان البحيري)الذي يمثل الانتماء الى الثورة بغير ان يختلف معها في الواقع ولا يستقل عنها في الماضي، كان(سرحان)عضواً نشيطاً بمنظمات الثورة تدرج في مسؤولياتها حتى وصل ذروة مايرجوه في مجلس ادارة الشركة التي يعمل بها ولكن الوجه الاخر له كان الانتفاع بالثورة لا النضال عنها، فاختتم حياته هذه الخاتمة الرمزية العنيفة أخفق في احدى الصفقات المثيرة وانكشف أمره فانتحر»(١).وهكذا لم يقتصر نجيب محفوظ في روايته على النضال السياسي قبل الثورة بل وما بعدها أيضا.

أما في الادب الشامي عامة بعد الحرب العالمية الثانية فقد طرحت قضايا سياسية تحررية مختلفة، حيث يقف(سهيل ادريس)في روايته(اصابعنا التي تحترق)موقفاً معادياً من اولئك الذين يدعون الى جعل لبنان للبنانيين من الاحزاب المشبوهة كالحزب القومي السوري ويدعو الى اندماج لبنان في الوطن العربي الكبير وتصدر اعماله عن شعور قومي دافق.(٢)وقد لمع اسم(مطاع صفدي)ككاتب قصة منذ أوائل الخمسينات عندما فاز في مسابقة مجلة الاداب بالجائزة الالى للقصة القصيرة عام١٩٥٣عن قصته(صفعة السوط)وقدم نموذجاً جديداً من القصص في مجموعته(أشباح أبطال)فهو يقول في مقدمة المجموعة شارحا رأيه في(البطل في القصة الثورية): «القصة الثورية لاتدعي إنها واقعية بالمعنى الذي رأيناه فهي تتمثل صيرورة الواقع الانقلابي من خلال الاشكال الوجودي الذي يعانيه ابطال هذه الصيرورة وهي لاتنتقي ابطالها وانما تدعهم ينتقون انفسهم بحسب شدة وعيهم لشرطهم الثوري.ان مقياسها هو مقياس كل فرد منهم عندما يجهد ليكشف معنى الصراع الذي يعانيه في بذرة وجوده بين تناقضاته الخاصة، محاولا أن يجد نقطة التقاء صراعه الفردي بالصراع القومي العام الذي يشارك هو فيه

---

(١) غالي شكري، الادب العربي بعد الخامس من حزيران، الاديب العربي ومشكلات العصر الحديث، ابحاث ووقائع مؤتمر الادباء العرب السابع، ١٩٦٩، ص٦٢.

(٢) عباس خضر، المصدر السابق، ص ٦٤.

كفرد من الطليعة الانقلابية»(١)وقد أكد نظرته هذه في روايته(جيل القدر)حيث يعمل البطل على قتل زعيم سياسي حاكم ليخلص البلد من دكتاتوريته وقد طرق (هاني الراهب)، نفس الموضوع في راويته (المهزومون) ويلتزم كل من سعيد حورانية عبر قصصه وعبدالله عبد في مجموعته (مات البنفسج) بالمنهج الديالكتيكي، لتصوير الصراع ضد قوى الظلم والجبروت لتحقيق الحرية والحياة الكريمة «ولكن بغض قصص حورانية وباقي الكتاب الماركسيين يفسدها شدة الانضواء السياسي لتنحرف باتجاه المبالغة الدعائية حتى لتنتزع عن الواقعية الحقة وتنحو نحو التركيب والتحريف»(٢).
أما الذين كتبوا في مجال القصة التحررية فكثير نذكر منهم: عبد السلام العجيلي، ألفة الادلبي، وليد اخلاصي، حيدر حيدر، زكريا ثامر وغيرهم.

أما القصة السودانية فقد اهتم الجيل الاول (أحمد محمد محجوب، عبد الحليم محمد، معاوية محمد نور، محمد عشرى) بالقصة المحلية التي تعالج مشاكل اجتماعية أما الجيل الثاني فقد اهتموا بعرض صراع العمال ضد الرأسماليين والفلاحين ضد الاقطاعيين «وفي قصص عبد الله علي ابراهيم نجد اهتماماً بمشكلات عمال الصناعة فهو من بلدة عطبرة مهد الحركة العمالية في السودان. وقد نشر في العدد السادس من المجلة قصة (شيء له أبعاد) وتدور احداثها في مدينة عطبرة»(٣)

وتطغى هذه المعالجات المحلية في كتابات: الطيب صالح خليل عبدالله الحاج وعلي الملك، ويشذ عنهم (أبو بكر خالد) الذي عالج في روايته (النبع المر) النضال السياسي الشعبي ضد الحكم العسكري في السودان الذي استمر منذ عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٦٤ حيث تروي الرواية الاوضاع المتردية التي سيطرت على السودان واستغلال الشركات الرأسمالية الاجنبية لخيرات السودان وعملية شراء الضمائر واعداد كوادر من العملاء الذين يغرون بالاموال والمناصب ليقفوا

---

(١) مطاع صفدي (أشباح أبطال)، ص٧.

(٢) رياض عصمت (الاتجاهات الادبية لفن القصة القصيرة في سوريا) مجلة المعرفة، العدد ١٠٨، ١٩٧١.

(٣) محمد زغلول سلام (القصة في الادب السوداني) ص٩٠.

الى جانب المستعمر المستغل ضد ابناء جلدتهم، ولكن الشباب المثقف الواعي تحت قيادة عناصر اشتراكية عملوا على تغيير هذا الوضع الشاذ لانهم كانوا يؤمنون بحتمية التغيير(١) .

وقد كان للصراع العربي الاسرائيلي الاثر الكبير في القصة العربية فقد تناول القصاص العرب هذه المأساة بالمعالجة والتحليل والدراسة. ووقف القاص العربي الى جانب الجندي العربي يقاتلان من اجل القضية الفلسطينية واذا عمل الحكام آنذاك على خذلان الجندي العربي الباسل فأن القصة استطاعت التعبير عن مكنونات النفوس حول هذه المأساة فظهرت عدة قصص وروايات تدور حول القضية الفلسطينية ونظمت أشعار عاطفية كثيرة ولكن. ما دور الفن القصصي في معركة المصير؟ لقد ألف الدكتور بديع حقي رواية (التراب الحزين) وقدم عزمي لبيب (وجوه جديدة) وقدم أمين ملحس اللبناني (من وحي الواقع) وقدم نجاتي صدقي (الاخوات الحزينات) وكتب عبد السلام العجيلي (كفن حمود واينما كان) من مجموعته (الحب والنفس) و(بنادق من لواء الجليل وبريد معاد) من مجموعته (قناديل في اشبيلية). كما جاءت قصص (ألفة الادلبي) عن موضوع فلسطين ساذجة وانفعالية وكتب (سعيد حورانية) أقاصيصه (حمد دياب، قيامة العازار) من مجموعته (شتاء قاس آخر) وقصة (من يوميات ثائر) من مجموعته (سنتان وتحترق الغابة). أما وليد اخلاصي فقد كتب عن القضية الفلسطينية في مجموعته (دماء في الصبح الاغبر) قصتي (ابو سطيف يحرق خان الشوربجي، الآلام الرائعة) كما اصدر مجموعة قصصية باسم (زمن الهجرات القصيرة) اهداها الى مناضلي فتح وهي مجموعة لا تمثل قصص (اخلاصي) ولا تمتلك البعدين الفكري والانساني الكافيين لمعالجة قضية بمثل هذه الاهمية، فجاءت القصص قصيرة جدا ومبتسرة أقرب الى (المليودراما) منها الى الفن القصصي الناضج.

---

(١) محمد زغلول سلام، ص١٢٧.

ففي (قصة فلسطينية) مثلا يسأل محمد والده : متى سنعود؟ ولكنه لا يتلقى جوابا. يموت الاب بالسل ويحقد محمد على الحياة ثم يتزوج ويسأله أبنه أحمد عن الوقت الذي يستطيع فيه القتال فيجيبه الأب عندما تبلغ الرابعة عشرة وعندها يهتف الابن : متى أبلغ الرابعة عشرة ياالهي؟ .

أما القاص العراقي فلم يهتم كثيرا بالمسألة الفلسطينية في الخمسيات من هذا القرن عدا قصص مبعثرة هنا وهناك في بطون الصحف والمجلات والمجموعات القصصية وجميعها تغلب عليا النزعة العاطفية والمليودرامية وتفتقد الاحساس الفني الاصيل. فقد صور هؤلاء الكتاب في اقاصيصهم المطرودين من أرضهم واللاجئين وصوروا شقاءهم وبؤسهم وأحزانهم مما أدى الى طغيان العنصر الحماسي والعاطفي والدعاوى على العنصر الفني .

وفي مجال الشخصيات اعتمد القصصيون على رسم المشردين والبائسين فبدت في صورة ثابتة مفتعلة مسطحة لا أبعاد لها وقد تحولت هذه القصص الى مقالات حماسية أوريبورتاجات صحفية. وضيقوا من الدلالة الرحبة للمأساة وداروا في حلقتها القومية ولم يقفوا الا عابرين عند دلالتها الانسانية. ولا شك ان النكبة في فلسطين مأساة انسانية الى جانب مظهرها القومي. فقد تضمنت مجموعة حامد غضبان الراوي (ازاحة الستار) الصادرة عام ١٩٤٩ قصصا تصور مأساة فلسطين وتمثل هذه المجموعة نفسية العربي الهارب من الواقع الى الخيال الذي يمكن ان يكيفه الانسان كيفما يريد فقد خلق الراوي مجتمعات وأناسا حسبما يشتهي عن عقيدة واخلاص وخلق احزابا سرية تدافع عن العرب وجنسهم وخلق حكاما يؤمنون بكلام المتهمين السياسين فينتمون الى منظماتهم بيسر وسهولة لانهم يدافعون عن العروبة ويعملون في سبيل استرداد فلسطين كما في أقصوصة (هل أنا مجرم) مثلا.

أما قصة عبد المجيد لطفي (ضحايا وشهود)(١) فهي ليست الا ريبورتاجا صحفيا عن مذبحة دير ياسين. وأقصوصة (دمعة محمود) تصور لاجئا فلسطينيا

(١) مجلة الدليل، العدد التاسع ،١٩٦٨.-

يعمل خادما عند اسرة عراقية يأمل في العودة الى يافا وهي من مجموعته (في الطريق).

أما اقصوصة نزار سليم (أشباح وظلال) من مجموعته (أشياء تافهة)فهي تمثل فريقا من اللاجئين يبثون رسائلهم الى ذويهم المشتتين في ارجاء الوطن العربي ويعرض الكاتب صورا قاتمة من حياة اولئك البائسين ويسخر من موقف الدول العربية آنذاك تجاه المأساة.صور في القصة نوازع نفسية متفرقة في وقفة الفتاة الفلسطينية أمام المذياع تتوافر أمام ناظريها رؤى كثيرة تحمل كلها طابع الفجيعة.واذا كان الكتاب في حديثهم عن فلسطين قد استطاعوا ان يعبروا تعبيرا صريحا ومباشرا عما يريدون الجهر به.هو تصوير أثر النكبة على الشعب الفلسطيني خاصة والشعب العربي عامة في الخمسينات من هذا القرن،فقد ارتفعوا في الستينات عن هذا المستوى التقريري الى مستوى آخر أكثر فنية حيث يعالج محمد خضير في قصته (الارجوحة) جانبا انسانيا من الصراع ضد الصهيونية والاستعمار ففيها تجاوز للموت وارتباط بالحياة والمستقبل والامل الانساني فبدلا من أن يحول موت الجندي الى مليودراما تستدر الدموع استطاع القاص ان يكسب القضية وجها جديدا عبر امتداد الحياة ويستمر الجندي المراسل والفتاة بعيدين عن شبح الموت مستمرين في نهر الحياة فهو لا يقف أمام الفجيعة بل أمام الحياة المتفجرة المتجددة دائما وقد سار (أحمد خلف) في قصتيه (خوذة لرجل نصف ميت، وصمت سرى يضيء) وجليل القيسي في (زليخة،البعد يقترب والطيور المهاجرة تأخرت) من مجموعته (صهيل المارة حول العالم)وقصته (معسكر الاعتقال الصحراوي رقم ١٢٥) وجمعة اللامي في قصصه (اهتمامات عراقية،البحر والعنقاء،ساعات من زمن آتي،حكمت الشامي)(١).نهج هؤلاء نفس الطريق الذي نهجه كتاب الخمسينات ولكن بفنية أكبر.وقد عالجت هذه القصص حركة المقاومة المتصاعدة لدى الناس البسطاء داخل الارض المحتلة والعناية بالبراعة الفنية في خلق الاثر الكلي.

وتدور رواية عبد الرزاق المطلبي (ثقب في الجدار الصدىء) حول الصراع

(١) فاضل ثامر– المصدر السابق ص ٢٩،٥٢

الاسرائلي حيث نجد (مختارا) قائد الجماعة يفقد منزلته بينهم ويظنون به الظنون مما يدفعه الى النزوح بعيدا عن قريته على حين يثق أهل القرية بموسى اليهودي الذي ينقل الاخبار للسلطات الصهيونية ويمكن اليهود من سكان القرية العزل.ولكن مختارا ينجح في القبض على موسى وقتل القائد اليهودي، كل ذلك بطريقة مليودرامية عاطفية خالية من الجمال الفني وهكذا يفشل عبد عبد الرزاق المطلبي في معالجة هذه المأساة.ومثل هذا الهبوط الفني نجده عند أكثر كتاب الستينات الذين عالجوا المسألة الفلسطينية.

واذا ماانتقلنا الى القصة والرواية في مصر نجد انهما عالجتا هذا الموضوع بصورة اكثر جدية من الناحية الفنية.فقد كتب(جميل عطية ابراهيم)قصة بعنوان (القاهرة في العشرين من سبتمبر) صور فيها شاباً وفتاة يسيران في شارع قاهري في العشرين من ايلول عام١٩٦٧،ويتكون نسيج القصة من دقائق تافهة تتخلل المسيرة في يوم عادي ويلتصق الاسلوب بسطح الاشياء بالاشارة الى الحرب وقد صدرت قبيل الهزيمة.مجسداً فيها احساس رجل يخرج من السجن ولم يجد في انتظاره أحدا.فقد بات غريباً في مجتمعه وفقد بطولته.ولم يعد مناضل الامس القريب منذ صفيت نضاليته وصلابته داخل نفسه.وأصبحت حياته خالية من كل جمال،سلوته الوحيدة أحضان امرأة وأكلة شهية.ثم أصدر رواية أخرى تعد امتداداً لروايته الاولى ولكنها لم تضف جديداً.فهي تصور فقدان الصلة بينه وبين العالم بعد ان نفوه من الداخل واقتلعوا جذوره من الارض.

وتصور قصة جمال الغيطاني(أيام الرعب)مأساة الانسان العربي فالبطاقة الهوية تعلن ان ميلاده عام ١٩٤٥،وتخترق النصال جلده وتصل الى النخاع،لانه يمثل جيلا تجاوز الهزيمة وتحداها في مختلف أبعادها.وعندما ينتهي الامر بمحروس بطل القصة. الى الجنون يحاول(عويضة)أنقاذه بثبات وثقة.وتعطينا صورة محروس دلالة على الضياع الذي أوشك الانسان الفلسطيني ان يعيشه والذي يرى في الموت والجنون لعبة الحياة لولاان تدارك الفدائيون الفلسطينيون الموقف.

وقد عالجت القصة الجزائرية المسألة الفلسطينية ففي قصة(عائدون)لحنفي بن

عيسى نجد البطل لاجئاً فلسطينياً (١) يعاني من اهدار كرامته ويصبو الى العودة الى أرضه وبيته. وقد سار في هذا الاتجاه (رمضان عبدالله) من كتاب القصة في ليبيا في قصته (الاعلام الخضراء) من مجموعته (حوار في المدينة) وهي تحكي رد فعل مأساة عام ١٩٤٨ في ليبيا «فقد رأت مجموعة من الشباب المثقف الليبي طبع خريطة فلسطين وتوزيع اعلام خضراء ودبابيس بحيث تعلق الخرائط في المحال والمنازل وتلصق الاعلام كلما استرد العرب مدينة فلسطينية ، وبينما تجار السوق البرجوازيون منغمسون في الشراء بادر بطل القصة وهو طفل يبيع الخرائط والاعلام الى مهاجمة حانة يهودي ومنع الرواد عنها ولكن اعلان الهدنة أعاد الى الحانة نشاطها السابق وبقيت الهدنة حاجزاً مانعاً يحمي اليهود. أما بطل القصة فقد فهم بأنه اذا أراد الانسان أن يتقدم فعليه ألا يعتبر ان هناك هدنة مع الحياة... وهي تخلو من الخطابية والمباشرة... خلوها من روح الشعر التي وجدناها منغمة في قصص احمد ابراهيم الفقيه... وليكن عذر رمضان عبد الله انه يكتب القصة كسلاح في معركة الشعب الليبي نحو التحرر والتقدم» (٢).

وهكذا عولجت القضية الفلسطينية تلك المأساة التي هزت الوجدان العربي معالجة مرتفعة النبرة خطابية الصوت، محرومة الا في القليل من الابداع الفني. وبدت كبثرات على وجه المأساة مثل ذلك رواية (طريق العودة) ليوسف السباعي و (طريق فلسطين) لعلي أبو حيدر و (دقت الساعة يافلسطين) ليوسف سالم و (أرض الانبياء) لنجيب كيلاني، فقد امتلأت هذه الروايات بالنبرة الخطابية والتعبير المباشر وامتلأت بمواقف رومانسية أبعدت الحدث عن بؤرته الاصلية فبطل يوسف السباعي مثلا (ابراهيم) الضابط المهندس الفنان يهرب من ميدان المعركة، لانه ما ذهب اليه بدافع الوطنية بل تخلصاً من الديون التي وقع فريسة لها في القاهرة. ومثل هذه المناولة نجدها عند كتاب فلسطينيين أيضاً كرواية (لاجئة) لجورج حنا (و طريق العودة) للكاتب الفلسطيني علي أبو حيدر فلم ترتفعا الى مستوى فني طيب

---

(١) عبد الله ركيبي، الآداب، العدد ٧، ١٩٧٣.

(٢) احمد محمد عطية، القصة والانسان في ليبيا، الآداب، العدد ٦، ١٩٦٨.

لان روايتيهما لفتا بأطار خطابي ورسمتا بألوان رومانسية وخططتا باحداث جانبية فقد ما لنا شخصياتهما بصورة تجريدية وبأثواب وطنية وتوق صوفي لتحرير البلاد كل ذلك يبعدهما عن جو المأساة الحقيقية، لان التحرر لن يتحقق بالخطب يوماً بل بالسواعد المناضلة المقاتلة بعناد وثقة.

أما القسم الثاني من هذه الاعمال التي تدور حول المأساة الفلسطينية فقد ارتفعت الى مستوى المأساة. وخير مثال على ذلك أعمال غسان كنفاني(موت سرير رقم ١٢ أرض البرتقال الحزين، رجال في الشمس، عالم ليس لنا، ماتبقى لكم عن الرجال والبنادق، أم أسعد، عائد الى حيفا) ورواية حليم بركات(ستة ايام) ورواية أميل حبيبي(سداسية الايام الستة).

يقف غسان كنفاني المناضل الشاب الذي قدم حياته من أجل قضيته في أدبه القصصي في نفس الموقف الذي وقفه طوال حياته وحتى الموت، فتح عينيه على مأساة بلاده فاستطاع ان يجسد هذه المأساة بعد أن شربها كأساً دهاقاً فتأصلت فناً في قلمه وحياة بين سطوره، فقد عالج في مجموعته القصصية الاولى (موت سرير رقم ١٢) موضوع المأساة الفلسطينية في أطار محلي بلغ فيه درجة انسانية عالية. ففي قصة(منتصف أيار) مثلا تعود الذكرى ببطلنا الى الماضي يوم ان قام هو وصديقه بعملية فدائية. وقد طلب الصديق أن يضع على قبره أزهار الحقول اذا لم يعد من هذه العملية ويفاجأ بقنبلة اسرائيلية فيموت الصديق (لقد أكتشفت يجب ان تكون قد اكتشفت انت منذ بعيد - كم هو ضروري أن يموت بعض الناس من اجل ان يعيش البعض الاخر، انها حكمة قديمة أهم مافيها الان انني اعيشها) (١) هذا ماقاله غسان كنفاني على لسان بطله في أواخر الخمسينات وبداية الستينات ولكن هذا الصوت الجميل سكت الى الابد في مطلع السبعينات.

ومثل هذه الجمالية الفنية نجدها في قصص أخرى من المجموعة تناولت

---

(١) غسان كنفاني، المجموعة الكاملة، المجلد الثاني، المجموعة الكاملة ص٧٩.

المأساة الفلسطينية (موت سرير رقم ١٢، شيء لا يذهب). أما قصص المجموعة الاخرى فمنها ماهو ذاتي انساني أو محلي قومي مثل (العطش، الارجوحة، لؤلؤ في الطريق، القط، الخراف المصاوبة، ثماني دقائق، اكتاف الآخرين، قاعة العبيد ستة نسور. وطفل في جنازتي).

وتقف روايات غسان كنفاني في طليعة الروايات التي صدرت عن فلسطين وان بلغت رواية (ماتبقى لكم) درجة كبيرة من الابداع الفني ورواية (رجال (رجال في الشمس) تبقى التجسد الحقيقي العميق للمأساة الفلسطينية عبر أجيالها الثلاثة (جيل أبي قيس، جيل أسعد، جيل مروان).

ولم تبلغ روايته الاخيرة (عائد الى حيفا) نفس المستوى الفني الذي بلغته رواياته السابقة ولكن الرواية تستوعب المأساة الفلسطينية وتطرح موضوعاً جديداً عن المأساة. موضوع اولئك الذين تركوا وطنهم واولئك الذين تركوا في ارضهم فلذات اكبادهم هرباً من الجور والظلم الاسرائيليين فقد ترك (سعيد) وزوجته (صفية) ولدهما خلدون الذي لم يتجاوز عمره آنذاك خمسة أشهر عندما احتل العدو مسكنهم الذي رحلوا عنه واصطحبا معهما بقية أولادهما. وعندما عادا بعد عشرين عاماً الى (حيفا) لرؤية الطفل قفزت الذكريات الى مخيلتهما. وانسابت دموعاً في اعينهما عندما رأيا بيتهما وما حل به من تغير ومضي الوالدان في انتظار ابنهما (خلدون) ولكنهما فوجئا بدخول (دوف) تبينا أنه ابنهما (خلدون) الذي لم يبق فيه شيء من ملامح العرب القديمة. وبعد أن يخرجا من بيتهما تاركين ولدهما الذي لم يعد ولدهما ظلا صامتين ونظر سعيد الى زوجته صفية وقال: (ارجوا أن يكون خالد قد ذهب اثناء غيابنا) وهكذا أنهى غسان كنفاني رائعته الاخيرة التي بدت بعمق المأساة الفلسطينية. وقد قدم اميل حبيبي رواية من الارض المحتلة بأسم (سداسية الايام الستة) وهي عبارة عن سلسلة من الاقاصيص يربطها خيط واحد تروى لنا مأساة حزيران والتمزقات والآمال والاحزان التي عاشها المواطن الفلسطيني طوال فترة الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين. وهي تتحدث عن مأساة اولئك الذين بقوا في فلسطين والذين هاجروا

منها. وأفجع مافيها انها تمثل الارض المحتلة الرازحة تحت كابوس الهزيمة والانهيار.

القصة الاولى تحدثنا عن مسعود وابن عمه، فقد كان مسعود وحيدا لا يعرف له أهلا مسعود الطفل الوحيد المكنى (بفجلة) يفاجأ بزيارة أبن عمه القادم من الضفة الغربية، أحب مسعود أبن عمه (سامحا) حبا جما وكان يستمع بأعجاب اليه وهو يتحدث عن أخيه الذي يعمل صيدليا في الكويت والذي زار القاهرة وحضر غناء عبد الحليم حافظ بشخصه ونام وهو يحلم ب(سامح) وبأخيه الذي في الكويت. وتحدثنا القصة الثانية (وأخيرا نور اللوز) عن الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة الذي انقطعت بينه الاواصر السابقة. فهم أغراب في وطنهم ويفاجأ راوي القصة بزيارة صديقه (ميم) الذي راح يحدثه عن ذكريات سابقة وآمال مشتركة (ولكنني الآن وبعد أن زارني الاستاذ ميم وحدثني بكل ما حدثني به فهمت كل شيء فأني واثق بأن الاستاذ (ميم) صادق في نسيانه وصادق في لهفته على أن يتذكر، فبأرادة باطنية غريبة نسي حقا أنه نفسه هو صاحب قصة الحب الجميلة والابتسامة التي نورت صبانا. اذا كانت قامتة قد طالت كما قال لي فستطول يده هذه القصة فيقرأ فهل حينئذ سيتذكر فبعيد الروابط بماضيه فينتشل نفسه من حاضرها وأخيرا نور اللوز فالتقيا وكان الربيع يضحك وكان القدر يقهقه).(١)

ومن الروايات الطليعية التي تناولت موضوع الارض المحتلة واستقطبت ابعاد النكبة (ستة أيام) لحليم بركات وقد امتازت بالاجادة الفنية وحسن البناء في تناول الموضوع والمزاوجة الواعية بين عمق أبعاد النكبة والتمزق الكائن في الوطن العربي بحيث استطاع الكاتب ان يعكس وجه المأساة الفلسطينية على مرآة الوطن العربي الكبير(٢).

---

(١) اميل حبيبي، (سداسية الايام الستة) ص٣٨-٣٩-٤٨.

(٢) صبري حافظ، نكبة فلسطين في الرواية العربية المعاصرة، مجلة الآداب، العدد الرابع، ١٩٦٤

وكانت هذه الروايات التي كتبها كتاب فلسطينيون تمثل المأساة الفلسطينية وابعادها بصورة افضل من جميع القصص الاخرى التي كتبت في هذا الموضوع. ومن هنا، نستنتج ان القصص التي دارت حول المأساة الفلسطينية لم تستوعب استلاب فلسطين استيعابا كاملا فلم تنجب أدبا يحمل أبعاد النكبة وعمق المأساة عدا قلة من القصص التي استطاعت أن تصل الى مستوى المأساة.

أما القصص الاخرى فقد عبرت عن النكبة تعبيرا سريعا وطفت على السطح ولم تستطع مواجهة الطوفان القصصي الصهيوني الذي يعطى لليهود الحق في الاستلاء على فلسطين، في الوقت الذي استطاعت فيه الحرب الجزائرية انتعطي أبعاد المأساة الجزائرية على الصعيد الادبي والقصصي خاصة وتحقق النصر للمناضلين في سبيل الحياة.

ومن هنا وجب على القاص العربي أن يعمل دأبه على تفهم أبعاد المأساة الفلسطينية وربطها بمأساة التحرر العالمية لانها جميعا تملك بعدا انسانيا واحدا هو الحرية.

وبعد فأن قصة التحرر السياسي العربي تدور في أربعة محاور اساسية:

١)الوقوف ضد الاستعمار المباشر: الدولة العثمانية وانكلترا في العراق ومصر والسودان. فرنسا في الشام والجزائر ،ايطاليا في ليبيا.

٢)مساندة الثورات الوطنية التي نشبت ضد الاستعمار أو الحكومات الرجعية في الاقطار العربية.

٣)مناهضة الحكومات الرجعية الحاكمة بوحي من الاستعمار وتصوير فساد انظمتها واضطهادها لشعوبها الطيبة وتضييقها على الحريات العامة، والدعوة الى الثورة ضدها،والامل بأنتصار الشعب عليها.

٤)القضية الفلسطينية والحرب التي دارت بين العرب واسرائيل في الاعوام التالية: ١٩٤٨ ،١٩٥٦، ١٩٦٧.

المراجع

آ. الكتب:

١. الاديب العربي ومشكلات العصر الحديث، مؤتمر الادباء العرب السابع، دار الجمهورية ، بغداد، ١٩٦٩.

٢. اميل حبيبي، سداسية الايام الستة، دار العودة، بيروت، غفل من التأريخ.

٣. ذنون أيوب، الكادحون، مطبعة أم الربيعين، الموصل ، ١٩٣٩.

٤. شاكر مصطفى، محاضرات عن القصة في سوريا حتّى الحرب العالمية الثانية، مطبعة الرسالة ، القاهرة، ١٩٥٧—١٩٥٨.

٥. عباس خضر، أدب المقاومة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨.

٦ عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية، دار المعارف ، القاهرة، غفل من التأريخ.

٧ . علي الراعي: دراسات في الرواية المصرية، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٦٢.

٨. عمر الطالب: الرواية العربية في العراق، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧١

٩. غسان كنفاني: الآثار الكاملة، المجلد الثاني، دار العودة ببيروت، ١٩٧٣

١٠. فاضل ثامر وياسين النصير، قصص عراقية معاصرة، مطبعة دار السلام ، بغداد، ١٩٧١.

١١. محمد زغلول سلام، القصة في الادب السوداني الحديث، مطابع سجل العرب، القاهرة ، ١٩٧٠.

١٢. مطاع صفدي، أشباح وابطال، بيروت، ١٩٥٩.

١٣. نجيب محفوظ، السمان والخريف، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٦٢

ب. المجلات والصحف:

١٤. مجلة الآداب. العدد ٤، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٤.

١٥. مجلة الآداب. العدد، ٦، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٨.

١٦. مجلة الآداب. العدد٧، دار الاداب، بيروت، ١٩٧٣.

١٧. مجلة الاعتدال. العدد العاشر، ١٩٣٥.

١٨. جريدة الانباء البغدادية، العدد الثاني، ١٩٥٤.

١٩. جريدة الايام. دمشق، ١٦ تشرين الثاني ١٠١٩٦٤ ٣ مايو، ٢٨يناير ٢٠ حزيران. عام ١٩٣٥.

٢٠. مجلة الدليل البغدادية، العدد التاسع، ١٩٦٨.

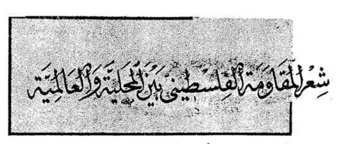
٢١. مجلة الطليعة، العدد الخامس، ١٩٣٦. سوريا.

٢٢. مجلة لغة العرب. الاعداد من ١-١٠، بغداد، ١٩١٣-١٩١٤.

٢٣. مجلة المثقف. العدد العاشر، بغداد، ١٩٥٩.

٢٤. مجلة المعرفة، عدد خاص عن القصة المعاصرة في سوريا، العدد١٠٨. دمشق، ١٩٧١.

الدكتور سالم الحمداني



هل شعرنا المقاوم ملتزم؟وما أبعاد الالتزام فيه؟

يقول غسان كنفاني(عالمياً يدرك شعر المقاومة التزامه بحركة الثورة في العالم التي هي في نهاية المطاف المناخ الذي تنمو بداخله الحركة الثورية المحلية تؤثر فيه وتتأثر)(١)فاذا كان شعر المقاومة يلتزم بحركة الثورة المحلية، ويلتزم ايضاً بحركة الثورة العربية كلها ثم يلتزم بعد هذا وذاك بحركة الثورة العالمية، فهو إذن شعر ملتزم.والتزام هذا الشعر بحركة الثورة في العالم وتعبيره عن قضية الانسان في كل مكان، ونظرته الواعية لمسألة حرية الفرد ومقاومة الظلم الذي يواجهه، ومواجهة الاستبداد الذي يعتقل حريته، هل تضع هذه الاسباب شعرنا المقاوم في موقع العالمية؟

يقول غنيمي هلال(ان الادب استجابة للحاجات الفكرية والاجتماعية للوطن والقومية، وموضوعه تغذية لهذه الحاجات، فهي محلية موضوعية أولا، وهي تشف عن غايات عالمية ولكن من وراء التعبير عن المسائل والامال والالام القومية وما يتبع ذلك من المواقف النفسية والخواطر الذاتية... فالادب وطنية وقومية أولا. وخلود الاثار الادبية لايأتي من جهة عالمية دلالاتها، ولكنه ينتج عن صدقها، وتعمقها في الوعي الوطني والتأريخي وأصالتها الفنية في تصوير آمالها وآلامها(٢).

(١) الادب الفلسطيني المقاوم : ٦٣ .

(٢) الادب المقارن : ١٠٤و١٠٥ .

ولا شك في ان شعرنا المقاوم يعبر تعبيراً أصيلا عن معركة شعبنا ضد الارهاب والاحتلال ويجسد تجسيداً عميقاً أماني هذا الشعب الفلسطيني والشعب العربي في استعادة ارضه المقدسة بل في استعادة حريته وكرامته واثبات وجوده .

واذا تجاوز هذا الشعر، التعبير عن ثورة الشعب العربي في استعادة حقوقه، الى التعبير عن صراع الانسان من اجل حريته ووجوده وكرامته، فما احراه اذن ان يكون في عداد عالمية الادب فهو اذن شعر عالمي انساني يسهم في بناء الحضارة العالمية الحاضرة .

واذا كان الشعر العالمي تعبيراً عن الامال والالام القومية وتجسيداً للمواقف النفسية والخواطر الذاتية، فأن شعرنا المقاوم شعر عالمي، لانه مرتبط بأخطر قضية يعاني منها الانسان العربي في هذا العصر تلك هي قضية وجوده وحفاظه على كرامته، وهذا الوجود مرتبط أشد الارتباط بحركة الجماهير العربية، لالأنها تريد ان تدافع عن حقوقها المهضومة أو تستعيد حريتها المسلوبة فذلك ممايحصرها في نطاق المحلية وانما لان هذه الحركة مرتبطة بالتالي بالاماني الانسانية كلها ولأن التعبير عن هذه الاماني لا يتم الا عن طريق التفاعل مع كل الحركات التقدمية الثورية في العالم والتي ترفع شعار اسقاط كل الانظمة التي تحرم الانسان حريته وتمسك عنه لقمته وتقف بينه وبين أمانيه الوطنية والقومية من جهة ثم أمانيه الانسانية والعالمية من جهة أخرى. ولذلك صار هذا الشعر المقاوم كما يقول محمد دكروب (شعر قضية، مرتبط ومتفاعل بالحركة الثورية.. وان الشعراء أنفسهم مندمجون بحركة الجماهير يخوضون معها المعركة ويعبرون عنها في وقت واحد—ويرون أن الشعر يؤدي دوره الثوري داخل الجماهير لاخارجها، وان هذا الشعر—جزء من شعر المقاومة والاحتجاج في العالم يتجلى بملامح فلسطينية)(١).

وبعد، فاذا جاءت هذه المقدمة للتعريف بشعرنا العربي المقاوم ولوضعه في موقعه الملائم بين شعر المقاومة والاحتجاج في العالم، فما هي الاتجاهات التي

(١) ديوان محمود درويش : ص ٢٢ .

يتحرك في اطارها هذا اللون من الشعر وهل يقتصر على التعبير عن القضية المحلية فينحصر في الارض الفلسطينية أو أنه يتحرك في حدود الارض العربية كلها فيعبر عن الاماني القومية للامة العربية وانه يسهم في التعبير عن آمالها المشتركة وامانيها الكثيرة فيخوض معها معاركها في كل جانب ويضع يده في يدها في أي طرف ؟

أو أن هذا الشعر يتعدى حدود هذه المحلية وتلك القومية ليشارك الجماهير الكادحة في كل بقعة من بقاع العالم معركتها المصيرية ويخوض معها أقسى التجارب ! ! ثم أليس لهذا الشعر المقاوم من خلفية يرتكز عليها وجذور يمتد اليها وابعاد يتصل بها . وعلى أي من الشعراء ترتكز هذه الخلفية ، ومن أولئك الذين كان لهم فضل السبق في خوض هذه المعركة المقدسة ثم كيف عبروا عنها ومن أي اتجاه فني أو سياسي كان ذلك التعبير؟!

واذا جاز لنا أن نعتبر منتصف القرن التاسع عشر بداية للنهضة العربية الحديثة –كما يرى ذلك أغلب الدارسين–فأن شعرنا الفلسطيني قد أسهم منذ هذه الفترة في حياتنا الادبية.ووجدنا شعراء من مثل يوسف النبهاني وعباس الخماش ويوسف أسعد وسليم اليعقوبي والياس مرمورة وغيرهم يعالجون نظم الشعر. (الا ان المضمون كان مثقلا بالقيم الدينية والمدائح السلطانية)(١) شأنه في ذلك شأن كل شعرنا العربي في هذه الفترة.

ومنذ مطلع هذا القرن أصبح للشعر أغراض اوثق أتصالا بالحياة من الموضوعات التي راجت قبل ذلك من مثل معالجة قضايا الاستعمار والخطر الصهيوني والموضوعات الاجتماعية والقول في السجون(وقد اخذ الاحساس بالكيان العربي يملأ نفوس الناس في هذه المرحلة)(٢).(وفي هذه المرحلة تتضح أهداف الحركة العربية)(٣). ونجد أنفسنا فيها أمام عدد آخر من الشعراء،

---

(١) عبد الرحمن ياغي : حياة الادب الفلسطيني الحديث ص ١٢١ .
(٢) المصدر نفسه : ص ١٦٥ .
(٣) المصدر نفسه : ص ١٧٣ .

ملأ الحياة الادبية ذكرهم كاسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني واسكندر الخوري البيتجالي وسعيد الكرمي ووديع البستاني وابراهيم الدباغ..وفي فترة مابين الحربين (اتصل الشعر اتصالا وثيقا بالقاعدة الشعبية وأصبح ألصق بالقضية الوطنية والثورات بوجه الاستعمار)(١).ومنها أيضا تبرز أسماء جديدة من الشعراء كان لها صداها في تجسيد الحركة الوطنية الفلسطينية. وصارت أقدر على الالتحام بجماهير الامة العربية،كعبد الرحيم محمود وفدوى طوقان وعصام حماد والسكاكيني والنشاشيبي،حتى اذااقترب موعدالنكسةالاولىعام١٩٤٧ وجدنا الشعر أقدر على معايشة الثورة وتجسيد أماني الشعب الفلسطيني وتصوير مآسيه،وفي هذه الفترة يمس الشعر تيار حزين موجع هو أثر من آثار التيار الرومانسي الذي بدأ ينشر أجنحته على الشرق العربي منذ مطلع هذا القرن ولكن اعصار النكبة الذي أخذ يقترب من أرض فلسطين كان العامل الفاعل في خلق هذا التيار حيث كانت الظروف تشير الى موعد وصول ذلك الاعصار.على أن أثر الشعر في هذه المرحلة الطويلة لم يستطع أن يتجاوز حدوده المحلية والقومية الى حد بعيد،فقد كان ينقصه في رأينا وضوح الرؤيا من ناحية.ومن ناحية أخرى لم يستطع هذا الشعر ان يواكب الوضع السياسي سواء أكان ذلك على الصعيد العربي أو الصعيد العالمي.

ومن هنا فقد قصر هذا الشعر في أداء دوره القومي حيث وجدنا الشعراء تشغلهم موضوعات الحياة الاجتماعية وغيرها عن موضوع المعركة القومية.

ولعل هذا التقصير لم يكن سببه الشعر وحده أو الشعراء أنفسهم فحسب وانما يعود السبب الى ظروف السياسة العالمية التي لم يستطع شعراؤنا العرب بما لديهم من قدرة محدودة على الاسهام فيها،والتأكيد على قضيتهم من خلالها ولم تكن الامة العربية بعامة لتمتلك مصيرها أو تحدد خط سيرها القومي والسياسي بحيث تستطيع معه ابراز مشكلتنا الفلسطينية سواء بالشعر أو بغيره،وعلى أية صورة

(١) المصدر نفسه : ص ٣٣٣ .

فأن شعرنا الفلسطيني الحديث استطاع من بعد النكبة الاولى أن يحدد هويته ويوضح خط سيره فيلعب دوراً فاعلاً في حركة التحرر العربية فحسب وانما في حركة الثورة العالمية، شأنه في ذلك شأن الثورة العربية المعاصرة التي استطاعت ان تتجاوز العزلة وتسهم في حركة تحرير الانسان من واقعه المؤلم. ومن بعد نكبة ١٩٤٧ تطورت الموضوعات تطوراً ملموساً فأذا هي تعالج قرار التقسيم وتتكلم على هيئة الامم المتحدة وتتحدث عن مولد اسرائيل وحرب فلسطين والحض على البذل والتضحية والفداء والاشادة بالاستشهاد والجهاد وتصوير اللاجئين في مآسيهم، وتنقم على الحكام، ومن بعد هذه النكبة نجد كثرة كاثرة من الشعراء من مثل محمود الحوت وفتح الله عواد وفدوى طوقان وسميرة أبو غزالة وهارون هاشم رشيد وعيسى الناعورى ومصطفى الكيلاني وعلي هاشم رشيد وخليل زقطان ودعد الكيالي وخالد نصرت وكمال ناصر. فلا بدع اذن ان يسهم الشعر اسهاماً فعالاً في حركة الثورة الفلسطينية ويكون عاملاً مهماً في مقاومة الهزيمة.

ولا شك أن هذا النبع الثر الذي احتوى شعراءنا المحدثين هو المصدر الذي يتفرع عنه جدول محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران وراشد حسين وغيرهم. وهذا البحث هو الذي يوضح الاجابة عن مامر من تساؤلات، محاولاً دعم كل الافتراضات بنصوص من شعر الشعراء.

أول الافلاك التي يدور حولها شاعر المقاومة الفلسطيني ارضه التي نبت فيها وتغذى من خيرها وشرب من مائها. وطبيعي ان يتجه هذا الشعر اول مايتجه الى شعبه يخوض معه معركة المصير ويعبر عن امانيه وآماله المشتركة ويتألم لجراحه ويأسى لأساه. وأول مايطالعنا من هذا التعبير هو الامتزاج بأرض الوطن والتعمق بحبه والاعتزاز بالبيئة المحلية والتعلق بالارض الفلسطينية المقدسة ولا بأس ان نطلق على هذا كله حب الارض وحب الوطن. وحب الوطن عند شاعر المقاومة شجرة معطاء تضرب بجذورها الى أعماق أرض الوطن فهو لا ينفصل عنها ولا

ينفك منها ولذلك وجدناه يتغنى بهذه الارض، ويعتز بها ويستعرض في شعره احلى ذكرياته فيها ولا يفتأ يردد مع فتحي قاسم شاعر الارض المحتلة:

سأبقى رغم اذلالي
وحصني والاسى الممقوت
هنا في حصن اجدادي
سأبقى رغم اذلالي
ولن أرحل
هنا جذري وتاريخي
وقصة حبي الاول
بعزمي والدم الغالي
باصراري
واهتف رغم آلامي
ورغم البغض والذل
هنا وطني(1)

فهو يتحمل الذل ويصبر على الهوان ولكنه يهتف رغم كل ذلك (هناوطني). أما محمود درويش فهو يذوب في هذه الارض ذوبانا كما تذوب قطعة الثلج بالماء.

وطابع البساطة يسيطر على أبياته سيطرة ملحوظة فهو لا يتعلق بهذه الارض وانما ينحني لها تقديرا وتقديسا واجلالا ،بل هو يعبدها عبادة حين يقول:

بلادي..ياطفلة عبدة
تموت القيود على رجلها

---

(1) عبد الرحمن ياغي : دراسات في شعر الارض المحتلة ص ٦٥٠ .

دعوني أقبلها
أصلي لها
دعوني أقبلها قطعة قطعة.(١)

وقديما تحدثوا عن التكرار واستملحوه في مواضع كثيرة ونحن هنا لا نستملحه فقط بل نستشف من خلفه قوة التأكيد والالحاح على الشيء وذلك في تكرار لفظة دعوني.ولفظة: قطعة.ولعله أراد بها هنا التأكيد على هذا الحب.

وتجسد فدوى طوقان انفعالات الانسان الفلسطيني المشرد وتصور عواطفه ومشاعره حين يهوى على أرضه يشم ثراها ويقبل تربتها ويعانق شجرها ويضم الى قلبه حصاها،تماما كما يفعل الطفل وهو يلقي بنفسه في أحضان أمه حبا وشوقا بعد طول فراق.

وأهوى على أرضه في انفعال يشم ثراها.
يعانق اشجارها ويضم لآلي حصاها
ومرغ كالطفل في صدرها الرحب خدا وفم
وألقى على حضنها كل ثقل سنين الألم

فأرض فلسطين هنا هي الام الحانية وطفلها هو الفلسطيني الذي شردته الاحداث،وحرمته حنان الارض وعطفها،وأروع من هذا كله هو هذا التصوير النفسي الرائع الذي تقدمه الشاعرة لتجسيد حب المواطن الفلسطيني لارضه وتعلقه بها فتقول:

وهزته أنفاسها وهي ترعش رعشة حب
وأصغى الى قلبها وهو يهمس همسة عتب
رجعت الي!
رجعت اليك وهذي يدي
سأبقى هنا،سأموت هنا،هيئي مرقدي(٢)

(١) ديوانه : ١٠٣
(٢) ديوان وجدتها : ص ١٧ و ١٨ .

ويرى محمود درويش ان الموت على ارض فلسطين خير له من الرحيل عنها وهجرها وتلك لعمري غاية ما يصل اليه الحب لموطن الولادة بل موطن الذكريات أستمع اليه في أروع صور الولاء والتقديس يقول:

يا نوح هبني غصن زيتون،

ووالدتي...حمامة

أنا صنعنا جنة

كانت نهايتها صناديق القمامة

يا نوح لا ترحل بنا

أن الممات هنا سلامة

انا جذور لا تعيش بغير أرض(١)

اليست هذه صورة من صور الانسانية التي لا تحلم الا بالسلام،وما أروع هذه الصورة الختامية وما أشد دلالتها التي تعبر عن امتزاج الدم بالتربة . على ان هذا العشق والحب للارض التي سجد لها الشاعر تقديساً وحباً وولاء صار فيما بعد اشبه بالطلل الذي لا يثير في نفس الشاعر الا الحزن والاسى،ولا يدفع الا الى استذكار الحنين والتعبير عن معنى الاغتراب.ولم لا؟ألم يعش شوقي هذه التجربة حين نفي الى الاندلس بعيداً عن أرض الوطن ؟ ومن قبله كان البارودي يعاني نفس التجربة فيحن الى تربة الوطن ويبكي الاهل والأحبة والاصحاب من جزيرة سرنديب التي قضى فيها سبعة عشر عاماً طريداً شريداً؟ فاذا كانت هذه الغربة تثير في نفوس الشعراء مشاعر الحنين والالم والشوق؟ فهي أولى أن تثير مشاعر أقوى في نفوس شعراء الارض المحتلة.لان التجربة هنا اشد عمقاً وأكثر نضجاً،ومن هنا عبر الشعراء عن هذه التجربة بمشاعر انسانية عميقة هي مشاعر رومانسية حزينة تمثلها بحق هذه الابيات لمحمود درويش.وقد أستطاع فيها أن يرسم لوحة لهذا الحنين على أرض سلبت،

(١) ديوانه : ٢٦٤ .

وصارت ذكريات أشبه بأطلال القدماء، هذه الذكريات أو (الاطلال) عند محمود درويش هي الكروم والحقول والخضرة التي تزقزق في أجوائها العصافير. وهي عنده أيضاً في شجرة التوت وبيادر القمح وسنابل الحنطة، وهي أيضاً الحكايات والاغنيات:

حدثوني عن بلادي انهـــا حلم يغمر آفاق حياتـي
عن كروم رحبة مثل المـــدى وحقول طيبات ناضـرات
ترقص الشمس على آفاقـها والعصافير تسوى زقزقات.
حدثوني عن عشاش رطبـة بعثرتها الريح في كل الجهات

وليست هذه العشاش التي بعثرتها الريح سوى رمز للوطن الذي بعثرته حوادث الايام وريح الزمن، ثم يقول:

عن حفيف التوت في ساحتنـا عن عبير في ذرانا الملهمات
حدثوني أنا قلبي بيـــدر فارغ حن لضم السنبلات
املاؤه عن حكايات بلادي انها أروع ما في الاغنيات(1)

أما شوق الشاعر لضم السنبلات، فلا يعني الا أمل الشاعر في استعادة هذه الارض، وضم أجزائها في جسد واحد.

وهذه الارض التي امتزج بها شاعر المقاومة، صارت فيما بعد أشبه بالاحلام والرؤى، وما أروع الاحلام وما أقدسها في نظر الشاعر العربي، أي شاعر عربي، أليس هو الشاعر الذي تغنى قديماً بالاطلال والدمن، وكانت تجتمع في خياله رؤى وأحلاماً يبكيها ويستوحي صور الماضي منها؟!

وفي ظني أن صور هذا الشعر المقاوم تشبه صور شعرنا الجاهلي، وتقترب منه أحياناً، فاذا بالشاعر الفلسطيني يستجمع في خياله كل ما كان يتعلق بحياته في هذه الارض. وقد صارت في نظره الان أشبه بالطلل، بل هي لا تثير في نفسه

---

(1) ديوانه : ص ١٨ و ص ١٩ .

الحنين وأحلام الماضي فحسب،وإنما تختلط بهذه الأحلام صور من الاسى والالم على ما ضاع واغتصب مثل هذه الصور التي تذكرنا بحنين الشاعر الجاهلي الى موطن ذكرياته ووقوفه على طلله،ما جاء في قصيدة(بحيرة الزيتون)ليوسف الخطيب التي يقول فيها:

أقريتنا سألت الريح ان مرت بأطلالك:
و أسراب الصقور المتخمات سألت عن حالك
وأعلم أن رواية الطلول حديثه مر
كذلك حدثت عنك الرياح واردف الصقر
تظل جدائل الزيتون طول العام مرخية
على دار لنا في وحشة الاطلال منسية
يلوح ركامها المهجور أشباحاً ضبابية(١)

ونحن نتساءل الآن:لم يتوجه يوسف الخطيب الى الصقور يسألها والرياح يستجوبها عن أطلال بيته وحال بلاده وشؤون قريته،أليست الريح أو الصقور —وهما لا تثيران الا معنى القوة ولا تشعران الا بقسوة الحدث—وسائل أراد بها الشاعر أن يجسد معنى الغربة ويثير جانب الحنين،لكننا قلنا أن الفرق بين شعرنا الفلسطيني وشعرنا القديم هو ما يختلط بصور شاعرنا الفلسطيني من الاسى والالم واللوعة،وقد يتضح هذا في الصورة الاخرى من نفس القصيدة:

أقول لها اذا وافيت عند النهر قريتنا
فحطي بعض ساعات وبثي الدار لوعتنا
أقريتنا وحق ثراك ما أغفى لنا جفن
يظل الشوق يسهدنا وينزف دمعنا العين

وفي رأيي أن رقة هذه المشاعر وعمق هذه العواطف لدليل على حب الارض والانشداد اليها والاعتزاز بها.

(١) مجلة الآداب : عدد ١٠ ،سنة ١٩٥٧،ص ٣.

وبمرور الزمن، صارت، هذه الذكريات ما يشبه(الفولكلور)ولذلك رأينا توفيق زياد يصور لنا في(لوحته الفولكلورية)شجرة(الفيجن)والوردة والفلة والبيدر، ويذكر لنا الزيتون والسدرة والموقد والعيدان والحلة والسلة......الخ.

أمي الحبيبة
لك مني مئتا قبلة
ابعثها من بيتنا العالي على التلة
من شجرة(الفيجن)والوردة والفلة
والبيدر الضاحك من دغدغة الغلة
من نصبة الزيتون والسدرة...والملة
والموقد الصائم...والعيدان والحلة
من كرمة في كل صيف...تملأ السلة(١)

هذه الارض التي يذوب في تربتها الشاعر وهذه(الاطلال)و(صور الفولكلور) التي يعتز بها صارت اذن مجرد أحلام يحن اليها وتصبو نفسه الى أن يعود اليها، ثم لا يتصور بعد كل ما يقول الا انه يعدو وراء سراب او يسبح في جو من الاحلام لان هذه الارض ليست هي الآن أرضه وما فيها من(أشياء)ليست هي الآن ملكه، وانما هو يشعر بقيد لا ينفك أن يقيده ويعتصر الدم من معصمه. ولذلك وجدناه يتغنى بالحرية ويؤكد عليها في شعره، بل يجعلها هدفاً من أهدافه. وليس مفهوم الحرية في نظر شاعر المقاومة مفهوماً ضيقاً كما لم يستعمله استعمالا أنانياً، فهو لم يطلبه لابناء فلسطين ولا لأبناء العروبة فحسب، بل يطلبه لكل انسان مظلوم، ولكل نفس حبيسة، ولكل فرد مقيد، فمفهوم الحرية عند شاعر المقاومة مفهوم انساني عام وليس محلياً خاصا.

واذا كانت الحرية تمنح للمظلومين والمشردين، فما أخرى بشاعرنا أن يطلبها للانسان الفلسطيني المعذب قبل أن يطلبها لغيره لا لأنه يفرق بين الانسان المعذب

---

(١) ديوانه : ص ٧٢ .

في فلسطين وبين غيره، بل لأنه يعاني معه هذا العذاب ولأنه أيضاً أول المعذبين في هذه الارض، ولأنه ولد وسط العذاب وما زال يتعذب كلما أن جريح في بلده، أو امتدت عيناه الى أرضه. ومن أجل ذلك وجدنا توفيق زياد يمنح كل شيء للحرية حتى أنه ليمنحها قلبه حين يقول:

فأنا اعطي الحرية
وحقوق شعوب الارض
الكبرى والصغرى
آخر نبض من قلبي (١)

ولان هذه الحرية شيء عزيز فهي اذن شيء جميل يقترن بالزنابق والورود بله الربيع هكذا يقول سميح القاسم في ديوان دمي على كفي:

فلتشرب زنبقة الحرية
في سفح الجبل الاحمر.
لتسيل ربيعاً... في عطش الصحراء
صحرائي العربية (٢)

على ان هذا الالتزام بالمحلية الذي عبرت عنه كل القصائد السابقة – والذي ظهر في اتجاهات الشعر في التعبير عن التمسك بالارض الفلسطينية والتعلق بمظاهرها – لا يمكن ان ينفصل عن الالتزام بالاماني القومية للامة العربية ذلك لان مأساة الشعب الفلسطيني هي جزء من مأساة الامة العربية كلها بل هي مأساة هذه الامة بعينها خصوصاً بعد نكسة حزيران – ١٩٦٧ وأصبح

---

(١) ديوانه : ٤٤١ .

(٢) ديوان سميح : ٦٤

من العسير على الدارس ان يفرق بين التزامه لقضايا الشعب الفلسطيني والتزامه بقضايا الامة العربية.بل يمكن اعتبار هذا الشعر منذ سنة ١٩٥٦ ممثلاً لاماني الامة العربية، ذلك«ان عدوان ١٩٥٦ على مصر كان نقطة تحول اساسية في تاريخ ذلك الشعر وكذلك كانت ثورة الجزائر وثورة اليمن وبناء السد العالي»(١)وعلى أي حال فانه منذ منتصف الخمسينات من هذا القرن صار شعر المقاومة الفلسطيني يعيش في وجدان الامة العربية ويعتز بتراثها بكل قضاياها وأمانيها الوطنية والقومية خصوصاً تلك التي تشارك حركة الثورة العالمية دعوتها في انقاذ الانسان المعاصر من الذل والظلم والقسر، وفي التخفيف عن الام الجوع والحرمان الذي يكتنفه ويهدد حياته.

« وبسبب سياسة الاضطهاد القومي التي يصبح هؤلاء الشعراء على تعغسها ويحسون بسبب المحاولات المتتابعة لاضعاف الصلة بالماضي التي تنتهجها السلطات الحاكمة، قامت الرغبة المضادة لدى الكثيرين من الشباب للتعلق بهذا التراث» . (٢) والتزام شعر المقاومة بالقضايا القومية للامة العربية لايقتصر على بلد دون بلد ولا على حدث دون حدث: فكأنه كان يرصد كل أحداث الامة العربية في كل بقاعها ويعيش معها ويتمثلها.

ومن هنا يمثل هذا الشعر بحق وجدان الامة تمثيلا صادقاً،ويتفاعل مع كل حركة ويختلط دمه بكل قطرة من دمها،خصوصاً اذا عرفنا أن هذا الشعر هو رافد من روافد الشعر العربي،لا ينفصل عن نهره ولا يبتعد عن عرقه.ولعل ثورة الجزائر كانت أعظم أحداث الامة العربية التي عبر عنها هذا الشعر المقاوم،وتمثلها تمثلا ناضجاً.

وهذا(حنا أبو حنا)يربط حرية الامة العربية وثورتها بحرية الجزائر وثورتها فيقول:

---

(١) غسان كنفاني : الادب الفلسطيني المقاوم : ص ٨ .
(٢) عبد الرحمن ياغي : دراسات في شعر الارض المحتلة ص ٦٥٢ .

ورأيت شعبي سيل نار دافـــق متوثب في موكب الاريـــاح
وإذا اللهيب بريق عينك ساطعا وعيون شعبي الثائر الطمــاح
فلأجل تحرير الجزائر ثورتي ولأجل رغدك وثبتي وكفاحي(١)

وقد استهوت هذه الثورة قلوب كل شعراء المقاومة،ولذلك وجدناهم جميعاً يعيشونها ويتمثلونها في شعرهم،وينحنون امامها تقديراً وتقديساً وحباً.ولعل أكثر من تغنى بها،وأشار اليها راشد حسين وأبو أياس،ومحمود دسوقي،وجمال قعوار،وحنا أبو حنا،وعصام عباس،وفوزي الاسمر(٢).

واذاكانت ثورة الجزائر حافزاً لهذا الشعر تجعله يتغنى بثورة الامة فانه -أي هذا الشعر-قد استوعب كل أحداث أمتنا-كما ذكرنا-.

وعلى رأس هذه الاحداث معركة بور سعيد التي تغنى بهاكل شعراء المقاومة.
فهذا توفيق زياد يتغنى ببطولة الشعب المصري الذي تحدى جحافل الغزاة فيقول:

يا شعب مصر ومصر قبر غزاتها حييت من شعب أبي مقدم
حشدوا جحافلهم وعدة حربهم فصمدت لم تجبن ولم تتحطم
شعب بأيديه يصارع جحفلا بمدافع وبطائرات حـــوم(٣)

على أن صورة هذه الامة لا تظهر في شعر شعراء المقاومة لاحداثها الخاصة، وانما تتجلى هذه الصورة بروعتها وضخامتها في حرارة التعبير العام عن وجدان الامة تعبيراً تتمثل فيه كل أماني الامة وآمالها في الانتصار على التخلف والانحطاط والارتفاع بمستوى الانسان العربي الىما يكفل له حياة أفضل،واجتياز حدود هذا التخلف الى مكان يحتفظ فيه بكرامته وحريته.ولعل أروع من تمثلوا وجدان هذه الامة الشاعر سميح القاسم في قصيدته المسماة(الى الاسطى سيد)وقد اختار هذا الاسم ليمثل به نضال الانسان العربي الكادح الذي صنع-رغم مستواه الشعبي العادي-المعجزات وحقق المستحيل،وفيه يقول:

---

(١) المصدر نفسه : ص ٧٤

(٢) ينظر في ذلك : الادب الفلسطيني لغسان كنفاني ص ٧٢و٧٣.

(٣) ديوانه : ٤٢ ،وانظر ديوان سميح : ص ١٩ قصيدة في الغرض نفسه .

يا أسطى سيد
ابن وشيد
شيد لي السد العالي
اطفيء الغيظ الغالي
وأمنحنا...وامنح أهلك
كوباً من ماء
وخضاراً..وزهوراً وضياء

إذن فالذي يمنحه الاسطى سيد بساعديه وعرق جبينه: الزاد والسعادة والحرية ويستمر سميح في شرح خطر هذا الجهد فيقول:

أزف الموعد
والقرية الصحراء...العطشى تحلم
والبذرة في التلم الصابر تحلم
بأسم ضحايا الاهرام وبأسم الاطفال
ابن السد العالي..يا صانع حلم الاجيال(١)

ويرسم توفيق زياد أبعاداً أوسع لوجدان هذه الامة في ثورتها على التخلف وفي حربها للاضطهاد، ودفعها تحكم العدو بمصير الامة العربية، فيشير الى كل ماتتوقف عليه حياتها في المصانع والمزارع والمدارس. ويضع داخل اطار هذه الصورة لوحة تمثل كل الشعب، عماله، فلاحيه، طلابه، شهداءه.

سأكتب
وعلى أبواب مصانعنا
ومدارسنا، ومزارعنا
وعلى جدران قصور العمال
وعلى راحات الاطفال
وعلى انصاب الشهداء الابطال

---

(١) ديوانه : ٩٧ .

وعلى أكتاف الطيارين الشجعان

ولا تمثل هذه الصورة مكاناً معيناً وانما تمثلها أرض الامة العربية كلها وتستوعبها.

وسأكتب

في كل مكان

في القدس العربية

في غزة في الجولان(١)

هذه هي صورة الامة في شعرنا المقاوم، بل هذه هي حدود الارض العربية ترسمها وتحدها عواطف هؤلاء الشعراء الثوار الذين وضعوا أنفسهم وأرضهم وعواطفهم، بل كل مشاعرهم ووجدانهم داخل اطارها. لانهم يرون ان التزامهم بقضية الثورة الفلسطينية يعني التزامهم بالثورة العربية، وقضيتها في كل مكان من أرض العرب.

ويسهم محمود درويش في رسم صورة الوجدان العربي. فيكمل ما وضعه زميلاه سميح وتوفيق في هذه الصورة من أبعاد هذا الوجدان حين يفسح المجال لليبيا أن تحتل مكاناً في صورة هذه الامة فاذا هي تتعانق – بعد الثورة – مع الشام ومع مصر، فترتفع بذلك زغاريد الفرح وتقوم أقواس النصر مقام سلطان الالم.(٢)

ولم ينته وجدان الامة في شعر شعراء المقاومة عند الحدود التي ذكرناها فقط وإنما يمتد أيضاً الى فكرها الذي يحفظ لها هذا الوجدان ويقيها من الضياع إذ لا وجود لامة – أية أمة – دون فكر يمثل تاريخها في ماضيها وحياتها في حاضرها وأمانيها في مستقبلها وتطلعها. ومن هنا كان تقديس شعر المقاومة للفكر وللكلمة التي هي أداة هذا الفكر.

---

(١) ديوانه : ٤٥٢ .

(٢) انظر ديوانه : ٢١.

وقد تنبه سميح القاسم الى أهمية الكلمة وخطورة الفكر،ومن هنا كان تقديره لاهل الكلمة وأصحاب الفكر. وقد أشار في قصيدة له الى أثر نجيب محفوظ في شحذ الهمم ورأى أنه يمثل أحلام الامة وقدر فيه شموخ الحرف وجرأة الفكر،وأشاد بتجسيده لاحلام هذه الامة فقال:

فاغرف من أعماق البئر العذراء
واسق العامل والفران وأطفال الحارة.
فالناس ظمآء
أكتب عن شحذ الهمة
أكتب عن أحلام الامة
طوبى للحرف الشامخ في الليل مناره (١)

أما ضمير هذه الامة فلا يجسده خير من وحدتها،وضم أشتاتها والتقاء قلوب أبنائها. وطالما أن شاعر المقاومة قد التزم بقضايا الامة العربية،فان عليه أن يجسد أماني شعبها ويضم صوته الى دعوة جماهيرها الكادحة، ذلك أن هذا الالتزام الذي أشرنا اليه، وتحدثنا عنه انما هو في الأساس التزام قضايا الجماهير. ومن هنا فان الدعوة الى الوحدة،ليست سوى الالتزام بأهم قضية تطرحها جماهير الامة العربية. ولذلك يرى سميح القاسم أن هذه الوحدة هي ثمرة تضحيات الملايين:

كفى لن نقبل العذرا
فقد طالت أمانينا
ولم تهدأ أغانينا
وضحينا الملايينا
قرابينا
فدى للوحدة الكبرى (٢)

(١) ديوانه : ٨٨ .
(٢) ديوانه: ١٥٦ .

على ان هذا الالتزام لم يقتصر على استيعاب وجدان الامة والدعوة الى الوحدة وتقديس فعل الكلمة والذوبان في تربة الوطن، والتغني بثورات الامة، وإنما تمثل أيضاً في مقاومة الظلم ومقارعة الاستبداد ورفض التحكم، وهذا التمثل يعبر عن أقوى ما يلتزم به شعر المقاومة. ولذلك جاء التعبير عنه قوياً صارخاً مدوياً لانه لا يتكلم بأسم صاحبه فحسب، وإنما يتكلم بأسم الجماهير لانه يلتزم بقضية الجماهير. ومن هنا كانت كلماته والفاظه شواظاً من نار على رؤوس الظالمين.

ثوروا على الظلم والطغيان واتحدوا   الى متى شعبنا للظلم يحتمل
سيروا نحطم قيداً قد علاه صدا   ونهدم الظلم لا خوف ولا وجل
مرت سنون على الاوطان حالكة   فما رأى ظلمنا آباؤنا الأول (١)

وهكذا يرفض محمود دسوقي ظلم اليهود ويحطم السلاسل التي حرمته حريته دون خوف أو وجل، وهو في هذا كله ينطلق من مبدأ التمرد ضد الظلم والتعسف. ولعل هذه الظاهرة — ظاهرة التمرد على الظلم ورفض التعسف — من أبرز ظواهر الأدب الفلسطيني ظهوراً على مر العصور، وفي مختلف اتجاهات الشعراء، حتى صارت قصائدها أغاني ترددها الافواه في كل مكان وفي كل عصر، ولعل المواطن العربي لا ينسى صرخة هارون هاشم رشيد في رفضه الظلم وتمرده على الواقع المستبد حين يقول :

أنا لن أعيش مشـــــردا   أنا لن أظل مقيــــــدا
أنا لي غد وغدا ســـــأز   حف ثائرا متمـــــردا
أنا لن أخاف من العـــوا   صف وهي تجتاح المدى(٢)

وخلاصة القول في هذا الالتزام أن نقول أن الدارس لشعر المقاومة الفلسطيني لا يستطيع أن يضع حدوداً عميقة بين المحلية التي يمثلها تقديس الارض الفلسطينية ومعالجة قضايا الشعب الفلسطيني، وبين القومية التي تمثلها كل قضايا

---

(١) غسان كنفاني : الادب الفلسطيني المقاوم : ٦٣ .

(٢) ناصر الدين الاسد : الشعر الحديث في فلسطين والاردن : ٢٧٩ .

الثورة في الاقطار العربية الاخرى، ذلك لان كلا من رافد المحلية،ورافد القومية يجري في أرض واحدة هي الارض العربية، ولان لكل منهما جذوراً عميقة يلتقيان عندها هي جذورر الوجدان القومي الواحد، ولأن كلا من هذين الرافدين يصدر عن نبع واحد.على أن التزام هذا الشعر المقاوم لم يقتصر على حدوده المحلية والقومية،وإنما تعداها الى حدود العالمية، وذلك لان هذا الشعر يدرك(التزامه بحركة الثورة في العالم التي هي في نهاية المطاف المناخ الذي تنمو داخله الحركة الثورية المحلية).(١) وفي هذا الشعر أيضاً لا تحس(بأثر من آثار الفردية أو الانعزالية،وإنما هو صوت جماعة متعاونة متآزرة يشد بعضها بعضا. (٢)

(وجنبا الى جنب مع المعارك المصيرية التي خاضها شعراؤنا الثوريون مع شعبهم هنا،والتي كونت عناصر شعرهم...خاضوا معركة مصيرية،معركة الصلة العضوية الحية مع الشعوب الاخرى وكفاحها).(٣)

ولذلك فنحن نقف أمام عشرات من القصائد موجهة كلها الى الحركات الثورية في العالم،أو هي موجهة للثوار الذين سجلتهم تلك الثورات وخلدت ذكرهم.فلمحمود درويش قصيدة(أناشيد كوبية)ولفوزي الاسمر قصيدة بعنوان(أنا عبد)موجهة لشعب أفريقيا.ولسميح القاسم عدة قصائد عن لومومبا وأفريقيا وزنوج أمريكا.(وديوان عصافير بلا أجنحة)لمحمود درويش(في معظمه غناء لثورات أفريقيا)والذي غنى لثورات العالم بأخلاص وعمق وتلقائية تبعث على الاعجاب والذي قدم أجود رثاء عربي للشاعر الاسباني الثائر لوركا. (٤)

فعالمية الشعر المقاوم العربي تتجلى اذن في عمق الالتزام بالقضايا الانسانية هذه القضايا التي لا يمكن فصل الواحدة منها عن الاخرى،فمن تحد للظلم الى مقارعة

---

(١) غسان كنفاني : الادب الفلسطيني المقاوم ؛ ٦٣ .

(٢) عبد الرحمن ياغي : دراسات في شعر الارض المحتلة : ٦٥١ .

(٣) المصدر نفسه : ٦٢٥ .

(٤) غسان كنفاني : الادب الفلسطيني المقاوم ص ٦٦.

الارهاب الى الحث على النضال الى طلب الحرية وغير هذه وتلك من القضايا التي لا يزال الانسان في كل منطقة من مناطق العالم يعاني منها ومن آثارها، أولى هذه القضايا التي التزم بها شاعر المقاومة مسألة الحرية التي هي من أهم المسائل التي تدافع عنها كل قوى الثورة في العالم، ومعالجة الشاعر الفلسطيني لمسألة الحرية شيء طبيعي لان هذه الحرية شيء لا يتجزأ، فالدفاع عنها ضمن الحدود المحلية او القومية جزء من الدفاع عنها ضمن العالمية وطلب الحرية للانسان الفلسطيني أو العربي هو جزء من طلبها للانسان الافريقي أو الفيتنامي وهكذا...

ومن هنا كان اعتزاز الشاعر بأبطال الحرية في أفريقيا أو فيتنام أو كوبا هو نفس اعتزازه بأبطال الحرية في فلسطين او الجزائر أو مصر أو العراق.

فهذا سميح القاسم يتغنى بكاسترو زعيم كوبا، وكأنه يتغنى بزعيم عربي. طالما يحطم هذا الزعيم أغلال الشعب فهو شعلة في (عتمة أمريكا) وهو (منقذ البلاد المنهوبة):

قدما... قدما في هذا الدرب
يا حاطم أغلال الشعب
قدماً يا أول شعلة
في عتمة أمريكا المحتلة
ياغوث الجزر المنكوبة
بأسم الحرية والانسان
ما عاد مسيحاً يصلب(١)

لكن سميح ينفعل أكثر حين يتحدث عن التفرقة العنصرية في أمريكا، ويرسم صورة حية لقاتلي الحرية هي صورة (أمريكا في القرن العشرين) بل صورة (أمريكا المتحضرة) التي لاتفرق بين الزنوج والكلاب.

قل لي.. حدثني عنكم في أمريكا الحرة
من مدرسة البيض.. كنيستهم.. فندقهم
كتبت بالفسفور وجابت كل الحارات وعبارات

---

(١) ديوانه : ٨٣ .

«ممنوع إدخال كلاب وزنوج»
والابيات لا تتحدث عن أعداء الانسان في أمريكا، بل تشير الى فضائحهم في أفريقيا

هل تسمع عن أسد يصطاد
عن حقل مزروع شهداء
عن شعب ينبت في أرض
بدماء القتلى مروية
عن شمس تولد حاملة
خبزاً..أحلاماً..حرية
هل تسمع عن أفريقيا(١)

تلك هي صورة الانسان المعذب في أمريكا وأفريقيا، بل تلك هي صورة أعداء الحرية. ولست أشك أن هذه القصيدة هي ثمرة تجربة مريرة للانسان المعذب في فلسطين، ولست أشك أيضاً أن هذه اللوحة الانسانية التي رسمها سميح تعبر عن تجربة شعرية ناضجة عاشها الشاعر، وعاش أمثالها على أرضه، وفي معظم مراحل حياته؛ بل لست أشك كذلك أن هذا الزنجي أو الافريقي المغتصب والمعذب هو هنا رمز لأخيه الفلسطيني المغتصب والمعذب.. انها لصورة تحمل شحنة عاطفية تتعاطف مع خيال حلق بالشاعر فوق مجاهل أفريقيا وأرض أمريكا. هكذا اذن يكون الالتزام بالقضية.

وقد ارتبط مفهوم الحرية لدى شاعر المقاومة بمفهوم السلم، وصار هذا المفهوم من أوسع المفاهيم الحديثة التي ارتبط بها شعرنا المقاوم، واتسع مداه حين أسهم بحركة تحرير الشعوب المضطهدة المجاهدة، ومن هنا فقد كان هذا المفهوم من أقوى الوسائل التي ربطت شعرنا المقاوم بشعر المقاومة في العالم، ويستطيع القارىء أن يقف على هذه الحقيقة في أبيات الشاعر خليل زقطان، التي تمثل تياراً عربياً قومياً، ولكنه تيار واسع المدى بعيد الحدود، لا يقتصر أثره على حدود قضيتنا الفلسطينية؛ بل يتعداها الى حدود العالم المضطهد البعيد.

(١) ديوانه : ٧٦ فما بعد .

نسير بشعبنا المضنى مع الاحرار في الركب
فلا قيد ولا رق ولا داع الى الحرب
تعال نشارك الانسان في تحريمه المدفع
تعال لنزرع الدنيا أمانا أينما نزرع(١)

ومن أجل الحرية يناضل المناضلون،وفي طلبها يموتون ويستشهدون. ومن هنا ارتبط مفهوم النضال ضد الاستبداد والتحكم والاستعمار بمفهوم الحرية. والشاعر الملتزم لا يفرق بين المفهومين لان الحرية هدف من أهداف النضال، والذين يسعون الى الحرية يناضلون من أجلها،وكما تغنى شعرنا المقاوم بالحرية. فقد أنشد في مقاومة العسف والاستبداد،لا العسف في فلسطين والجزائر. وإنما العسف في تركيا واليونان وكوبا..وأفريقيا..وغيرها .

فمن وجهة نظر الشاعر الملتزم،لا يختلف النضال ضد الارهاب والعسف : إن كان في آسيا أو أفريقيا أو أمريكا، فالعسف هو العسف والنضال هو النضال،ولذلك كان الشاعر الفلسطيني المقاوم يترصد كل حركات المقاومة في العالم وينسج حولها أغاني النضال وأناشيد الحياة.ومصدر هذا الرصد كما ذكرنا هو الالتزام. ومن هنا كان توفيق زياد يطلق نشيده في(مانيلاس غليزوس) البطل اليوناني الذي قاوم الاحتلال الهتلري، ثم وقف بعد ذلك أمام حبل المشنقة ليلقى الموت على أيدي الحكم العسكري في اليونان، فهذا المناضل في نظر الشاعر رمز لكل انسان مناضل فلسطيني،أفريقي ،أمريكي،يوناني...الخ .

ومن هنا كانت تحية الشاعر للبطل المناضل بأسم كل المناضلين العرب :

من شعبي من صدر عروبتي الخضراء
من أخواني خلف الاسلاك السوداء
من مصر وسوريا من بغداد
من وهج المدفع الرشاش
يقرع شعبي الاجراس

(١) ناصر الدين الاسد : الشعر الحديث في فلسطين والاردن : ٢٩٨ .

فتصيح الاجراس
الحرية
الحرية لمنيلاس (١)
أما أبو سلمى فأنه يفهم الحرية فهماً شاملا لا يتجزأ يريدها لنفسه ولرفاقه في التاريخ .

أيها الثائرون في العالم الرحب	على الظالمين في الآفاق
حطموا النير فهو من أثر الـو	حش على الارض واعصفو ابالوثاق
وامسحوا الظلم والجهالة	والفقر من الكون بالدم المهراق
أينما كنتم فنحن رفاق	وحدتنا حرية الاعتاق
في الميادين والمعامل اخوانا	وفوق الربى وفي الاعماق
جمعتنا مبادىء وعهود	فالتقينا من قبل يوم التلاقي (٢)

أما نهر العمال فيلتقي عند مصبه كل الشعر المقاوم في العالم،وليس غريباً أن يكون صوت العمال هو صوت المشاعر الانسانية،بل هو صوت الكادحين والمناضلين.ومن هنا كان التزام الشعر المقاوم بقضايا الكادحين التزام قضية ولا يستطيع القارى في كثير من الاحيان ان يقف على حدود معينة لصورة الكادحين في تعبير الشعراء،فالعامل هو العامل في الفولغا والاورال ومصر ولبنان والصين والصومال وكوبا،كما يقول سميح القاسم:
سلاماً يا سواعد اخوتي العمال
سلاماً يا مداخنهم
سلاماً يا منازلهم
سلاماً للجسور الشهل
للالات للابراج
وجاء معلمي الجوال
من الفولغا أتاني

(١) ديوان توفيق زياد : ص ١٥٤ .
(٢) عبد الرحمن ياغي : حياة الادب الفلسطيني الحديث ، ص ٢٤٤.

من ذرى الاورال
من الهند الشقيقة جاءني
من مصر من لبنان
أتاني من بلاد الصين
من كوبا...من الصومال(١)

ولقد صار الشعر الفلسطيني المقاوم سجلا لكل المناضلين في العالم،فالشعر الفلسطيني لم يعش بمعزل عن حركات التحرر والنضال في العالم لانه شعر ملتزم ولانه يحيا في وسط النضال،ولانه يعيش مع هؤلاء المناضلين في قلوبهم وفي أشعارهم،ومن هنا صار هذا الشعر سجلاً للمناضلين،يحكي قصصهم ويروي أخبارهم ومن هنا كان يعرض على شعوب العالم اسماء المناضلين واخبارهم ويحكي بطولاتهم،ويفضح أساليب التحكم في تلك البلاد.فشعر المقاومة اذن صار بديلاً عن كثير من وسائل الاعلام والتلفزيون والراديو والصحف والمجلات وغيرها.ولعل القارىء لم يكن يعرف الكثير عن لوركا شاعر الحرية الكبير في اسبانيا ، لو لم يؤكد عليه شعراء المقاومة في بلادنا فصورة لوركا في شعر محمود درويش هي صورة الشاعر والبطل المناضل:

أجمل البلدان أسبانيا ولوركا يا صبايا
أجمل الفتيان فيها
يا مغنى النار وزع للملايين شظايا

آخر الانباء من مدريد أن الجرح قال
شبع الصابر صبراً
اعدموا غوليان في الليل،وزهر البرتقال
لم يزل ينشر عطراً(٢)

وهذا توفيق زياد يعرفنا بالشاعر السوفيتي مایاكوفسكي قبل أن يكتب عنه جلال فاروق الشريف بعدة سنوات،فيقول :

---
(١) ديوانه : ٢٧ .
(٢) ديوانه : ١٤٦ .

يا من أعطيت الكلمات
تعابير ملامح
ووهبت الدنيا...الحرف الجارح
والاغنية الخضراء...فؤاد الكادح
مايا كوفسكي
ازأر..انشد..اسخر(١)

ويسجل الشاعر نفسه قصة—نضال شعب الكونغو التي يمثلها بطلها المناضل لومومبا، وجاءت القصيدة نفسها بعنوان(لومومبا)(٢).

ولم يكن هذا الشعر المقاوم سجلا لتخليد ابطال وزعماء التحريرفحسب، فالعالميةمفهوم ضخم يستوعب أحداث العالم، ويحكي قصة كفاح الانسان، ويسجل صور المآسي التي يرتكبها اعداء الانسانية، وذلك لان هذا الشعر—كما قلنا—كان يرصد هذه الاحداث ويتبع أخبارها، ويتابع تطورها، فاذا نحن أمام صورة هيروشيما في قصيدة لسميح القاسم يقول فيها:

طفل بلا رجل.بلا اعين.ومحتلون بلا وجه
وتقهقهه الاوباء والقحط الخبيث
كل الاناث هنا عواقر
قلبي على العمال خوف الجوع، ايديهمتصوغ الخوف
من أجل الصغار
قلبي على الانسان من قلق الدمار (٣)

وقد يتصور بعضهم أن هذا الشعر، من غير هدفوليس الامر كذلك لان صورة هيروشيما لا تزال تمثل أمام العالم كله في حرب فلسطينوليست الابادة التي يمارسها بأقل من تلك التي وقعت في هيروشيما.فهيروشيما هنا ليست سوى رمز لفلسطين.

(١) ديوانه : ٢٣٤ .
(٢) القصيدة بديوانه : ١٧٠ .
(٣) ديوانه : ٧٦.

أما قصيدة سميح(الى ثوار فيتكونج)فتمثل روعة التلاحم بين ثورات العالم ووحدة وكفاح الانسان ضد التحكم والتعسف. بل انها تعبر عن قوة النضج وعمق التجربة لدى شاعرنا المقاوم فليست هاتان الثورتان سوى صورتين لجسد واحد انهما رمز لكفاح الانسان ضد قوى التحكم والعسف.

وحينما ينشد شاعر الثورة الفلسطينية لثوار فيتكونج، فانما هو ينشد لثوار فلسطين،وحينما يتحدث عن صرخات الاحرار في فيتنام، فانما هو يقصد صرخات المجاهد الفلسطيني؛ وحين يطالب بموت الامريكيين،فانما يطالب بموت الصهاينة وهكذا،يكون منطلق الشاعر الفلسطيني واحداً في كل الاحوال، لان كلتا الثورتين تصدران عن نبع واحد، بل هما جزء من ثورة الانسان على التخلف والتحكم والسيطرة،واستمع الى سميح يصرخ بأعلى صوته.ويهدر بأقوى كلماته حين يتحدث عن ثوار فيتكونج :

اسمعها تهدر ملء فمي
اسمعها في الوديان على الغابات على القمم
اسمع صرخات الاحرار وقهقهة الرشاش
اسمع غارات الفاشست الاوباش
وأصيح أصيح بلا صوت
الموت لآلهة الموت

على أنه يجدر بنا قبل أختتام الحديث عن هذا التيار العالمي، أن ننوه الى أن أغلب الذين عبروا عنه ونظموا قصائدهم في معالجة موضوعاته،هم شعراء يلتزمون بتيار اليسار السياسي، فقد كان محمود درويش عضواً في احدى منظمات الحزب الشيوعي، ولا زال كذلك كل من سميح القاسم،وتوفيق زياد وآخرون .

وتفسير ذلك عند بعض الدارسين، ان هؤلاء الشعراء كانوا بحاجة الى تأييد القوى الديمقراطية في العالم. يقول عبدالرحمن ياغي(لقد ساهم شعراؤنا الثوريون

بنجاح في هذه المعركة، ورفعوا عالياً لواء التضامن الاممي واخوة الشعوب في شعرهم..ليس من ناحية انسانية مجردة، نظرنا الى تمتين الصلة مع القوى الديموقراطيةالاخرى محلياً وعالميا.. لقد كنا بحاجة ماسة الى كل تأييدديموقراطي لكفاحنا)(١) .

على أننا نضيف شيئاً آخر الى ما يراه الدكتور ياغي، وهو أن قوى اليسار الشيوعي تولي دون غيرها أهتماماً الى قضايا الفكر، وما يتعلق به،وكأنما كانت تحس أكثر من قوى العالم الاخرى خطر هذه الناحية، فهي تبذل الكثير في سبيل اجتذاب مفكري العالم نحو قضاياها المعاصرة، ومن هنا نجد سيطرة معسكر اليسار الشيوعي على قضايا الفكر في العالم. بينما يلتزم الاتجاه المحلي والقومي شعراء يصدرون عن تيار قومي عربي من مثل هارون هاشم رشيد، وفدوى طوقان،ومحمود دسوقي،ويوسف الخطيب وغيرهم.

وبعد فلست أريد أن أنهي هذا البحث دون الاشارة الى أن هناك وفرة من المظاهر العامة الانسانية،تلتقي في اطار الشعر المقاوم العالمي،الذي عبر عنه شعر المقاومة الفلسطيني الملتزم.فدواوين الشعراء تزخر بعشرات القصائد التي تصل الى مستوى الجودة كلها تعبر عن قضية الانسان ووجوده وتتحدث عن العلاقات الانسانية التي لا يجمعها شيء أعظم من صوت الكلمة.

---

(١) عبد الرحمن ياغي : دراسات في شعر الارض المحتلة ،ص ٦٢٥ .

المراجع :

١ـ توفيق زياد، ديوان توفيق زياد، بيروت بدون تاريخ.
٢ـ سميح القاسم، ديوان سميح القاسم، بيروت، ١٩٧٠.
٣ـ عبدالرحمن ياغي: حياة الادب الفلسطيني الحديث، بيروت، بدون تاريخ.
٤ـ عبدالرحمن ياغي: دراسات في شعر الارض المحتلة، القاهرة، ١٩٦٩.
٥ـ غسان كنفاني: الادب الفلسطيني المقاوم، بيروت، ١٩٦٨.
٦ـ فدوى طوقان: ديوان وجدتها، بيروت، بدون تاريخ.
٧ـ محمد غنيمي هلال، الادب المقارن، ط٤، القاهرة، ١٩٧٠.
٨ـ محمود درويش، ديوان محمود درويش، بيروت، بدون تاريخ.
٩ـ ناصرالدين الاسد، الشعر الحديث في فلسطين والاردن، القاهرة، ١٩٦١.
١٠ـ مجلة الاداب، عدد ١٠، بيروت، ١٩٥٧.

هاشم عبد الله خضر



توطئة:

لماكان من واجب الخلف المحافظة على تراث السلف والنظر فيه بتبصر وامعان يعتمد تقدير الحسن والصواب،وانزاله المنزلة اللائقة به من الاقتداء والتأسي، كان من حق اولئك السلف ذوي الفضل والسبق علينا اعتماد ماخلفوه من مآثر وفضائل في،العلم والادب كي نفيد مما أفادوا ونمضي قدما في طريق النور والهداية كما مضوا.

ولعل هذه النظرة تبدو أكثر وضوحا حين نقبل على تراثنا الاسلامي في الاندلس حيث شع نور العلم والهداية في وقت كان الناس فيما يجاور البلاد الاندلسية يتخبطون في دياجير الجهل والظلم والتخلف...فكانت البحوث العلمية والجهود الثقافية في شتى الميادين على أيدي رجال أعلام خدموا العلم وأهله ولم يألوا جهدا في التقرب الى الله به.

ومن هنا تبدو ضرورة التعريف الموجز بمن يتيسر التعريف به من أعلام الثقافة في الاندلس الذين مازالت كتب الادب والتأريخ والتراجم تزخر بهم،

ولم يزالوا حتى الآن غير معروفين ولا مشهورين في الاوساط الدراسية وميادين البحث الادبي خاصة.

وقد كان القاضي الاديب منذر بن سعيد البلوطي –أول من عرفنا به وسيكون الاديب أبن بسام الشخصية الثانية التي نعرف بها في هذا البحث بأذن الله وتوفيقه.

اسمة ونسبه:

أبو الحسن علي بن بسام التغلبي الشنتريني،(١) ولا نكاد نجد أوفى من هذه، الترجمة لابي الحسن ونسبه على وفرة المصادر التي عرفت به أو اعتمدت عليه.. وأكثر الذين ترجموا له يذكرون أنه أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني(٢) وقد يكتفي بعضهم بقوله–عند الحديث عنه–قال صاحب الذخيرة أو «من الذخيرة»(٣) ولا تسعفنا المصادر أندلسية ومشرقية بأكثر من هذا وكذلك فيما يتعلق بنسبه واصله سوى اشارات قليلة الى أنه تغلبي، كما ذكر صاحب المغرب آنفا أو أنه عربي(٤) دون اشارة اخرى توضح هذا الاصل.

ويحدثنا ابن بسام عن نفسه بأنه كان كريم النسب فيقول: انه عاش في شنترين قبل سقوطها «مكفول الرزق مكفي الحاجة قد اغناه كرام الانتساب عن سوء الاكتساب»(٥) أما الشنتريني فنسبة الى شنترين(٦).

---

(١) المغرب في حلى المغرب جـ١ ص ٤١٧. والا حاطة في اخبار غرناطة المجلد الاول ص ٤٦٢.

(٢) نفح الطيب جـ٣ ص ٢٥٦. وانظر بدائع البدائه ص ٨٠ والمعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٣٨ ومعجم الادباء لياقوت جـ٢ ص ٣٩.

(٣) المغرب جـ١ و ص٢٤١ وص ٢٤١ و ص ٤١٧ وغيرها. والحلة السيراء جـ٢ ص ٣٩.

(٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية ص ١٣٥.

(٥) انظر الذخيرة، المجلد الاول/ مقدمة ابن بسام ص ٨.

(٦) مدينة اندلسية(من أعمال باجه في غرب الاندلس ثم غربي قرطبة على نهر تاجة من انصبابه في البحر المحيط.. ..). انظر معجم البدان لياقوت، المجلد الثالث ص ٣٦٧. والاعلام للزركلي جـ ٥ ص ٧٢ والاثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال– عنان ص ٤٢٥، والموسوعة العربية الميسرة ص ١٢٣٠.

ابن بسام والبسامي :

تورد المصادر اكثر من شخصية باسم ابن بسام ويخلط بعضها بين ابن بسام صاحب الذخيرة وغيره.(١)أما المراجع الحديثة فانها تفرق بين ابن بسام صاحب الذخيرة ومن سمي بهذا الاسم غير ابن بسام من الرجال الاخرين، يقول صاحب القاموس الاسلامي...

ابن بسام كنية اثنين من الادباء:

١. أبو الحسن علي بن محمد أديب بغدادي ولد عام(٢٣٠هـ=٨٤٤م)تنسب اليه عدة مؤلفات أدبية منها:(مناقضات الشعراء وأخبار عمر بن أبي ربيعة والاحوص واسحق النديم،توفي سنة٣٠٢(٢)

٢. أبو الحسن علي بن بسام أديب أندلسي يعرف بالشنتريني نسبة الى شنترين أشتهر بمؤلفه«الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة»في تراجم أعيان عصره في الادب والسياسة توفي عام٥٤٢هـ=١١٤٧م(٣).

ويضيف البستاني الى هذين الاديبين شخصاً آخر بكنية ابن بسام فيقول«محمد بن أحمد بن بسام،لانعرف عنه الا انه كان محتسباً بارعاً في مهنته وكان في مصر على الارجح في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلادي يستخلص ذلك من كتابه: «نهاية الرتبة في أعمال الحسبة...»(٤).

حياته وعصره:

تجمع المصادر على ان أبا الحسن ولد في شنترين وأنه قضى الشطر الاول

---

(١) كما فعل حاجي خليفة حين خلط بين ابن بسام والبسامي بقوله «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة يعني جزيرة اندلس لابي الحسن المعروف بابن بسام البسامي الشاعر المتوفى سنة ٣٠٢هـ . انظر كشف الظنون ص ٨٢٥. وانظر كذلك هامش ص ١٨٨ من كتاب اعتاب الكتاب لابن الابار القضاعي .

(٢) يذكر ابن الاثير اسم علي بن محمد بن نصر بن بسام في سياق ذكره لوفيات سنة ٣٠٢هـ انظر الكامل في التاريخ حـ٨ ص ٩١. وقد ذكره ابن بسام نفسه في الذخيرة وكناه بالبغدادي في سياق كلامه عن أبي المغيرة بن حزم. انظر الذخيرة ق١ م١ ص ١١٩.

(٣) القاموس الاسلامي، أحمد عطية الله، المجلد الاول ص ٣١١.

(٤) دائرة معارف البستاني جـ ٢ ص ٣٦٣

من حياته فيها ولكن هذه المصادر لا تورد أي شيء عن تأريخ مولده أو أطوار حياته الاولى في طلبه العلم أو تردده على مجالس الادب والثقافة، أوشيوخه ومؤدبيه...

ولعل مما يلفت النظر في المراجع الحديثة بشأن أبن بسام وجود خبرين مختلفين: الاول يجعل ولادة أبن بسام سنة ٤٧٧هـ(١) دون ذكر مصدر هذا الخبر، وأما الثاني فأنه يجعل التأريخ نفسه (سنة ٤٧٧) موعد رحيل أبن بسام الى أشبونه.(٢). بعد خروجه من شنترين.

ونجد الاستاذ محمد عبد الله عنان يقدر تأريخا تقريبيا لمغادرة ابن بسام شنترين وهو سنة ٤٨٠هـ وهو أقرب لواقع الحوادث التأريخية من غيره: واذا صح هذا التقدير استطعنا أن نستبعد الاعتبار القائل بولادة أبن بسام سنة ٤٧٧ للفرق البعيد بينه وبين تقدير الاستاذ عنان وهو المؤرخ المعروف بدراساته وجهوده الايجابية النافعة في التأريخ الاندلسي على مختلف الفترات ويمكن بعد كل هذا القول بخروج أبن بسام من بلده في حوالي سنة ٤٨٠هـ متوجها الى أشبونة(٣).

ومهما يكن من أمر الاختلاف في مولده أو السكوت عنه فأن هذه الحلقة المفقودة من حياة ابن بسام لاتقتصر عليه بل نجدها غالباً ما تشمل الكثيرين من الادباء والمثقفين وبخاصة في الاندلس وانها كما يقول بعض الباحثين «لعبرة أن تضيع أخبار الناس ولا يعرف التأريخ من وعي صدره التأريخ»(٤).

فليس من الغريب اذن أن نعجز عن ايجاز أيام حياته الاولى «فلا علينا اذا تخطينا هذا بعد أن سكت عنه المؤرخون القدامى والمحدثون». (٥).

---

(١) معجم المؤلفين جـ ٧ ص ٢٦٣.

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي، بالنثيا، ص ٢٨٨.

(٣) انظر دول الطوائف حتى الفتح المرابطي ص ٤٣٩.

(٤) مجلة الثقافة، ٦٦٠ السنة الثالثة عشرة ص ٨/ مقال للاستاذ علي أدهم «ابن بسام وكتاب الذخيرة».

(٥) مجلة الرسالة، العدد ١٣٨ السنة الرابعة. / مقال مسلسل عن ابن بسام صاحب الذخيرة عبد الرحمن البرقوقي.

ويبدوا أن الامور لا تلبث أن تضطرب في شنترين وغيرها حيث«كانموقف المسلمين في الاندلس قد أخذ يتحرج منذ اواخر القرن الرابع الهجري وخلال القرن الخامس وكانت المدنالواقعة في الاطراف المتنائية مثل شنترين تجد صعوبة في المحافظة على كيانها ورد الغارات عنها،ولما انهارت الخلافة الاموية بالاندلس وظهر ملوك الطوائف كانت شنترين من البلاد التي دخلت في حوزة بني الافطس وقد أتصل ملكهم حتى قتل المرابطون المتوكل آخر ملوكهم في غرة سنة ٤٨٥هـ،والظاهر أنمدينة شنترين وقعت بعد ذلك في قبضة الاسبانيين حتى استردها منهم الامير سيرين بن أبي بكر بن تاشفين...»(١)

ويشير ابن بسام نفسه الىبعض مظاهر هذه الحالة بصورة موجزة وما اعتراه فيها من قلق واضطراب بعد أمنواستقرار وكانت نتيجة ذلك فقدانه الكثير مما يملك،يقول في ذلك: « أستنفد الطريف والتلاد وأتى على الظاهر والباطن النفاد بتواتر طوائف الروم علينا فيعقر ذلك الاقليم..».(٢)ثم يسكت ابن بسام بعد هذا دون الاشارة الى أي شيء يتعلق بجوانب حياته قبل المحنة والى طبيعة الحكم الذي كان في بلده وعلاقته بالحكام وغير ذلك من الامور...

على ان الذي يفهم من الاشارات السابقة أن ابن بسام عاش«أواخر عهد الطوائف وأوائل عهد المرابطين وعاش وقتا في اشبيلية ثمغادرها الىقرطبة حيث كتب مؤلفه..»(٣)

ومن المعروف لدى المؤرخين ان الدولة الاموية في الاندلس انقسمت على نفسها بعد فترة الفتنة الى دويلات صغيرة سميت بدول الطوائف وقد تكلم المؤرخون في المشرق والاندلس عنهذه الدول ومن الاندلسيين لسان الدين بن الخطيب الذي يقول: «وذهب اهل الاندلس من الانشقاق والانشعاب

(١) مجلة الثقافة العدد ٦٦٠، السنة الثالثة عشرة مقال ٩ للاستاذ علي ادهم.
(٢) انظر مقدمة الذخيرة، القسم الاول/ المجلد الاول ، ص ٨.
(٣) دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ص ٤٣٩.

والافتراق الى حيث لم يذهب كثير من اهل الاقطار مع امتيازها بالمحل القريب» (١)

فالبلاد الاندلسية اذن كانت تعيش حالة من التفكك والضعف والانحدار فيهما درجة كبيرة لم تكن الا نذرا للزوال وأفول نجم تلك الحضارة وذهاب سلطان أهلها بعدقرون طويلة غنية بمظاهر التقدم ومقومات الحياة الايجابية السعيدة...

لكن الشيء الذي ينبغي ان لايغفل هو ان الا دب كان في ازدهار وتقدم في فترة الطوائف، وذلك يرجع الى سببين -كما يرى بعض الباحثين- هما :

١. ان البذرة الاولى التي وضعها الامويون نضجت فيما بعد في عهد الطوائف.
٢. ان انقسام الدولة في عهد ملوك الطوائف جعل الامراء يتنافسون على تزيين اماراتهم بالعلم والادب كالذي حدث في المشرق عند انقسام الدولة العباسية بين طولونية وحمدانية وغيرها .... فهذان العاملان أكبرما رأينا في تنشيط الحركة العلمية في الاندلس..»(٢)

ومن هنا فقد كان من الطبيعي أن يظهر أدباءأفذاذ وعلماء متخصصون في هذه الفترة على الرغم من تعدد الحكام واختلاف الدول كما ان من الطبيعي أيضاً ان يكون أبن بسام أحد ثمرات هذه الفترة وفرعاً حياً نامياً من فروع الشجرة العلمية الباسقة التي امتدت جذورها في اغوار العصور الاموية السابقة وارتفعت اغصانها وفروعهاعالياً حيث دول الطوائف فكانت ثمراتها نافعة واثارها بالغة بقيت على مر العصور تشهد لاهلها ومنشئيها بالفضل والتقدم وخدمة العلم والعيش من اجل الثقافة والحفاظ عليها في بحر من الحوادث المتلاطمة والسياسات المختلفة المتناحرة.

أما العصر الثاني الذي عاش فيه أبن بسام وكتب كتابه الفذ في ظله -على مايبدو- فهو عصر المرابطين الذين وفدوا من المغرب بدعوة من المعتمد بن عباد بعد أن ساءت الاحوال وأخذ زحف الاسبان يستمر بقوة واندفاع مهددا

(١) اعمال الاعلام ص ١٤٤.
(٢) ظهر الاسلام ج٣ ص ٤٢-٤٣ وما بعدها.

هذه الدويلات الضعيفة التي وصل الامر بعدد من ملوكها أن يستعينوا بالاسبان على اخوانهم المسلمين...

دخل المرابطون الاندلس وهم يجهلون طبيعة البلاد وأهلها ولغتها، وتحكى أقاصيص عن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بعد دخوله الاندلس تدل على ضعف لغته العربية وقلة استيعابه لمعاني عباراتها وألفاظها...«وبدا وكأن الشعر الاندلسي يلفظ آخر أنفاسه كأن كيانه ناء بثقل النازلة وانطوى على نفسه الى حين، وانصرف نفر من أهل العناية والضبط الى تخليد كنوز هذا الادب الاندلسي وصيانة محصوله الزاخر من الضياع ومن هنا كان هذا العصر عصر تصنيف مجموعات المختارات العظيمة: كالذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابي الحسن علي بن بسام الشنتريني...».(1)

على أن تأليف أبي الحسن بن بسام للذخيرة في مثل هذه الظروف يعد من أقوى الادلة على قدرته الفائقة وهمته العالية وحرصه على العلم واكباره لاهله بقدر ماهو دليل قوى على الثقافة الواسعة التي كان يتمتع بها والاحاطة الشاملة لصنوف المعرفة التأريخية والادبية وغيرها، وكان لهذا يعد من الافذاذ القلائل الذين لم تقعدهم الاحداث الخطيرة في المجتمع عن المضي في طريق العلم وحفظه وتدوينه مع قلة وسائل التدوين وشدة الرياح العاتية والعواصف الهوجاء على الصعيد السياسي مما كانت البلاد تتعرض له....

ونحاول في الكلمات التالية القاء المزيد من الاضواء على ثقافة أبن بسام ومكانته العلمية والادبية:

ثقافة أبن بسام ومكانته:

من الاشارات المتناثرة في المصادر القديمة والحديثة يبدو لنا أن أبن بسام كان واسع الثقافة ملماً بالكثير مما يحتاجه المؤرخ والاديب يتضح هذا من التأمل في عصر الطوائف الذي كان زاخرا بالنشاط العلمي والادبي حتى وجدنا

---

(1) الشعر الاندلسي تأليف غارسيا غومس / ترجمة د. حسين مؤنس ص ٥٦ .

أن كثيراً من المصادر الاندلسية تشيد بمكانة أبن بسام وتعتمد على ذخيرته، من ذلك مانقله بعض مؤرخي الاندلس في تعريفه بأبن بسام فقال: «العجب أنه لم يكن في حساب الآداب الاندلسية أنه سيبعث من شنترين قاصية الغرب، ومحل الطعن والضرب من ينظمها قلائد في جيد الدهر ويطلعها للانجم الزهر ولم ينشأ بحضرة قرطبة ولا بحضرة اشبيلية ولا غيرها من الحواضر العظام من يمتعض امتعاضه لاعلام عصره ويجهد في جمع حسنات نظمه ونثره....».(١)

اما المقري فيرى أن: «شهرته تغني عن ذكره ونظمه دون نثره...»(٢)

واذا جئنا الى المحدثين وجدناهم يعدون أبن بسام «من أدباء الاندلس المشهورين»(٣). أو انه «أديب شاعر مؤرخ»(٤) أو أنه «من الكتاب الذين أودعوا نثرهم المسجوع ودقائقهم اللغوية أمتع المواد التأريخية والادبية».(٥)

ويتساءل ليفي بروفنسال في معرض ثنائه على ابن بسام وذكر جوانب ثقافته ونواحي فضله قائلا «من أين للمغرب أن يستطيع المفاخرة ... بمؤرخ كأبن بسام» (٦) ...

ولا يخفى مالهذه الاقوال من دلالة على مكانة أبن بسام وقيمة ثقافته وأثرها في معاصريه أو فيمن جاءوا بعده في فترات مهمة خطيرة من حياة المسلمين الثقافية والعلمية وبذلك كان ابن بسام ثمرة من ثمرات عصره الذي يستحق أن يسمى بالعصر الذهبي في مجال الثقافة والادب وغيرهما. وكان فيه «أفذاذ من الكتاب والشعراء الخالدين مثل أبن حزم وابن شهيد وابن دراج وابن زيدون... وابن بسام وابن خفاجة وغيرهم من أعلام الكتاب والشعراء والى هذا يشير

(١) المغرب لا بن سعيد وآخرين جـ١ ص ٤١٧ ت ٢٩٣ .
(٢) نفح الطيب جـ٥، ص ٩.
(٣) دائرة معارف البستاني، م ٢ ص ٣٦٣.
(٤) معجم المؤلفين، جـ٧ ص ٤٣.
(٥) الوحدة والتنوع في الحضارة لا سلامية ص ١٣٥.
(٦) حضارة العرب في اسبانيا ص ٣٣.

ليفي بروفنسال بقوله كان القرن الحادي عشر الميلادي الخامس الهجري عصر ملوك الطوائف عهدا عرفت فيه اسبانيا اكبر اشراق شعري من غير شك»(١).

شعر ابن بسام:

تشير المصادر اشارات قليلة الى أبيات من شعر أبن بسام في مجموعات متفرقة لا تتناسب ومكانته العلمية والثقافية ولعل أكبر مجموعة من هذه الابيات تلك التي يذكرها ابن بسام نفسه وقد نظمها مخاطبا شخصا اسمه أبو بكر: (٢)

أبا بكر المجتبى للأدب ... رفيع العماد قريع الحسب
ايلحن فيك الزمان الخؤون ... ويعرب عنك لسان العرب
وتعدل في الفهم بالحاضرين ... لديهم وما النبع مثل الغرب
أراك بعين أراهم بها ... اذاً فأرى الدر كالمخشلب
لقد كان حبل الهوى ادهما ... بقرطبة عجم لا عرب
الى أن تبسم عنك الزمان ... فأسفر عن واضح ذي شنب
فجئت كما شئت ذا مقول ... يفلل حداه بيض القضب
فوا حزني لنار كبت ... وروض ذوى وزلال نضب
ولا كان حبك هذا الانام ... ولا لك في افقهم من أدب
فطبعك ينفث عن لؤلؤ ... تنظمه في نحور الكتب
فأين العميد وعبد الحميد ... وما جددا من خطير الخطب(١)
وأين البديع وشمس المعالي ... بديعك مد عليهم طنب
ولما سمعت هلالا يعيد ... قوافي لؤلئك المنتخب
شغفت بها لو وفت ذمتي ... فواجبها اذ عليها وجب

---

(١) ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه، علي عبدالعظيم ص ٨٥، ص ٨٦.

(٢) انظر الذخيرة القسم الثاني المخطوط ص٣٣٢/٣٣٣ الفصل الذي عقده ابن بسام للتعريف بشخصية أدبية سماها (أبا بكر) فقال: «فصل في ذكر الوزير الكاتب أبي بكر بن ذي الوزارتين المشرف أبي مروان بن عبد العزيز..».
والابيات ترد ضمن رقعة يقول ابن بسام انه ارسلها اليه يطلب وده والوقوف على ما عنده..

وخامرني حب سمعي لها كأني خلوت بنت العنب
فقلت جرير يجيد القريض وإلا زياد يحوك الخطب
وقرطبة بدلت بالعراق أم الارض تحملنا من كثب

ويورد المقرى ثلاثة أبيات من هذه القصيدة (البيتان الاول والثاني والبيت الاخير) بعد أن يعرف بأبن بسام ويذكر مقدما أن (نظمه دون نثره)(١)

ونجد صاحب المغرب أكثر تساهلا في تقويم شعر أبن بسام حين يورد هذه الأبيات منسوبة اليه ويصفها بأنها من اعلى شعره :

ألا بادر فلا ثان سوى ما عهدت الكأس والبدر التمام
ولا تكسل برؤيتها ضبابا تغص به الحديقة والمدام
فأن الروض ملتثم الى أن توافيه فينحط اللثام

ثم يعلق على هذه الابيات بقوله:(وهذا من الطبقة العالية ونثره في كتاب الذخيرة يدل على علو طبقته وأما ماأنشده فيها لنفسه من الشعر فنازل) (٢) ولعل من الملاحظ أن صاحب المغرب قد اضطرب في حكمه على شعر أبن بسام حين وصف الابيات السابقة بأنها أعلى شعره ودليل علو طبقته ثم عاد وحكم على كل ماأورده أبن بسام من شعره في الذخيرة بأنه نازل....ونجد مديحا واطراءً لشاعرية أبن بسام في شيء من التفصيل المنظوم في قول أبي بكر بن عبادة القزاز الموشح يمدح أبن بسام ويثني على شاعريته في الاغراض المختلفة فيقول:

يا منيفا على السماكين سام حزت خصل السباق عن بسام
ان تحك مدحة فأنت زهير أو تشبب فعروة بن حزام
أو تباكر صيد المها فأبن حجر أو تبكي الديار فأبن جذام
أو تذم الزمان وهو حقيق فأبو الطيب البعيد المرامي(٣)

---

(١) انظر نفح الطيب ج٥، ص ٩.
(٢) المغرب لابن سعيد وآخرين ج١ ص ٤١٧.
(٣) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٨ .

ولايخفى ان الابيات تنم عن مبالغة في شاعرية ابن بسام وقيمتها كما بالغ صاحب المغرب في وصفه ابيات ابن بسام بالطبقة العالية...واذا كانت هذه الاشارات تبرز لنا أمرا مؤكدا هو تقاصر شعر ابن بسام عن درجة نثره فأن ذلك ليس عيباً يقدح في ثقافته او يقلل من أهميته فهو كاتب استغرقت كتابته جل اهتمامه فكان من المألوف ان نجد نظمه دون نثره،ويتضح هذا حين نعلم ان ابن بسام نفسه يقر بالفرق الكبير بين شعره ونثره ويعلل ذلك حين يبسط رأيه في الشعر فيقول: «...ومع ان الشعر لم أرضه مركباً ولا اتخذته مكسباً ولا ألفته مثوى ولا متقلباً، انما زرته لماماً ولمحته تهمما لا اهتماماً رغبة بعز نفسي عن ذله وترفيعاً لموطيء أخمصي عن محله فأذا شعشعت راحة لم أذقه الا شميماً ولا كنت الا على الحديث قديماً ومالي وله، وانما اكثره خدعة محتال وخلعة مختال جده تمويه وتخييل وهزله تدليه وتضليل و...»(١).

وبذلك يضع ابن بسام المسألة في موضعها الصحيح ويدفع عنه لوم اللائمين وكأنه يبرىء نفسه من شبهة تقصير قد تقوم في اذهان بعض من ينظرون في شعره...

ومهما يكن من امر فأن اصحاب الملكات المزدوجة غالباً مايظهرون في جانب على حساب آخر ولذلك «فنحن لا نتوقع أن لابن بسام شعراً من النسق الاعلى وهكذا شأن الكتاب . . . وكذلك نرى أكثر الشعراء الفحول لا يجيدون المنثور...»(٢).

كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة

ونصل هنا الى دراسة الجانب المهم من ثقافة ابن بسام،وهو الكتابة والنثر اذ اشتهر أبو الحسن بكتاب«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»وهذا الكتاب سفر ثمين ومعجم غني بالاخبار والتراجم الادبية والتاريخية.

---

(١) الذخيرة / القسم الاول – المجلد الاول،مقدمة المؤلف ص ٧ .

(٢) مجلة الرسالة ،العدد (١٣٨) السنة الرابعة ١٩٣٦ مقال للاستاذ البرقوقي بعنوان ابن بسام صاحب الذخيرة والشاعر أبو مروان الطبني .

ولا نعرف على وجه التحقيق متى بدأ ابن بسام بتأليفه ومتى انتهى منه وإن كنا نجد اشارات يمكن ان تعيننا على تحديد تواريخ تقريبية للبدء بالكتاب والانتهاء منه. ونجد ابن بسام في الذخيرة يشير الى بعض الظروف التي ادت الى خروجه من مدينته واضطراب الامور فيها قبل سقوطها بيد الروم فيقول: «...وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب لم يصدر الا عن صدر مكلوم الاحناء وفكر خامد الذكاء بين دهر متلون تلون الحرباء لانتباذى كان من شنترين قاصية الغرب مفلول الغرب مروع السرب بعد أن استنفد الطريف والتلاد وأتى على الظاهر والباطن النفاد بتواتر طوائف الروم علينا .... ولما سمعت صوت المهيب وتنسمت ريح الفرج القريب ووجدت لسبيل التأميل مدرجا وجعل الله لي من ربقة الخمول مخرجا طالعت حضرته المقدسة بهذا الكتاب على حكمه مطرزا بسمته وأسمه...»(1).

ولعل مما يفهم من هذا النص ان ابن بسام قد ترك مدينته شنترين قبيل سقوطها الذي كان سنة ٤٨٦(٢) ويكون ترجيح الاستاذ عنان بخروج ابن بسام منها حوالي سنة ٤٨٠ مقبولا ومعقولا وبهذا نستطيع القول بأن ابن بسام كان قد بدأ بكتابته للذخيرة حوالي سنة ٤٨٠ في اشبونة التي قصدها بعد خروجه من شنترين. يؤيد ذلك ماأورده ابن بسام نفسه في معرض تعريفه بأبي بكر بن ذى الوزارتين... في القسم الثاني من الذخيرة وقبل ان يورد له نماذج من نثره. قال: «كنت بحضرة قرطبة أول سفري اليها سنة أربع وتسعين فدخل عندي هلال بن الاديب وقرع سمعي من شعر أبي بكر هذا بكل حسن غريب...»(٣) ومعنى ذلك ان أبن بسام قد قضى اكثر من عشر سنين في اشبونة أو غيرها قبل ان يصل الى قرطبة وأنه قد كتب القسم الأول وجزء من الثاني في خلال هذه الفترة .. ومن هنا تبدو لنا صحة القول ببدء ابن بسام في كتابة الذخيرة في أوائل سنة ٤٨٠هـ.

---

(١) الذخيرة / القسم الاول ، المجلد الاول ، مقدمة المؤلف ص ٨-١٠ .
(٢) انظر دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ص ٤٣٩ وهامشها .
(٣) الذخيرة القسم الثاني المخطوط ص ٣٣٣ .

أما تاريخ انتهاء ابن بسام من ذخيرته فأن بعض الدارسين يحدده بحوالي سنة ٥٠٣(١)وقد أورد أبن بسام نفسه مايفيد احتمال صحة هذا التاريخ حين قال في القسم الرابع بأنه أفرده«للوافدين على جزيرة الاندلس والطارئين عليها من أول المائة الخامسة من الهجرة الى وقتنا هذا الذي هو سنة أثنتين وخمسمائة»(٢). فأذا قدرنا ان القسم الرابع مع مراجعة الكتاب وتهيئته يستغرق سنة واحدة تقريباً استطعنا أن نرجح انتهاء أبن بسام من كتابه حوالي سنة٥٠٣هـ.

دوافع تأليف الكتاب

من المعروف لدى اكثر الباحثين في الادب الاندلسي أن أهل الاندلس شغفوا في وقت مبكر بتقليد أهل المشرق وترسم خطاهم في الكثير من خطوط سيرهم الثقافي والادبي،وذلك مايقر به الاندلسيون أنفسهم فهذا صاحب الذخيرة يقول: «...إلا ان أهل هذا الافق أبو الا متابعة أهل المشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة حتّى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلو ذلك كتابا محكما...»(٣)

ويبدو ان هذه الظاهرة شملت شتى جوانب حياة الاندلسيين حتّى وجدناهم يطلقون اسماء مشرقية على بعض الاماكن الاندلسية تيمنا بها كالرصافة وحمص وغيرها.

أما الشعراء فكانوا الى فترة طويلة من الزمن يحاكون المشارقة ويأنسون بهم ونجد الثعالبي يشير الى شيء من ذلك فيقول عن أبن دراج القسطلي الشاعر الاندلسي أنه (كان بصقع الاندلس كالمتنبي بصقع الشام).(٢)

---

(١) انظر دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ص ٤٣٩، وانظر ابن زيدون لعلي عبد العظيم ص ٥ ومواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ٢٥٠.

(٢) الذخيرة ،القسم الرابع ،المجلد الاول (مطبوع) ص ٢ .

(٣) الذخيرة / القسم الاول – المجلد الاول ، مقدمة المؤلف ص ٢ . وانظر كتاب (ابن رشيق) لعبد الرؤوف مخلوف ص ٢٩. مجلة العربي ص ٦٦ عدد «٩٢» سنة ١٩٦٦ .

(٤) يتيمة الدهر جـ٢ ص ١١٦ .

وأما ابن هاني فقد تأثر أيضا بأبي الطيب المتنبي «حتى كان الاندلسيون يقارنونه به».(١)ويتردد كثير من عبارات التقليد والمحاكاة للمشارقة في المصادر الاندلسية والمشرقية القديمة ونرى ذلك واضحا من ملاحظات دارسي الادب الاندلسي في مواضع عديدة من كتبهم.ولكن من المفيد التنويه بأن هذه الظاهرة ليست اندلسية فقط بل هي مشرقية أيضا،فقد كان المشارقة أدباء ومثقفين يحاكي بعضهم بعضا ويتأسى المتأخر منهم بالمتقدم...ففي مجال التأليف مثلا نجد أن «أبا عبد الله هرون بن يحيى بن أبي منصور المنجم البغدادي المتوفى سنة ٢٨٨هـ يؤلف كتابا اسمه: البارع في أخبار الشعراء المولدين:جمع فيه مائة وواحدا وستين شاعرا وافتتحه بذكر بشار بن برد وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح ثم جاء بعده أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ ووضع كتابه «يتيمة الدهر في شعر أهل العصر»وجعله ذيلا لكتاب البارع،ثم جاء أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٧هـ وألف كتابا اسمه «دمية القصر وعصرة أهل العصر» وجعله ذيلا لكتاب يتيمة الدهر،ثم جاء ابو المعالي سعد بن علي الوراق الحظيري المتوفى سنة ٥٦٨هـ وصنف كتابا أسماه زينة الدهر...(٢) وهكذا نجد تيار المعارضة والمحاكاة في التأليف واضحا بارزا في المشرق.مما يجعل الامر مألوفا ومتوقعا في الاندلس نظرا لشعور الاندلسيين بالحاجة الى أسوة وقدوة وهم في أبان حياتهم الثقافية والعلمية في تلك البلاد النائية وكان من مظاهر ذلك ماأورده ابن بسام في خلال حديثه عن دوافع تأليف الذخيرة والاصول المنهجية التي أعتمدها في هذا التأليف حيث قال: «اذ كان ابن فرج الجياني قد رأى رأيي في النصفة وذهب مذهبي من الانفة فأملى في محاسن أهل زمانه «كتاب الحدائق» معارضا كتاب الزهرة للاصبهاني فأضرب عما ألف»(٣).

---

(١) الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د. هيكل ص ٢٤٥ .

(٢) مجلة الرسالة عدد ١٣٩ سنة ١٩٣٦ ص ٣٩١ مقال الاستاذ البرقوقي.

(٣) الذخيرة : القسم الاول – المجلد الاول ص ٢ ، وانظر كذلك الادب المقارن ص ٢٠٧ وانظر المكتبة العربية د. عزة حسن . في التعريف بكتاب الزهرة ص ١١٤ وما بعدها .

ولعلنا لا نستغرب بعد كل هذا ان نجد أبن بسام يعارض مؤلفا مشرقيا في كتاب الذخيرة وقد اشار الى ذلك بصراحة ليس فيها أي شعور بالنقص أو التقصير، قال بعد أن أورد أسماء الذين ترجم لهم «وانما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبي منصور في تأليفه المشهور المترجم «بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر..»(١) ويرى بعض الباحثين ان أبن بسام سار على طريقة من سبقه من المؤتسين بالمشارقة وبخاصة أبن فرج الجياني في كتابه الحدائق فيقول: «...ثم جاء بعده صاحبنا أبو الحسن علي ابن بسام فوضع كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. وجعله ذيلا على حدائق أبن فرح. وفي عصره صنف الفتح ابن خاقان كتابي القلائد والمطمح وجاء بعدهما الاديب أبو عمر بن الامام وذيل على الذخيرة والقلائد بكتاب اسمه «الجمان وسقيط المرجان» ذكر فيه من أخل ابن بسام والفتح بتوفية حقه من الفضلاء واستدرك على من أدركه بعصره في بقية المائة السادسة....»(٢)

وبذلك يكون ابن بسام واحدا من كثيرين ساروا على نهج المشارقة في التأليف والتدوين لمآثر قومهم في الادب والتاريخ قبل ابن بسام وبعده.

على ان مما تجدر الاشارة اليه أن غرض ابن بسام من تأليف الكتاب ليس المعارضة والتقليد فقط بل ان الحرص على التفوق على المشارقة ومنافستهم واثبات فضل اهل الاندلس وتدوين آثارهم الادبية والثقافية...كل ذلك من أهداف ودوافع تأليف الكتاب، وقد أجمل ذلك الدكتور طه حسين في تقديمه الطبعة الاولى من المجلد الاول القسم الاول من الذخيرة حيث قال معرفاً بالكتاب: «هذا أصل من أصول الادب العربي الاندلسي ومرجع من اهم مراجعه، دفع صاحبه الى تأليفه امران: احدهما حبه لوطنه الاندلس وحرصه على أن يثبت

(١) الذخيرة : القسم الاول – المجلد الاول ص ٢٠ وانظر دليل المراجع العربية – عبد الجبار عبد الرحمن ص ٤٦٩ ومجلة العربي العدد «٩٢» سنة ١٩٦٦ ص ٦٦ .

(٢) الرسالة . العدد ١٤٠ السنة الرابعة ، سنة ١٩٣٦ ص ٣٩١ .

لها تفوقها في الادب والعلم ،وان يثبت هذا التفوق لمعاصريه خاصة، لكثرة مارأى من افتتان أهل أفقه بالشرق وادبائه وعلمائه واعراضهم عن الاندلس وماأنتجت من أدب وعلم،والثاني حرصه على تقليد الثعالبي في كتاب اليتيمة الذي صور فيه أدب معاصريه من الكتاب والشعراء...»(١).

واذ يتأكد لنا اقتداء أبن بسام بأبي منصور الثعالبي نرى من الواجب علينا أن نلتمس مواضع الاقتداء في موازنة موجزة لاهم مواضع الاتفاق أو الاختلاف بين هذين المؤلفين اللذين اتفقا في فكرة الكتابين مع اختلاف الزمان والمكان بينهما،واختلفا في المنهج والاسلوب.

وأول مايطالعنا من معالم كتاب الذخيرة،أبواب الكتاب. فقد جاءت على غرار كتاب اليتيمة اذ قسم الثعالبي يتيمته الى أربعة أقسام تبعا للاقاليم(٢) وكذلك فعل ابن بسام حين جعل ذخيرته أربعة أقسام تبعا للاقاليم الاندلسية وهذه الاقسام:

١. القسم الاول لاهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الاندلس ويشتمل من الاخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء على جماعة هم...ويورد أبن بسام تراجم لاربعة وثلاثين أديبا وسياسيا أولهم المستعين بالله أبو أيوب سليمان بن الحكم وآخرهم الاديب أبو طالب عبد الجبار المعروف بالمتنبي من أهل جزيرة شقر،ومن أبرز أدباء هذا القسم ابن دراج وابن شهيد وابن زيدون وغيرهم...

٢. القسم الثاني لاهل الجانب الغربي من الاندلس وذكر أهل حضرة اشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل المحيط الرومي وفيه من الاخبار واسماء

---

(١) الذخيرة ،القسم الاول / المجلد الاول – مقدمة المحققين صأ . وانظر كذلك مجلة المقتطف ج٢، المجلد ٩٧ ص ٢١٩ ،باب مكتبة المقتطف ،وكتاب دول الطوائف حتى الفتح المرابطي ص ٤٣٩/ ٤٤٠ والادب العربي في الاندلس،خفاجة وحسن جاد حسن ص ١٣ .

(٢) انظر يتيمة الدهر / الثعالبي ج١ ص ٧ مقدمة المحقق و ص ٢١ مقدمة المؤلف.
وانظر مجلة العربي ،العدد ٩٢ ،سنة ١٩٦٦ ص ٦٧،مقال للاستاذ محمد عبد الله عنان .

الرؤوساء واعيان الكتاب جملة موفورة....وجملة الذين ترجم لهم ابن بسام في هذا القسم ستة واربعون أديبا وسياسيا أولهم القاضي أبو القاسم بن عباد وآخرهم الاديب أبو محمد بن سارة الشنتريني،ومن أبرز هؤلاء المعتضد والمعتمد ابنا عباد وأبو الوليد الباجي وأبو بكر بن بقي وأبو بكر ابن عمار وغيرهم.

٣. القسم الثالث وقد جعله ابن بسام لاهل الجانب الشرقي من الاندلس ومن نجم من كواكب العصر في أفق الثغر الاعلى–كما يقول.
ويضم هذا القسم تراجم ثلاثة وثلاثين اديباً وسياسياً اولهم مجاهد ومبارك ومظفر من فتيان ابن أبي عامر وآخر فصل يشمل طوائف مقلين من سكان الجانب الشرقي ومن ابرزهم:الاديب ابن خفاجة وابن اللبانة واحمد الداني والكاتب أبو عبد الله بن أبي الخصال وغيرهم.

٤. القسم الرابع وقد أفرده لمن طرأ على جزيرة الاندلس ولمع نجمه في الشرق من الادباء والشعراء والمؤلفين.ويشمل هذا القسم تراجم لاثنين وثلاثين أديبا وسياسيا أولهم أبو العلاء صاعد اللغوي وآخرهم المجند بن الشخباء العسقلاني.

ومن أبرز الوافدين أبو الفتح الجرجاني وأبو عبد الله بن شرف وأبو الحسن المكفوف الحصري ومن تألق نجمه في المشرق والمغرب وأورد ذكره في سفره: الرضي الشريف وابو الحسن التهامي ومهيار الديلمي وابو منصور الثعالبي وابو علي بن رشيق وآخرين...»(١)وبذلك يربو عدد الذين ترجم لهم ابن بسام في ذخيرته على مائة وخمسين أديباً وسياسيا مع نماذج ونصوص من أشعارهم وكتاباتهم باستفاضة وتفصيل مفيد نافع.

ويلتقي ابن بسام مع الثعالبي في العناية بأخبار الملوك والامراء والرؤساء وتأثيرهم في الادب لكن ابن بسام يفوق الثعالبي «لانه لا يكتفي بالاخبار العامة والملاحظات العارضة وانما يقف وقفات طويلة ويفصل ويدقق ويتحرى

(١) الذخيرة المقدمة ص ١١–٢٠،القسم الاول / المجلد الاول .

ويتثبت ويأتي بالفوائد التأريخية»(١)واهتمام ابن بسام بالاحداث السياسية وأشخاص السياسة لا يقف عند حد التحري والتدقيق في الاخبار ، بل يحاول التوغل الى دلالات الحوادث والآثار المترتبة عليها وهو في هذه الناحية-كما يرى احد الباحثين «ابعد نظراً من الثعالبي وانفذ بصرة واعمق تفكيراً لما يكون من الصلة القوية بين طبيعة البيئة وبين النتاج الادبي»(٢).

أما غلبة السجع والتأنق اللفظي الذي ينزع اليه ابن بسام في ذخيرته وبخاصة «في التعريف بالشعراء والترجمة لهم وذكر اخبارهم ونقدهم»(٣)فذلك أمر واضح كل الوضوح ولا ينفرد به ابن بسام بل يتميز به الثعالبي أيضا لكن ابن بسام يمتاز عليه بالمبالغة في وصف الذين يترجم لهم ولعل مما يخفف من أمر هذه المبالغة ويجعلها أقرب الى ان تكون مألوفة مقبولة انها شائعة في المصادر والمؤلفات الاندلسية الاخرى حتى عدها بعض الباحثين «آفة من آفات عصره والعصور التي تلته ولكنها لا تخلو من صدق النظر...»(٤).

على ان السمة الغالبة على الذخيرة هي سمة الادب والادب يعتمد على التصوير والتخييل اللذين قد لا يخلوان من المبالغة والتهويل ،وبهذا يمكن تعليل مايلاحظ من المبالغة في الاخبار والتراجم الادبية ،أما الاخبار التاريخية فأن مما يلاحظ على أبن بسام أنه لم يسلك فيها سلوكه في الادب وتراجمه وذلك أمر طبيعي بالنسبة للتأريخ وموضوعاته .

ومما يتميز به ابن بسام اهتمامه بأهل المشرق من الادباء المشهورين فكان بذلك «أعرف بفضل أدباء المشارقة من أن يبخسهم حقهم وأسلم ذوقا وأصح

---

(١) مجلة الثقافة ،العدد «٦٦٠» السنة الثالثة عشرة سنة ١٩٥١ (ابن بسام والذخيرة) للاستاذ علي أدهم ص ١٠ .

(٢) مصادر التراث العربي ص ١٦٣ ،وانظر كذلك مقدمة المحققين لكتاب الذخيرة ص بو ج.

(٣) المصادر نفسه ص ١٦٣ ،وانظر :الفن ومذاهبه في النثر العربي د . شوقي ضيف ص٣٣٢.

(٤) مجلة الثقافة ،العدد (٦٦٠) السنة الثالثة عشرة ،سنة ١٩٥١ ص ١٠ علي أدهم .

تقديرا من أن ينحل أهل الاندلس ماليس لهم...» (١)ونجد ابن بسام لا يغفل فعل الثعالبي وسبقه في هذه الميزة بل يعترف بأنه سار في طريقه فيقول«وقد أثبت أيضا آخر هذا القسم (الرابع) طرفا من كلام أهل المشرق وان كانوا لم يطرأوا على هذا الافق،حذو أبي منصور الثعالبي فأنه ذكر في اليتيمة نفرا من أهل الاندلس فعارضته أو ناقضته،والادب ميدان يليق به المتاح ويستحسن فيه الجماح...».(٢) وبذلك يبتى ابن بسام في رأينا متميزا على الثعالبي في هذه الظاهرة سواء في عدد المشارقة الذين ترجم لهم أو مقدار النصوص والنماذج والملاحظات التي أوردها تعليقا عليها.

واذا جاز أن ينظر الى أي مؤلف من خلال عدد أجزائه وأسفاره فأن الذخيرة تزيد على اليتيمة بمثل حجمها تقريبا فاليتيمة أربعة أجزاء على حين نجد الذخيرة في سبعة أسفار ضخمة–أربعة أقسام–يعد كل جزء مئات الصفحات، ويكفي ان نعلم أن المجلدين الاول والثاني من القسم الاول يقرب عدد صفحاتهما من الالف ، لذلك وجدنا أن الكتاب كما يرى البعض (حافل بأخبار الادباء والشعراء والنصوص المختارة من آثارهم واشعارهم وهو يعد لذلك مصدرا غنيا واسعاً لدراسة الادب الاندلسي ورجاله في عصر المؤلف)(٣).

ويقول الاستاذ علي أدهم ان الثعالبي «كان مؤلفا بارعا له كتب كثيرة في مواضيع مختلفة جزيلة الفائدة تدل على تمكن وتنم على حياة أوقفت على البحث والتصنيف،وأما ابن بسام فأني لاأعرف له غير كتاب الذخيرة،والظاهر أنه استغرق جهده واستأثر بوقته.....».(٤)

لكن أبن بسام نفسه يحدثنا عن كتاب آخر له أثناء ترجمته لمحمد بن سارة الشنتريني فيقول:«..ولو استخرت ان أثبت في هذا الكتاب ماله في هذا الباب

---

(١) مجلة الثقافية – العدد ٦٦٠ / السنة ١٣.
(٢) الذخيرة ،القسم الرابع / المجلد الاول – مطبوع ص ٢ .
(٣) المكتبة العربية ، د. عزة حسن ،ص ٣١٤ .
(٤) الثقافة العدد (٦٦٠) السنة الثالثة عشرة ،ص ٩ .

لتحققت أنه بالجملة نابغة محاجاة وصاعقة مهاجاة وقد كتبت من ذلك في كتابي المترجم–بذخيرة الذخيرة–جملة موفورة له ولطوائف كثيرة...» (١)؛ والكتاب المشار اليه لم يصلنا ولعله اختصار للذخيرة أو استدراك عليها.

ويذكر لنا صاحب تاريخ الفكر الأندلسي أن ابن بسام: «قد صنف كتباً كثيرة لم يبق الدهر على بعضها مثل كتاب الاعتماد على ماصح من اشعار المعتمدة بن عباد ومجموعا من شعر عبد الجليل بن وهبون عنوانه «الاكليل» المشتمل على ذكر عبد الجليل ومجموعا من رسائل ابن طاهر صاحب مرسية هو (سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر وديوان شعر الوزير أبي بكر بن عمار صاحب المعتمد: تحية الاختيار من اشعار ذى الوزارتين أبي بكر بن عمار–ومجموعا من شعر الهجاء الذي قاله ابن بسام نفسه مما لم يذعه في الناس...).(٢) ولعلنا نستطيع القول بعد ذلك بتفضيل ابن بسام على الثعالبي على الرغم من اننا لا نجد من هذه الكتب شيئاً بين ايدينا الان، لكن ذكرها يمكن أن يتخذ دليلا على قدرة ابن بسام وتمكنه في الادب والتأليف، ولو لم يكن له سوى الذخيرة لكفته فضلا وظهورا على الاخرين.

وهناك أمر آخر يمكن ترجيح ابن بسام فيه على الثعالبي، وهو اظهار شخصيته الثقافية والادبية من خلال سرده للحوادث السياسية والاخبار والتراجم الادبية وذلك باعتماده الدقة والتحري واستقائه المعلومات التاريخية من أبي مروان بن حيان (٣) الذي يسميه بعضهم: «شيخ مؤرخي الاندلس وزعيمهم غير منازع.

---

(١) الذخيرة / القسم الثاني المخطوط ص ٥٢٣ . وانظر تاريخ الادب الاندلسي / الطوائف والمرابطين د. احسان عباس ص ١٤٠ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي ص ٢٨٩ . وانظر كذلك مجلة العربي «٩٢» سنة ١٩٦٦ مقال للاستاذ عبد الله عنان ص ٦٧ .

(٣) مؤرخ الاندلس الكبير (٣٧٧–٤٦٩) أبو مروان حيان بن خلف حسين بن حيان القرطبي صاحب كتاب المقتبس في أخبار بلد الاندلس ، وكتاب (المتين) الذى لم يصل . ينظر في ترجمته : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٣٣٣ . وفيات الاعيان جـ١ ص ٤٥٧ . بغية الملتمس ص ٢٦٠ . وينظر كذلك دول الطوائف حتى الفتح المرابطي وأندلسيات للدكتور عبد الرحمن الحجي ، المجموعة الاولى ص ١٠١ وما بعدها .

وهو المؤرخ الاندلسي الذائع الصيت..وهو مؤرخ معروف بالصدق والتحرى(١).

وأما في مجال الادب فأن ابن بسام يدلي برأيه في اكثر الاحيان ويناقش الاثار والنصوص الاندلسية بعد التأكد من صحتها واستقصاء نصوصها وكثيراً ماتكون له كما يقول بعضهم«استدراكات وتعليقات على بعض ابيات الشعر التي يذكرها والاخبار التي ينقلها تدل على ضلاعته وكفايته وسعة اطلاعه.....» (٢) ونقرأ في بعض المراجع موازنة عقدها دوزى بين ابن بسام وابن خاقان في الذخيرة وقلائد العقيان تبين منها مكانة الكتابين وجلالة قدرهما في الاوساط الادبية والتاريخية ونفهم منها ان ابن بسام يتفوق في بعض النواحي على الفتح بن خاقان وخاصة فيما يتعلق بقيمة المعلومات التي يوردها على صعيد الادب والتاريخ،مما لانجد نظيره في كتاب القلائد،ولكن صاحب هذه الموازنة يرى من جهة أخرى أن ابن خاقان يفضل ابن بسام في مجال البلاغة والذوق الادبي فيقول:«ان ابن خاقان لا تعوزه بأي حال الاخيلة البعيدة المطارح او الصياغة اللفظية،أو العبارة الجزلة الرنانة ذات الايقاع الجميل،أما ابن بسام فنحن نلحظ أنه يعاني عسراً وفقراً في هذه الناحية..»(٣)والذي أراه أن الكاتب المذكور لم يوفق في ملاحظته هذه توفيقه في الملاحظات السابقة التي تضمنتها موازنته، ذلك أن كتاب الذخيرة يفصح عن نفسه وينطق بمكانته الثقافية والادبية الرفيعة ويبرز فضل صاحبه وسعة أفقه وشمول ثقافته، والرجوع الى النصوص الواردة في الذخيرة أثناء الترجمة أو مناقشته للنصوص خير دليل على ذلك.

مصادر الذخيرة وموضوعاتها:

ولعل من تمام النظر في ذخيرة ابن بسام أن نتتبع مصادرها،وننظر في موضوعاتها،وان كان شيء من ذلك يبدو بوضوح من مطالعة فصول قليلة منها،

---

(١) مجلة الثقافة عدد (٦٦٠)السنة الثالثة عشرة ص ١٠،وانظر كذلك علم التاريخ عند المسلمين (روزنثال) ص ٦٢٧ .

(٢) مجلة الثقافة العدد (٦٦٠) السنة الثالثة عشرة ص ١٠ مقال الاستاذ علي أدهم .

(٣) تاريخ الفكر الاندلسي ، بالنثيا ، ص ٢٩٥ .

ولما كان ابن بسام – كما مر بنا – أديباً مؤرخاً – كان علينا أن ننظر في ذخيرته من هاتين النقطتين :–

فأما مصادر التاريخ عنده فأهمها وفي مقدمتها كتاب أبي مروان بن حيان وان لم يذكر ابن بسام اسمه وقد سبقت الاشارة الى الكتاب ومؤلفه في موضوع الموازنة بين كتابي الذخيرة واليتيمة وعرفنا أن أبا مروان بن حيان من مؤرخي الاندلس المشهورين في عهد الطوائف والفتنة وقد برع كما يذكر بعض الباحثين : «في الادب والرواية حتى غدا من أعلامها وخاصة محققيها ، وكانت نشأته الارستقراطية وعلائق اسرته بالاوساط العليا تتيح له حسن الاطلاع والوقوف على شؤون الدولة ودراسة مختلف التيارات السياسية ، وشهد ابن حيان في شبابه سقوط الدولة العامرية وما تلاه من ترنح الخلافة الاموية ثم سقوطها وقيام دول الطوائف في بداية القرن الخامس الهجري....»(١)

ويمكننا أن نقدر قيمة المعلومات التأريخية التي أوردها ابن بسام في ذخيرته بعد هذا ... وقد يزداد تقديرنا لقيمة هذه المعلومات اذا عرفنا أن ابن بسام لم يكن ناقلا للمعلومات والاخبار من غير روية أو تبصر ، بل بالعكس نجده يناقش ويحلل ولا يبخس ابن حيان حقه كما لا يتجاوز عن تقصيره فنراه كما يقول الاستاذ عنان : «يشيد بمجهوده التأريخي وينقل عنه شذورا ضافية ولكنه يحمل عليه لمواقفه المتناقضة أحيانا بين المديح والذم والتقدير والانتقاص...»(٢).

أما في الادب ونصوصه وما يتعلق به فيرى الاستاذ بالنثيا أن ابن بسام اعتمد على «تأريخ منظوم للاندلس لابي طالب عبد الجبار المتنبي على غرار أرجوزة يحيى الغزال ... وقد عاش أبو طالب في حدود سنة ٥١٩هـ وكان من أهل جزيرة شقر...»(٣) ونرى ان هذا الرأي يفتقر الى المزيد من الادلة والبراهين التأريخية

---

(١) دول الطوائف حتى الفتح المرابطي ، الاستاذ محمد عبد الله عنان ، ص ٤٣٨ .
(٢) دول الطوائف حتى الفتح المرابطي ص ٤٣٨/٤٣٩ .
(٣) تاريخ الفكر الاندلسي ص ٢٩٦ .

الموثوقة، ومن جهة أخرى فان ابن بسام قد أورد ترجمة لابي طالب هذا في ذخيرته(١) ولم يشر الى اعتماده عليه أو تأثره به وهو الذي لا يتحرج من الاعتراف بفضل غيره كما سبق أن عرفنا وفضلا عن ذلك فان المعلومات الادبية ـ كما أخبرنا ابن بسام نفسه في مقدمته ـ قد تجمعت لديه بالمعاصرة والسماع او المراسلة التي كان يقوم بها للمشهورين من الادباء يطلب منهم نماذج من اعمالهم الادبية في الشعر والنثر وقد سبقت الاشارة الى شيء من طريقة ابن بسام هذه في استقاء المعلومات في موضوع (شعر ابن بسام) من هذا البحث.(٢)

كما نجد في رأيه الصريح في المقدمة مايوضح ذلك ويؤكده حين يقول: «وتخللت ماضمنته من الرسائل والاشعار وبما اتصلت به أو قيلت فيه من الوقائع والاخبار... فاذا أعوزني كلامه ـ أي كلام أبي مروان ـ وعزني سرده ونظامه عكفت على طللي البائد وضربت في حديدي البارد على حفظ قد تشعب وحظ من الدنيا قد ذهب...»(٣) وبهذا نستطيع القول بمزيد من الاطمئنان والثقة أن ابن بسام اعتمد على أبي مروان بن حيان وعلى جهوده هو ومعلوماته في المعاصرة والسماع.

أما موضوعات الكتاب فلعل أمر الوقوف عليها قد بدا واضحا من مصادر الذخيرة في التأريخ والادب فهي اذن تأريخية أدبية غير أن صفة الادب أوضح فيها واظهر حتى رأى بعضهم أن الذخيرة: «كتاب تراجم للادباء الذين نبغوا في الاندلس في القرن الخامس للهجرة»(٤) ذلك أن تراجم ابن بسام التي أربت على مائة وخمسين

---

(١) انظر الذخيرة / القسم الاول ، المجلد الثاني ص ٤٠١، فصل في ذكر الاديب أبي طالب عبد الجبار . . .

(٢) انظر الذخيرة القسم الثاني/ المخطوط ص ٣٣٢/٣٣٣ في موضوع مراسلة أبي بكر الاديب بأبيات وجواب الاخير عليها. . . .

(٣) الذخيرة القسم الاول ، المجلد الاول / مقدمة المؤلف ص ٦/٧ .

(٤) الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية ، شكيب ارسلان ص ٧٠.

ترجمة أغلبها تراجم لكتاب وشعراء ولكن ابن بسام لا يغفل خلال الترجمة ذكر الامراء الذين عاصروا الادباء أو كانت لهم صلة بهم وربما عرج على بعض الحوادث التأريخية المستقاة من أبي مروان بن حيان: «ليوضح العلاقة بين الادب والاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة وتأثير تلك الاحوال في اتجاهات الادب ومشاعر الشعراء والكتاب وانتاجهم الفني..»(١)

اسلوب ابن بسام في الذخيرة:

لا يخفى على من يمعن النظر في كتاب الذخيرة أن يلاحظ بعض الخصائص الواضحة التي تميز بها أسلوب ابن بسام في سفره الضخم وفي مقدمة ذلك ظاهرة السجع التي لاتكاد تخلو منها فقره وعباراته مع سعة الكتاب وتعدد أجزائه وفصوله، لكن هذا السجع في عمومه يتميز بالسهولة والانسجام مما دعا بعضهم الى أن يصفه بأنه «من السجع الجميل»(٢) كما اعتبر آخرون ابن بسام أحد الذين «انتخبوا الاسلوب الحديث...وأودعوا نثرهم المسجوع ودقائقهم اللغوية أمتع المواد التأريخية والادبية»(٣).

ومن خصائص اسلوبه استعمال الصور البيانية بأشكال مختلفة وألوان متعددة وجدير بالذكر أن هذه الصفة تكاد تكون الطابع العام لكتاب عصر ابن بسام وليست قاصرة عليه فقط حتى يخيل لمن يقرأ أية رسالة من رسائلهم أنه «في روضة موشية بين نرجس غض وورد ندى واقحوان منور ودوحة باسقة وجدول مترقرق....»(٤).وقد كان ابن بسام كذلك في ذخيرته.

أما الخيال فلعله من عناصر أسلوب ابن بسام التي توج بها الخصائص الاخرى وجعلها نتيجة لها وثمرة لنموها واكتمالها ذلك أن استعمال الصور البيانية من

---

(١) مجلة الثقافة ، العدد (٦٦٠) السنة الثالثة عشرة ص ١٠ .
(٢) بلاغة العرب في الاندلس / أحمد ضيف ص ٣٢ .
(٣) الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية ص ١٣٥ .
(٤) قصة الادب في الاندلس ، محمد عبد المنعم خفاجة ج ١ ، ص ٢٨٨ .

بديع وجناس وطباق وغيرها بأقدار مناسبة في مواضع منسجمة ملائمة مع سجع مؤثر في النفس بايقاعه الخاص ونغمه المنتظم ومن يقرأ أسلوب إبن بسام يجد «الحقيقة ممزوجة بالخيال في سحر لفظ وجمال تشبيه...»(١).

وبالاضافة الى كل ذلك نستطيع ان نلاحظ الاستطراد في عرض الموضوعات وسرد الوقائع بالشعر والنثر والانتقال من أحدهما الى الآخر كلما شعر أن الاطالة قد بدأت تثقل على السامع أو القارىء. واذا تذكرنا أن عبارات ابن بسام وألفاظه لا تجنح الى الغموض والابهام بقدر تحريها الوضوح والابانة وخفة الوقع وجمال الجرس ادركنا أهم سمات الصورة الموجزة المتكاملة لاسلوب ابن بسام الذي يمثل –الى حد كبير– نهج عدد غير قليل من معاصريه كالفتح بن خاقان والذين جاؤوا بعده كابن الخطيب.

اراء ابن بسام في النقد والادب:

يحاول بعض الباحثين ابراز مكانة ابن بسام وأثره في النقد فيسلكه في «النابغين من نقاد الاندلس» (٢) ومن يتأمل الذخيرة و ما جاء فيها من تعليقات وملاحظات حول بعض النصوص يتبين ان هذا الاديب كان ذا ذوق أدبي رفيع وحس ثقافي مرهف وعقل يزن الامور والاحداث ويتأمل ما وراءها ويرتفع فوق النزعات الانانية فلا يمدح اهل الاندلس على حساب مذمة أهل المشرق ولا ينكر فضل كل منهما ودرجة سبقه في مضمار الادب والثقافة بل رائده الجودة والاحسان من أية جهة.

ونجده يشير في مقدمته الى بعض خصائص نقده كما ورد في الذخيرة فيقول: «وان ظفرت بمعنى حسن او وقفت على لفظ مستحسن ذكرت من سبق اليه واشرت الى من نقص عنه وازداد عليه ، ولست اقول اخذ هذا من هذا قولا مطلقاً فقد تتوارد الخواطر ويقع الحافر حيث الحافر اذ الشعر ميدان والشعراء فرسان .....»(٣)

(١) قصة الادب في الاندلس–محمد عبدالمنعم خفاجة ، جـ١ ص ٢٨٨ . –

(٢) الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية ص ٧٠

(٣) مقدمة الذخيرة ص ٨ .

فابن بسام اذن كاتب يعقل ما يكتب ويعرف ما يأخذ وما يدع وهو يفرق بين المعاني المشتركة العامة التي تعد ملكاً للجميع وبين المعاني الخاصة التي يعد آخذها ناقلا.... ولذلك وجدنا ان الذخيرة تزخر بهذه المناقشات والملاحظات حول المعاني الشعرية والافكار الادبية وأوجه الاستحسان والتجويد او التقصير فيها وليس من طبيعة هذا البحث استقصاء آراء ابن بسام في جميع ما ورد له من تعليقات فان ذلك قد يحتاج الى بحث خاص ولكن يمكن الاكتفاء بنموذج من نهج ابن بسام ليكون مثلا ينم عن اتجاه متميز يلاحظ بكل وضوح في الذخيرة فقد اورد أبياتاً لابي بكر ابن ابي مروان بن عبد العزيز ضمن ترجمته له وكان احد هذه الابيات قول ابي بكر:—

أقبل ترب الارض حتى كأنما تضم ثناياك العذاب الاباطح
فما سجد الرهبان في كل بيعة كما أسجدتني أرضها والصحاصح

يقول ابن بسام معلقاً على هذا البيت:—

« قول ابي بكر: «أقبل ترب الارض.. البيت...

مع الذي بعده من الوصف الغريب في توفية اكرام ربع الحبيب ؛ وأول من بكى بالربع ووقف واستوقف الملك الضليل حيث يقول :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.... ثم جاء ابو الطيب فنزل او ترجل ومشى في آثار الديار وقال:

نزلنا على الاكوار نمشي كرامة لمن بان عنه إن لم نلم به ركبا

ثم جاء المعري فلم يقنع بهذه التوفية من الكرامة حتى خنع وسجد وقال:

تحية كسرى في السناء وتبع لربعك لا أرضى تحية أربع

وأبو بكر انما الم بهذا المعنى ومحاسنه أكثر من أن تحصى ....» (1)

ومثل هذا كثير في ذخيرة أبي الحسن وقد أفاض دارسو الادب الاندلسي ومؤرخوه القول في نقده ونظروا في ملاحظاته النقدية وكانت لهم آراء عديدة فيها وخاصة الاستاذ احسان عباس الذي تكلم عن نقد ابن بسام وكان

(1) الذخيرة ، القسم الثاني ، المخطوط ص ٣٤١ .

مما قاله فيه : «واذا كان ابن بسام هو الناقد الذي يستأثر باهتمامنا في هذه الفترة فعلينا لكي نتفهم موقفه أننعود فنتمثل الدعوة النقدية التي دعا اليها ابن حزم ويمكننا ان نقول على وجه الا يجاز ان دعوته كانت ذات شقين:
الاول : موقف دفاعي عن تراث الاندلس الفكري عامة والادبي خاصة.
والثاني: نظرة اخلاقية في الحكم على فنون الشعر ويمثل ابن بسام هذين العنصرين ويزيد عليهما عناصر اخرى تطبيقية.... »(١).

وبعد ان يشرح الاستاذ عباس الفكرة التي تقوم عليها الذخيرة وهي افهام الأندلسيين ان لديهم موروثاً يستحق الاعتزاز ليزيل فكرة التقليد للمشارقة التي استحوذت عليهم ردحاً من الزمن. يعود الى نهج ابن بسام في النقد ويذكر أنه وقع عند التطبيق في خطأين:

«اولهما : انه بعد ان عاب التقليد في أهل بلده عاد في اثناء كتابه يعرض أشعارهم وأساليبهم ومعانيهم في نثرهم على أشعار المشارقة وكتاباتهم....

والثاني كامن في أساس نظرته النفسية الى الشعر فهو يجهد نفسه في الاختيار والتغليب على حين يرى ان الشعر ـ جده تمويه وتخييل وهزله تدليس وتضليل وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم....» (٢).

على ان هذه الملاحظات وامثالها مما اورده الدكتور احسان عباس لا نراها تنقص من قدر ابن بسام او تحط من قيمة نقده اذا اخذنا بنظر الاعتبار اهتمامه بالتأليف الادبي والتاريخي ومتابعته الالمام بصفحات سفره المفيد القيم فضلا عن ظروف البيئة الثقافية والاجتماعية والزمن وما ينطوي عليه كل ذلك من موازين خاصة تناسبه.

والى جانب ذلك كله فاننا نجد الاستاذ نفسه يعود فيقر لابن بسام بأنه من القلة الواعية التي ساهمت في ارساء قواعد النقد الشامل فيقول بعد ان يورد مزيداً من الملاحظات والاراء النقدية لابن بسام: «وفي كل خطوة نحس ان ابن بسام

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي / عصر الطوائف والمرابطين .
(٢) تا يخ الادب الاندلسي / عصر الطوائف والمرابطين د. احسان عباس ص ٩٩.

يأخذ بأسباب الانصاف محققاً بذلك قوله في المقدمة : وما قصدت به علم الله الطعن على فاضل ولا التعصب على مائل» (١).

وتلك صفة مهمة تكون الركن الاساسي في النقد وهي التجرد والانصاف.

ثم يختم حديثه عن نقد ابن بسام بقوله: «ولسنا نستطيع ان نحدد عند غير ابن بسام– على قصور في آرائه جملة – موقفاً نقدياً ذا شمول....» (٢) .

كلمة في قيمة الكتاب في الثقافة قديماً وحديثاً:

وليس من الغريب المستبعد بعد هذا ان نرى الذخيرة تتبوأ مكانة رفيعة في أوساط الادب والتاريخ عبر العصور الطويلة وعلى امتداد المؤلفات والمصادر الادبية والتاريخية في الاندلس والمشرق فالمغرب لا بن سعيد والحلة السيراء واعتاب الكتاب لابن الابار «٣» والمعجب وكثير غيرها من امهات المصادر الاندلسية حافلة بالنقل عن الذخيرة والاعتماد عليها . ويمكن ان يقال مثل ذلك في مؤلفات لسان الدين بن الخطيب حيث اعتمد في أكثرها على الذخيرة وبخاصة كتاب الاحاطة واعمال الاعلام «٤» وعلى هذا أكثر المصادر المشرقية والاندلسية حيث اعتمدت الذخيرة مصدراً مهماً لمعلوماتها واخبارها .

أما اصداء الذخيرة في المراجع الحديثة فانها تفوق نظيرتها في القديم : وهذه كتب تاريخ الادب للدكتور احسان عباس والدكتور أحمد هيكل ومحمد عبد المنعم خفاجة ومحمود مصطفى واحمد ضيف وغيرها قد احتلت الذخيرة مكان الصدارة في بحوثها ودراساتها شعراً ونثراً ، كما احتل ابن بسام مكان الرياسة والريادة في مؤرخي الادب الاندلسي (٥) المشهورين :

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي/عصر الطوئف والمرابطين ص ١٠٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٥ .

(٣) انظر المغرب في العديد من صفحاته . والحلة السيراء ج٢ ص ٣٩ وغيرها. واعتاب الكتاب في الصفحات ٢٠١/٢٢١/٢٢٢ وغيرها .

(٤) انظر مثلا الصفحات ٢٤١/٤٦٢ من الاحاطة والصفحات ١٠٥/١٩٠ وغيرهر من اعمال الاعلام .

(٥) انظر كتاب : حضارة العرب في اسبانيا / ليفي بروفنسال ص ٣٣ .

يضاف الى هذا كتب التراجم ودواوين الشعراء الاندلسيين : ككتاب ابن حزم للدكتور زكريا ابراهيم وابن رشيق لعبد الرؤوف مخلوف والمعتمد بن عباد لعلي أدهم وابن زيدون لعلي عبد العظيم ومحمد بن عمار الاندلسي واشبيلية في القرن الخامس الهجري والمعتمد بن عباد للاستاذ الدكتور صلاح خالص... وغيرها.

اما الاستاذ محمد عبد الله عنان المشهور بدراساته التاريخية والادبية في الاندلس فقد وصف الذخيرة بأنها «موسوعة تاريخية أدبية»(١)فضلا عن اعتماده الذخيرة مصدراً رئيساً في العديد من مؤلفاته. ويرى نيكلسن ان الذخيرة «من الكتب القيمة في تاريخ الادب الاندلسي» (٢) اما غارسيا غومث فيرى أن الذخيرة «من مجموعات المختارات العظيمة» (٣) التي تميز بها عهد المرابطين.

والى جانب هذا كله مراجع ومصادر عديدة في النقد والادب محققة منشورة او مؤلفة مطبوعة اعتمدت الذخيرة ونهلت منها وارتوت من رحيق مائها فترات طويلة من الزمن والتمت اليها الباحثون والمحققون،وبذلك تم اخراج القسم الاول من المجلد الاول الى النور محققاً تحت اشراف قسم اللغة العربية سنة ١٩٣٩ بكلية الاداب جامعة القاهرة «فؤاد سابقاً» «وانجزت مطبعة التأليف والترجمة والنشر طبع هذا الجزء على اوفى ما يكون اتقاناً..»(٤) اما المجلد الثاني من القسم الاول فيحقق سنة ١٩٤٢ ويتوقف التحقيق ليستأنف متجاوزاً القسمين الثاني والثالث الى المجلد الاول من القسم الرابع وكان هذا الجزء كالاجزاء المحققة الاخرى يفتقر كما يرى بعضهم الى «تحقيق الاعلام والفهارس التحليلية اللازمة في مثل هذا الكتاب المفيد» (٥) ولكن افتقار

---

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام هامش ص ٢٥٠ ،وانظر كذلك دليل المراجع العربية، عبد الكريم الامين وزاهدة ابراهيم ج١ ص ١٠٣ . ودليل المراجع العربية عبد الجبار عبد الرحمن ص٦٩٦.

(٢) انظر تاريخ الادب العباسي ص ٢٥٣ .

(٣)الشعر الاندلسي ص٥٦

(٤) مجلة المقتطف ،المجلد ٩٧ ج٢ (مكتبة المتقطف) ص ٢١٩ .

(٥) مجلة الاديب آذار ١٩٤٦ ج٣ ،السنة الخامسة من مقال للاستاذ عبد الله العلايلي .

التحقيق الى بعض الامور المهمة لا يقلل من اهميته والفوائد التي حققها بوضع أجزاء مهمة من الذخيرة بين أيدي الباحثين والدارسين وذلك في رأينا يبرز بشكل اوضح ضرورة اكمال تحقيق الكتاب لتعم فائدته ويتضح الكثير من سمات وخصائص الادب الاندلسي وتراجم ادبائه واعلام الثقافة والسياسة في فترة مهمة من فترات حياة المسلمين في الاندلس.

كلمة ختامية:

وبعد فان هذا البحث على الرغم مما بذل فيه من جهود ما زال – في رأيي– عند حدود وضع المعالم والسمات العامة البارزة لكتاب الذخيرة ومؤلفه ابن بسام ذلك ان قيمته الادبية والتاريخية تحتاج–كما ارى– الى بحث شامل او كتاب مستقل يتناول جميع الموضوعات التي وردت في هذا البحث بالدراسة المستفيضة وبخاصة فيما يتعلق بآراء ابن بسام في النقد والادب وخصائص اسلوبه واثر كتابه في التاريخ والادب والسياسة والموازنة بينه وبين اليتيمة. ولعل الله عز وجل يتيح فرصة أطول للعكوف على الذخيرة وتتبع اصدائها وآثارها وتوفية حقها وحق صاحبها في اعناق طلبة العلم ودارسي الادب والله الموفق.

١) المصادر

١. ابن الاثير– عز الدين، الكامل في التاريخ، ج٨، مطبعة دار صادر، ١٩٦٦.
٢. ابن الخطيب– لسان الدين، اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام– دار المكشوف، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال.
٣. ابن الخطيب – لسان الدين، الاحاطة في اخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان– دار المعارف بمصر.
٤. ابن خلكان– أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابي بكر ٦٠٨– ٦٨١هـ». وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، مكتبة النهضة، المصرية.

٥. ابن سعيد وآخرون ، المغرب في حلى المغرب ، طبعة ثانية منقحة.١٩٦٤.
٦. الثعالبي – أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري. المتوفى سنة ٤٢٩هـ، يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر.
٧. الحموي– ياقوت، معجم الادباء، جـ١٢، عيسى البابي الحلبي.
٨. الحموي– ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت.
٩. الحنبلي– عبد الحي ابن عماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عنيت بنشره مكتبة القدسي بجوار الازهر، سنة ١٣٥٠هـ.
١٠. خليفة– حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المجلد الاول. طبعة سنة ١٣٧٨هـ.
١١. الازدى– علي بن ظافر ، بدائع البدائه، تحقيق: (أبو الفضل ابراهيم) مكتبة الانجلو المصرية– ١٩٧٠م.
١٢. الشنتريني– ابن بسام علي بن بسام ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة. القسم الاول والثاني والقسم الاول من المجلد الرابع المطبوعين في مصر سنة ١٩٣٩– ١٩٤٢–١٩٤٤
١٣. الضبي– احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة ، المتوفي سنة ٥٩٩. بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس، طبع مدينة مجريط. سنة ١٨٨٢ .
١٤. القضاعي– ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ٢، الطبعة الاولى، ١٩٦٣.
١٥. القضاعي– ابن الأبار، أعتاب الكتاب، تحقيق صالح الاشتر، طبعة اولى، ١٩٦١.
١٦. المراكشي– عبد الواحد المتوفى سنة ٦٤٧، المعجب في تلخيص اخبار المغرب. تحقيق الاستاذ محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٦٣–١٣٨٣.
١٧. المقرى– احمد بن محمد المقرى التلمساني، نفح الطيب من غض الاندلس الرطيب.

٢ المراجع

١ .أحمد (عطية الله) القاموس/ الاسلامي، المجلد الاول، ١٩٦٣.
٢ .أرسلان(الامير شكيب) الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية
المجلد الثالث ،منشورات دار مكتبة الحياة.
٣.الامين(عبدالكريم وزاهدةابراهيم)/دليل المراجع العربية، مطبعةشفيق بغداد ١٩٧٠
٤.امين (احمد)، ظهر الاسلام، ج٣
٥.بالنثيا/ آنخل جثالث، تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة حسين مؤنس الطبعة الاولى
مكتبة النهضة العربية.
بغداد، ١٩٧٠.
٦ .بروفنسال (ليفي) حضارة العرب في اسبانيا، ترجمة ذوقان قرقوط.
منشورات مكتبة الحياة /بيروت.
٧ .البستاني /فؤاد أفرام، دائرة المعارف، قاموس عام لكل فن ومطلب.
بيروت ،لبنان ،١٩٦٥.
٨ .الحجي / عبد الرحمن، أندلسيات/المجموعة الأولى.
٩ .حسن د.عزت، المكتبة العربية.دراسة لامهات الكتب في الثقافة العربية.
الجزء الاول، دمشق، ١٣٩٠/١٩٧٠.
١٠.حسن/حسن/جاد ومحمد عبد المنعم خفاجة، الادب العربي في الاندلس.
الطبعة الاولى، المطبعة المحمدية بالازهر.
١١.خفاجة/محمدعبدالمنعم، قصةالادب في الاندلس، منشورات مكتبة المعارف/بيروت.
١٢.الدقاق(د. عمر)، مصادر التراث العربي، المكتبة العربية، حلب.
١٣.روزنثال (فرانز)، علم التأريخ عند المسلمين ،ترجمة د.صالح أحمد العلي.
مراجعة توفيق حسين.نشر مكتبة المثنى. بغداد، ١٩٦٣
١٤.الزركلي خير الدين، الاعلام ج٥، الطبعة الثانية.
١٥.ضيف/أحمد بلاغة العرب في الاندلس، الطبعة الاولى، ١٩٢٤.
١٦.ضيف/شوقي ،الفن ومذاهبه في النثر العربي، الطبعة الثالثة، مزيدة وموسعة.
دار المعارف بمصر.

١٧.عباس (د.احسان)، تأريخ الادب الاندلسي، ج٣، عصر الطوائف والمرابطين الطبعة الاولى، دار الثقافة ،١٩٦٢.

١٨ عبد الرحمن عبد الجبار، دليل المراجع العربية . دار الطباعة الحديثة . البصرة ١٩٧٠

١٩.عبد العظيم علي، ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه، مطبعةالرسالة، ١٩٥٥.

٢٠.عنان(محمد عبد الله)، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، الطبعة الثانية الخانجي، ١٩٦٩.

٢١.عنان(محمد عبد الله)، مواقف حاسمة في تأريخ الاسلام، طبعة رابعة الخانجي، ١٩٦٢.

٢٢.عنان(محمد عبد الله)، الآثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، نشر مؤسسة الخانجي طبع مطبعة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية، ١٩٦١.

٢٣.غربال (شفيق) الموسوعة العربية الميسرة، طبعة دار القلم مؤسسة فرانكلين.

٢٤.غومث (غارسيا)، الشعر الاندلسي بحث في تطوره، ترجمة حسين مؤنس الطبعة الثانية، ١٩٥٦، مكتبة النهضة المصرية.

٢٥.كحالة (عمر رضا)، معجم المؤلفين، مطبعةالترقي، دمشق، ١٩٥٩.

ترجمة د. صدقي حمدي، مراجعة: د. صالح أحمد العلي، نشر بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين، ١٩٦٦.

٢٧.مخلوف (عبد الرؤوف)، ابن رشيق سلسلة أعلام العرب.

٢٨.نيكلس البروفسور رينولد. ا. نيكلس، تأريخ الادب العباسي، ترجمة وتحقيق صفاء خلوصي الناشر المكتبة الاهلية، بغداد، ١٩٦٧.

٢٩.هيكل(د. أحمد عبد المقصود) الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة طبعة ثالثة، ١٩٦٧، دار المعارف.

٣٠.هلال (د.محمد غنيمي) ،الادب المقارن،الطبعة الرابعة.

٣»المجلات

١ــ الاديب،آذار،١٩٤٦،ج٣، السنة الخامسة.
عبد الله العلايلي.في باب مكتبة الاديب.

٢ــ الثقافة: عدد ٦٦٠،السنة الثالثة عشرة،١٩٥١ص٧.
أبن بسام وكتاب الذخيرة،للاستاذ علي أدهم.

٣ــ الرسالة: العدد ١٣٨سنة ١٩٣٦،السنة الرابعة.
سلسلة مقالات: أبن بسام صاحب الذخيرة والشاعر أبو مروان الطبني عبد الرحمن البرقوقي.

٤ــ المقتطف: الجزء الثاني من المجلد السابع والتسعين،يوليو،١٩٤٠.
مكتبة المقتطف الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

٥ــ العربي الكويتية،العدد ٩٢،١٩٦٦،مقال للاستاذ محمد عبد الله عنان.



كاصد ياسر الزبيدي



القسم الأول

يعد تفسير الجلالين للامامين جلال الدين السيوطي(١)المتوفى سنة٩١١هـ وجلال الدين المحلي(٢)المتوفى سنة٨٦٤هـ،من أشهر التفاسير وأجلها،وقد نال ثناء كثير من العلماء والمحققين في مختلف العصور،قال ابن العماد الحنبلي في

(١) هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي ولد في القاهرة سنة ٨٤٩هـ،وأخذ العلم عن كبار العلماء كالمحلي وغيره،ودرس كثيرا من متون النحو واللغة والفقه والحديث والمنطق وغيرها،كان غزير التأليف يميل الى الجمع،الا أنه معترف له بالعلمية،حتى عد أعلم أهل زمانه في الحديث. وحين بلغ الاربعين انقطع للعبادة وترك الافتاء والتدريس اللذين كان يزاولهما.توفي في القاهرة بعد انمرض سبعة أيام.والسيوطي نسبة الى أسيوط المدينة المعروفة في صعيد مصر كما دل عليه كلامه في كتابيه: حسن المحاضرة،ولب الالباب. (ينظر مقدمة بغية الوعاة بقلم محمد أبي الفضل ص ١٠،ونظم العقيان في أعيان الاعيان للسيوطي دمش ص ٣٥) .

(٢) هو جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي،ولد بمصر سنة ٧٩١هـ،وكان آية في الذكاء، بارعا في مختلف العلوم الاسلامية،ورعا صالحا،جريئا في الحق،يواجه بذلك أكابر الحكام والظلمة في زمانه،وقد عرض عليه القضاء الاكبر فامتنع،وولي تدريس الفقه وقرأ عليه كثيرون، كان متقشفا يتكسب بالتجارة،وله كتب جيدة التحرير سليمة التعبير،في الاصول والفقه، وكتب في النحو لم تكمل مثل شرح القواعد لابن هشام وشرح التسهيل لابن مالك،وكتب في المنطق،وأجل كتبه التي لم تكمل تفسير القرآن من أول الكهف الى آخر القرآن(ينظر ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٣٠٣/٧ -٣٠٤).

ترجمة المحلي: «وأجل كتبه التي لم تكمل تفسير القرآن...وهو ممزوج محرر غاية في الحسن».(٣)وقال الصاوي في مقدمة حاشيته على الجلالين: «وكان كتاب الجلالين من أجل كتب التفسير. وأجمع على الاعتناء به الجم الغفير من أهل البصائر والتنوير».(٤)وقال الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه: «مناهل العرفان في علوم القرآن»: «أما تفسير الجلالين فكتاب قيم سهل المأخذ الى حد ما، مختصر العبارة كثيراً...تداوله طبقات مختلفة من أهل العلم وغيرهم..».(٥)

وربما اعتقد من لا اطلاع له بأهمية هذا التفسير وماهيته، انه بالنظر لايجازه. مناسب للمبتدئين من الدارسين ولمتوسطي الثقافة من الناس فحسب، ولكن الحقيقة غير هذا، اذ ان هذا التفسير كان يختار لأعلى الدراسات فكأنه لاختصاره معد للمنتهين لا للمبتدئين، لان هذا الاختصار تكمن وراءه حقائق كثيرة في علوم القرآن، والتفسير وأصوله، والفقه واللغة والنحو والبلاغة والعقائد وغيرها. والى هذا أشار الشيخ الزرقاني العالم الازهري الجليل في اثناء كلامه عليه فقال: «والعجيب ان كثيراً من فطاحل العلماء كانوا يختارونه لأعلى دراسة عرفت في التفسير كمادة اساسية يدورون حولها ويستلهمون وحيها..»(٦)..وقال الشيخ محمد حسين الذهبي: «ومع هذا الاختصار فالكتاب قيم في بابه، وهو من أعظم التفاسير انتشاراً واكثرها تداولا ونفعاً»(٧)وازداد تفسير الجلالين أهمية بعد ان قام بالتعليق عليه الشيخ سليمان الجمل العجيلي المتوفى سنة ١٢٨٢هـ، ثم تبعه تلميذه المحقق الشيخ احمد الصاوي، الذي استفاد من تعليقات شيخه الجمل وزاد عليه فوائد كثيرة استقاها من عيون التفاسير كتفسير الزمخشري والقرطبي والبيضاوي وأبي السعود.(٨)

---

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ٣٠٤/٧.
(٤) الصاوي: حاشية الصاوي على الجلالين: ٢/١.
(٥) ٥٣٤/١-٥٣٥.
(٦) نفسه: ٥٣٥/١.
(٧) الذهبي: التفسير والمفسرون ٣٣٧/١
(٨) خاتمة تفسير الجلالين بقلم حسن طلبة زيدان ص ٥٢٤.

وتشعرنا الحواشي والشروح التي كتبت على الجلالين بأهميته، وهي كثيرة اشهرها حاشيتا الجمل والصاوي اللتان ذكرناهما آنفاً، وهما متداولتان بين أهل العلم، (٩) وهناك حواش اخرى ذكرتها المراجع الا انها لم تصل الينا، منها حاشية شمس الدين محمد العلقمي سماها: قبس النيرين، انتهى من تأليفها سنة ٩٥٢ هـ، وحاشية الجمالين لنور الدين علي بن سلطان محمد القاري نزيل مكة المكرمة المتوفى بها سنة ١٠١٠ هـ. (١٠) وذكر صاحب ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ان لبدر الدين محمد بن محمد البكري الكرخي الشافعي نزيل مصر المتوفى سنة ١٠٠٧ هـ حاشية على الجلالين، (١١) ويبدو انها هي الحاشية الصغرى التي أشار اليها صاحب كشف الظنون حين قال «وله حاشية صغرى»، الا انه لقبه جلال الدين بدلا من بدر الدين مبينا ان له شرحا كبيرا على الجلالين في مجلدات سماه: مجمع البحرين ومطلع البدرين» (١٢)، واسم هذا الشرح — ان صح انه وارد بهذه العبارة — مأخوذ من تفسير السيوطي المفقود «مجمع البحرين ومطلع البدرين» الذي أشار اليه السيوطي نفسه في آخر كتابه الاتقان في علوم القرآن. (١٣) ومن حواشي الجلالين حاشية لمحمد أبي السعود صالح السباعي الحفناوي المصري المتوفى سنة ١٢٦٨ هـ (١٤)

وقد اقتسم هذان المفسران الجليلان السيوطي والمحلي، شطرى هذا التفسير وتعاقبا في تحريره واتمامه، فبدأ العلامة المحلي به من سورة الكهف الى سورة الناس وهي آخر القرآن الكريم، وفسر سورة الفاتحة بعد ذلك، ثم أتمه السيوطي «سنة ٨٧٠ هـ» (١٥) حاذيا حذو شيخه المحلي بعد وفاته بست سنوات مبتدئا بسورة البقرة ومنتهيا بسورة الاسراء، سالكا مسلكه وناهجا نهجه.

(٩) الذهبي : التفسير والمفسرون ٣٣٧/١.
(١٠) خليفة — حاجي : كشف الظنون ٤٤٥/١ وانظر الذهبي ٣٣٨/١.
(١١) باشا — اسماعيل: ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ٣٠٤/١.
(١٢) خليفة — كشف الظنون ٤٤٥/١.
(١٣) ١٩٠/٢.
(١٤) باشا — اسماعيل: ايضاح المكنون ٣٠٤/١.
(١٥) دائرة المعارف الأسلامية: الترجمة العربية ٢٨/١٣.

وحين بين في خاتمة تفسيره لسورة الاسراء(١٦)،أنه فسره «في مدة قدر ميعاد الكليم» أشعرنا بأنه أتم هذا القدر من التفسير في أربعين يوما،وهي مدة قصيرة حقا تدل على قدرة السيوطي على التأليف السريع في سن مبكرة..اذ لم يتجاوز عمره اذ ذاك الثانية والعشرين.

وقد وهم صاحب كشف الظنون فظن ان المحلي هو الذي فسر القرآن من البقرة الى الاسراء،وأن السيوطي قد أتمه بعد ذلك(١٧)،وتابعه في هذا الوهم عدد ممن تلاه من المؤلفين مثل الشيخ قاسم القيسي في كتابه: تاريخ التفسير(١٨) والاستاذ أحمد عطية الله في معجمه الاسلامي.(١٩)على حين بين السيوطي نفسه في مقدمة الجلالين ،قبل أن يفسر سورة البقرة أنه قام باتمام مافات المحلي وهو من أول سورة البقرة الى سورة الاسراء،فدل على انه فسر هذا القسم من القرآن .ويقوي ذلك ماذكره أيضا في آخر تفسيره لسورة الاسراء(٢٠).

فقال: «هذا آخر ماكملت به تفسير القرآن الكريم الذي ألفه الشيخ الامام العالم العلامة المحقق جلال الدين المحلي الشافعي رضي الله عنه المتوفى (سنة)(٢١)٨٦٤...» وبين الشيخ سليمان الجمل في مقدمة حاشيته على الجلالين أن الفاتحة مما فسره المحلي وأنه توفي بعد اتمامه لها(٢٢)،الا ان صاحب كشف الظنون ذكر بأن أياً من الجلالين لم يفسر البسملة ففسرها بعض العلماء من زبيد وكتب ذلك حاشية بالهامش(٢٣) ومن العجيب ماوقعت فيه دائرة المعارف الاسلامية من

---

(١٦) ص ٢٤٣.
(١٧) خليفة–كشف الظنون ١/٤٤٥.وانظر الذهبي ١/٣٣٤–٣٣٥.
(١٨) ص ٧٨.
(١٩) ١/٤٨٣.
(٢٠) ص ٢٤٣.
(٢١) مابين القوسين زيادة من عندنا يقتضيها التعبير.
(٢٢) خليفة–حاجي: كشف الظنون ١/٤٤٥. وانظر الذهبي ١/٣٣٥.
(٢٣) خليفة: كشف الظنون ١/٤٤٥.

خلط بين هذا التفسير وبين كتاب «لباب النقول في أسباب النزول» للسيوطي (٥)، اذ يشعر كلامها بأنهما شيء واحد على حين هما كتابان مستقل كل منهما عن الآخر.

وقد التأم التفسيران بعد ذلك حتى صارا تفسيراً واحداً عرف بـ «تفسير الجلالين»، وتناظرا حتى لم يعد من اليسير على أحد من الدارسين تبين أنهما لمفسرين اثنين مالم يحط بذلك علما من مصدر خارج عن التفسير، اللهم الا المقدمة والخاتمة اللتين كتبهما السيوطي للقسم الذي فسره فانهما ابانتا عن ذلك.

ولقد حذا حذو الجلالين وخطا خطاهما بعد ذلك كثيرون، فكانا بحق رائدين من رواد التفسير الموجز الذي تنبغي العناية به، كما تنبغي للمطولات منه، وصرنا نجد اليوم تفاسير على نهجهما كتفسير العلامة السيد عبد الله شبر (٢٤) وتفسير العلامة محمد فريد وجدي وغيرهما من التفاسير الموجزة النافعة. ونحن اذ نتأمل في تفسير الجلالين تأملا لانكاد نفرق من حيث المنهج بين مافسره السيوطي وما فسره المحلي. لانهما كما بينا آنفاً ينهجان نهجا واحدا لا تباين فيه يبدو، بعد أن تابع السيوطي شيخه المحلي متابعة تامة تقريبا، وقد اعترف له بالاجادة، وأن ما وضعه الشيخ من هذا التفسير خير مما وضعه هو، كيف لا وقد أخذه عنه واقتبسه منه. كما اعترف بأنه لم يخالفه الا في مواضع يسيرة ماكان يظن انها تتجاوز العشرة (٢٥).

مصادر الجلالين

اعتمد الجلالان على مصادر متنوعة في تأليف تفسيرهما، وهو أمر متعارف عليه لدى المفسرين، اذ يستفيد المتأخر من صاحبه المتقدم، ثم يضيف اليه ماهداه اليه علمه، ودله عليه فكره. ولهذا فان الجلالين استقيا مادتهما التفسيرية من عيون التفاسير التي سبقتهما، فجاء تفسيرهما خلاصة مركزة لها، وصفوة مختارة منها،

---

(٥) ١٣/٢٨.

(٢٤) طبع هذا التفسير القيم في القاهرة بعناية السيد مرتضى الكشميري. وقدم له الدكتور حامد حفني داود استاذ الادب بكلية الالسن بمقدمة وافية.

(٢٥) ينظر ماكتبه السيوطي في خاتمة تفسير سورة الاسراء ص ٢٤٤.

قال صاحب كشف الظنون وهو يتكلم على هذا التفسير: «وهو مع كونه صغير الحجم، كبير المعنى، لانه لب لباب التفاسير». (٢٦) ولا يبعد ان يكون تفسير الكشاف من تلك التفاسير التي اعتمد عليها الجلالان وأخذا عنها. وآية ذلك مانجده من تشابه واضح في مثل تفسير قوله تعالى: «وانظر الى العظام كيف ننشزها» (٢٧) فالزمخشري يقول: «كيف نحييها وقرأ الحسن ننشرها من نشر الله الموتى بمعنى أنشرهم فنشروا، وقرىء بالزاي، بمعنى نحركها ونرفع بعضها الى بعض..» (٢٨). والسيوطي يقول: «نحييها بضم النون. وقرىء بفتحها من أنشر ونشر، لغتان. وفي قراءة بضمها والزاي: نحركها ونرفعها» (٢٩)، وهو كما ترى قريب مما ذكره الزمخشري. فاذا علمنا ان كبار المفسرين الذي سبقوا الجلالين كالطبرسي والرازي والبيضاوي وأبي حيان وغيرهم قد تأثروا بالزمخشري وأخذوا عنه، لم نر مايدعو الى استبعاد أخذ الجلالين عنه.

على ان السيوطي وان خالف شيخه في مواضع كما بينا ذلك من قبل: الا انه يتخذ من القسم الذي فسره مصدراً له، فيختار الوجه الذي اختاره مصرحاً بذلك. ففي تفسير قوله تعالى: «الحمد لله الذي خلق السموات والارض» (٣٠) نراه يقول: «لله: وهل المراد بذلك الايمان به، والثناء به (٣١)، أو هما؟ احتمالات. أفيدها الثالث، قاله الشيخ في سورة الكهف» (٣٢).

والمصادر الهامة التي يشير اليها الجلالان في تفسيرهما، كتب الحديث. وذلك حين يفسران الايات بالسنة النبوية. وأكثر هذه الكتب دورانا في تفسيرهما الكتب الستة كالبخاري ومسلم والترمذي وأبي داود، فضلا على الكتب الاخرى

---

(٢٦) خليفة–كشف الظنون ١/٤٤٥.
(٢٧) البقرة: ٢٥٩.
(٢٨) الزمخشري: الكشاف ١/٢٩٥.
(٢٩) السيوطي: تفسير الجلالين ص٣٧.
(٣٠) الانعام: ١.
(٣١) كذا وردت في الاصل، والصحيح الثناء عليه.
(٣٢) السيوطي: تفسير الجلالين ص١٠٥..

المشهورة كمستدرك الحاكم النيسابوري. فكثيراً ماتتكرر في تفسير الجلالين أمثال هذه العبارات: «رواه مسلم والبخاري»(٣٣) «رواه الحاكم وقال صحيح»(٣٤) «رواه الترمذي وقال حسن غريب»(٣٥).. «وفي حديث ابي داؤد الطيالسي» (٣٦)... الخ

أما المصادر الاخرى، كمصادر اللغة والنحو والبلاغة والفقه والعقائد... وأمثالها، فلا نجد لها ذكرا في تفسير الجلالين، ويعود ذلك الى مبدأ الايجاز الذي التزم به هذا التفسير، فحال دون تفصيل وبيان بقية المصادر.

مادة التفسير:

تنوعت مادة التفسير في الجلالين كما هي الحال في غالب التفاسير القرآنية. فاذا هي صنوف متعددة منها أثره في جودة التفسير واعطائه نصيبه من القبول لدى الدارسين.. ولكن النقص الذي يلحظ في هذا المجال هو أن الجلالين قد يختاران وجها من عدة وجوه يحتملها اللفظ أو السياق، أو يبينان رأيا من جملة آراء واردة مأثورة في مسألة من مسائل علوم القرآن أو موضوع من موضوعاته. وغير ذلك مما ذكر في التفاسير التي سبقتهما وبذلك قد تخفى تلك الوجوه الاخرى على المراجع لهذا التفسير الوجيز فيحسب ان ماذكراه هو الوجه الوحيد الوارد أو المحتمل. وسيتبين طرف من ذلك عند تفصيل الكلام على مادة التفسير، التي تضم مناهج متباينة كل منها يتم الآخر، ويعمل على تعزيزه وتقويته، فهناك منهج التفسير بالمأثور، ومنهج الفقه وأصوله، والمنهج اللغوي والنحوي والبلاغي. ولا بد من تبيانها منهجا منهجا.

التفسير بالمأثور

يبدو الجلالان مفسرين أثريين يعنيان بالأثر عناية واضحة وذلك يتجلى في مايأتي:

(٣٣) انظر مثلا تفسير الآية ٢٣ من سورة النساء ص ٦٨ وق.
(٣٤) أنظر مثلا الآية ١٩٠ من سورة الاعراف ص١٤٣.
(٣٥) أنظر تفسير الآية نفسها. المكان نفسه.
(٣٦) ينظر تفسير الآية ٥٥ من سورة آل عمران ص ٤٨..

١. **تفسير القرآن بالقرآن تفسيراً ظاهرياً**، سالكين في ذلك مسلك العلماء الذين وصفوا هذا الاسلوب من التفسير بأنه«أحسن طرق التفسير»كماذكرذلك الزركشي في برهانه (٥)

فهذا هو المنهج الافضل في تفسير كتاب الله، اذ ان تفسير القرآن بالقرآن خير طريقة ينتهجها المفسر في الكشف عن معاني الكتاب الكريم، لان الآية -بحسبه- تكون شاهداً للآية، والشاهد اذا كان كلام الله، فهو نعم الشاهد، ودونه كل الشواهد(٣٧) ولقد أدرك الامامان الجلالان ذلك، ووعياه حق الوعي، فأولياه في تفسيرهما مايستحق من أهتمام.

ففي تفسير قوله تعالى: «يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض ولا يكتمون الله حديثا(٣٨).

يذكر السيوطي بأن المراد من قوله«تسوى بهم الارض»: «بأن يكونوا ترابا مثلها..» ثم يذكر الاية التي تبين معنى التسوية بالارض وتفسره فيقول: «كما في آية أخرى: «ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً»(٣٩)، ففسر القرآن بالقرآن. وقد سبقه الى هذا شيخه جلال الدين المحلي في تفسير قوله تعالى: «سيذكر من يخشى»(٤٠). اذ قال: «سيذكر»: بها«من يخشى»: يخاف الله، فبين ان المراد بالخشية الواردة في الآية الكيمة، خشية الله، ثم ذكر بعد ذلك مايفسرها ويحدد مفهومها من الكتاب العزيز، بقوله: «كآية: فذكر القرآن من يخاف وعيد» (٤١). ففسر القرآن بالقرآن أيضاً.

---

(٥) ١٧٥/٢ بتحقيق أبي الفضل ابراهيم.

(٣٧) يراجع مقالتنا: «التفسير في نهج البلاغة» في مجلة«رسالة الاسلام»لكلية أصول الدين ببغداد، العددان: الثالث والرابع ١٩٧١.

(٣٨) النساء: ٤٢.

(٣٩) تفسير الجلالين ص٧٠.

(٤٠) الاعلى: ١٠

(٤١) تفسير الجلالين ص ٥٠٨.

٢.تبيين اسباب النزول: ويستعين الجلالان في منهج المأثور على تجلية النص وتفسيره بأسباب النزول،آخذين بنظر الاعتبار اهميتها في توضيح المعنى وكشف المراد من الآى. ففي قوله تعالى:«يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين».(٤٢)

يقول السيوطي مبيناً سبب نزول الاية:«لما اختلف المسلمون في غنائم بدر، فقال الشبان هي لنا لأنا أشرنا بالقتال،وقال الشيوخ كنا رداءاً تحت الرايات ولو انكشفتم لفئتم الينا.فلا تستأثروا بها،نزل:بسم الله الرحمن الرحيم(يسألونك): يامحمد(عن الانفال):الغنائم (٤٣)....«ويقول:» ولما صلى النبي صلى الله عليه وسلم على ابن أبي نزل«ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره»(٤٤) وقد يشيران الى مكان نزول الآية ،كقول المحلي بأن سورة القصص مكية الا «الذين آتيناهم الكتاب»والا«إن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد»فمدنية نزلت بالجحفة(٤٥) والجلالان يتبنيان القاعدة التفسيرية الهامة المتعلقة بأسباب النزول التي تقول:«ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»وهو رأي الجمهور. وقدتبناه السيوطي في تفسير الجلالين ثم في كتابه:« الاتقان في علوم القرآن»(٤٦) من بعد،ورجحه على سواه.

ومفاد هذا الرأي ان الآية التي تنزل في سبب من الاسباب لاتنحصر في الأفراد الذين نزلت فيهم فحسب،بل تتعداهم الى كل من ينطبق عليهم مفهومها،ففي تفسير قوله تعالى: «ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها..»(٤٧)، يذكر أن « الآية وان وردت على سبب خاص، فعمومها معتبر بقرينة

---

(٤٢) الانفال: ١.

(٤٣) تفسير الجلالين ص ١٤٥.

(٤٤) نفسه ص ١٦٣.

(٤٥) ينظر صدر تفسير سورة القصص ص ٣٢٣،قبل تفسير البسملة.والجحفة:ميقات أهل الشام في الدخول الى مكة.(القاموس المحيط مادة ج ح ف).

(٤٦) ٢٩/١.

(٤٧) النساء: ٥٨.

الجمع»(٤٨).وكان المحلي قد تبنى ذلك عمليا في القسم الذي فسره،ففي تفسير قوله تعالى:«وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى»(٤٩)يذكر ان الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما اشترى بلالا الحبشي المعذب على ايمانه وأعتقه.فلما فسر الآية التي وردت بعد ذلك في سياقها وهي قوله تعالى:«ولسوف يرضى»،قال:«بما يعطاه من الثواب في الجنة» ثم قال:«والآية تشمل من فعل مثل فعله رضي الله عنه،فيبعد عن النار».(٥٠)فبين أن مفهوم الآية لا يقف عند من نزلت فيه فحسب،بل يتعداه الى كل من ينطبق عليه مفهومها ويناله لفظها وتعبيرها من المؤمنين..

ونظرا لما لأسباب النزول من أهمية في الكشف عن معاني القرآن.فقد ألف السيوطي بعد ذلك كتابه المشهور:«لباب النقول في أسباب النزول» اعتمد فيه على المأثور من الروايات في أسباب النزول اعتمادا كلياً.وقد طبع الكتاب مستقلا،كما طبع بهامش الجلالين اتماما للفائدة.

ومن هنا ظهر شيء من التباين بين ما كتبه السيوطي في تفسيره.وبين ما كتبه بعد ذلك في «نقوله»،ففي تفسير قوله تعالى:«انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» لم يزد على ان قال في تفسير هذه الآية:«راكعون»:خاشعون،أو يصلون صلاة التطوع»(٥١). دون ان يشير الى سبب نزولها وفيمن نزلت.وهو خلاف عادته في مثل هذه الحال،اذ هو يشير الى سبب النزول.غير انه حين ألف كتابه (لباب النقول) بعد ذلك،بين أنها نزلت في الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مستندا الى ما أخرجه (الطبراني) عن عمار بن ياسر وابن مردويه عن علي وابن عباس. وابن جرير على سلمة بن كهيل.ثم قال بعد أن ذكر هذه الروايات والاقوال

---

(٤٨) تفسير الجلالين: ص ٧٢.

(٤٩) الليل :١٧-١٨.

(٥٠) تفسير الجلالين: ص ٥١٣.

(٥١) ينظر تفسيره للآية ٥٥من سورة المائدة ص ٩٦

المأثورة في سبب نزول الآية: «فهذه الشواهد يقوي بعضها بعضاً»(٥٢)مؤيداً القول بنزولها في الامام.

وهذا في الواقع يمثل جزءاً من تطور السيوطي العلمي في مجال التفسير. اذ نجد أن دراساته في التفسير وعلوم القرآن بعد ذلك قد أضفت على علمه في هذا المجال سعة وتطوراً واضحين، وقد تجلى ذلك بوضوح في تفسيره المشهور: «الدر المنثور». فاذا علمنا أنه ألف القسم الذي ألفه من تفسير الجلالين ولما يجاوز الثانية والعشرين، تجلى لنا هذا التطور أكثر فأكثر.

٣. العناية بالناسخ والمنسوخ

ومن معالم التفسير بالمأثور لدى (الجلالين) العناية بالناسخ والمنسوخ وهو أمر له أهميته وبخاصة في تبيان تطور الاحكام الشرعية خلال الفترة التي نزل فيها الوحي وسمع. فيها المسلمون القرآن يتلى عليهم.

ومن هنا نجد (الجلالين) يشيران في تفسيرهما الى نوعين من أنواع النسخ هما:

أ. نسخ القرآن بالقرآن.

ب. نسخ القرآن بالسنة.

ولم يرد عنهما اشارة الى النوعين الآخرين أعني: نسخ السنة بالقرآن ونسخ السنة بالسنة. اللذين قال بهما فريق من العلماء على ماذكر الزركشي في برهانه.(٥٣)، فمن مثل الاول ماذكره السيوطي بعد تفسير قوله تعالى: «ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والاقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ان الله على كل شيء شهيد» (٥٤)، اذ قال: «وهذا منسوخ بقوله: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض».(٥٥)

---

(٥٢) السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول ص ٩٠-٩١.

(٥٣) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ٣١/٢-٣٢.

(٥٤) النساء: ٣٣.

(٥٥) تفسير الجلالين: ص ٦٩.

ومن أمثلة الثاني ماورد في تفسير قوله تعالى: «كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقاً على المتقين»(٥٦). اذ قال: «للوالدين والاقربين بالمعروف: بالعدل بأن لا يزيد على الثلث ولا يفضل الغني ....وهذا منسوخ بآية الميراث وبحديث«لا وصية لوارث» رواه الترمذي»(٥٧) فبين أن الحكم الشرعي الاول منسوخ بالآية وان الثاني منسوخ بالآية والسنة معاً، وهو في هذا على رأى الامام الشافعي الذي يرى أنه «حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها قرآن عاضدها»، وقد صرح بهذا الرأي في كتابه الاتقان(٥٨).

واذا كان الايجاز قد حمل الجلالين على عدم بيان مصدر الرواية الدالة على النسخ، فإن ذلك لم يكن مطردا في تفسيرهما. اذ لا يعدمان في مواضع متفرقة منه بيان هذا المصدر، كالذي نجده في تفسير قوله تعالى: «ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدله عذاباً عظيماً».(٥٩) فبعد أن يبين السيوطي أن العذاب الوارد في الآية مؤول بمن يستحل القتل، أو بمن يجازى إن كتب عليه الجزاء، نراه يذكر الرواية الواردة عن ابن عباس الدالة على ان الاية ناسخة لغيرها من آيات المغفرة؛ فيقول: «وعن ابن عباس انها على ظاهرها وانها ناسخة لغيرها من آيات المغفرة»(٦٠).

وقد يشير الجلالان الى الآراء الواردة في نسخ الآية دون عزوها الى قائلها من الصحابة او التابعين، ودون نقدها وبيان الرأي فيها مكتفيين بلفظة «قيل»، كالذي نجده في تفسير الآية الثامنة من سورة النساء. اذ يقول السيوطي: «وهذا قيل إنه منسوخ، وقيل لا، ولكن تهاون الناس في تركه..»(٦١). وعناية الجلالين بالناسخ

---

(٥٦) البقرة: ١٨٠.
(٥٧) تفسير الجلالين: ص ٢٥.
(٥٨) ١٢١/٢.
(٥٩) النساء: ٩٣.
(٦٠) تفسير الجلالين: ص ٧٧.
(٦١) نفسه: ص ٦٥.

والمنسوخ لا يعني الالتزام باستمرار بما تنص عليه الروايات من وجوه وأحكام، اذ قد يكتفيان بايرادها وبيان الحكم الوارد فيها دون الالتزام بمضمونها. كالذي نجده في تفسير آية القتل العمد التي مرت علينا آنفاً. اذ لم يتبن السيوطي رأي ابن عباس الذي أورده فيها، فالسيوطي يرى أنها مؤولة، وابن عباس يرى انها على ظاهرها.

٤. التفسير القصصي

ولا يعدم تفسير الجلالين، على ايجازه، في جانبه النقلي، أثراً من آثار «التفسير القصصي» المعروف في التفاسير المطولة عادة. وهو ان يذكر المفسر عند تفسير الآي حوادث وقصصاً تتصل بشخصية واردة في الآية أو حادثة واقعة فيها أو ماأشبه ذلك، معتمداً على المأثور من الروايات. وقد توخى المفسران الجليلان الايجاز عند تبيان ذلك مع كفاية الايضاح.

فمن مثله ماورد في تفسير قوله تعالى: «وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين». (٦٢) فقد ذكر المحلي قصة آسية امرأة فرعون وايمانها وما أصابها من أذى بعد انكشاف أمرها لفرعون وما كان من عناية الله بها بتظليل الملائكة لها عند تعذيب فرعون اياها وتجلي القصر الذي بني في الجنة لها. ورفعها الى السماء بعد موتها.. (٦٣)

٥. تفسير القرآن بالسنة

والسنة النبوية مصدر من مصادر التفسير عند الجلالين، كما هي عند غيرهما من المفسرين. فالسنة شارحة للكتاب ومبينة له وكاشفة عن معانيه ومفصلة لمجمله. وقد أجمع المفسرون وأهل العلم على اعتمادها مصدراً وثيقاً من مصادر تفسير القرآن الكريم، مادامت قد صحت عنه عليه الصلاة والسلام.

---

(٦٢) التحريم : ١١.

(٦٣) تفسير الجلالين ص٤٧٧.

وهما لايلتزمان بايراد«عنعنات»الرواية بل يكتفيان بايراد الرواية مسبوقة بلفظة «كحديث»أو«لقوله ص»أو نحو ذلك.وقد يوردان«عنعنات»الرواية احياناً باختصار كقول السيوطي: «وروى الامام أحمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله (ص)...».(٦٤)وقد لا يوردان نص الحديث الشريف بل يكتفيان بالقول« كما في الحديث»، التزاما منهما بالايجاز الذي سلكاه، ويحتمل أن يكون ذلك لشهرة الحديث، ودورانه بين أهل العلم أيضا.

يقول السيوطي في تفسير قوله تعالى: «ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء...»(٦٥)«لا تفتح لهم أبواب السماء»: «اذا عرج بأرواحهم اليها بعد الموت فيهبط بها الى سجين بخلاف المؤمن فتفتح له ويصعد بروحه الى السماء السابعة، كما ورد في حديث»(٦٦). والحديث الذي أشار اليه السيوطي طويل منه قوله (ص): «ثم يصعد بروحه الى السماء فتفتح له ويشيعه مقربوها الى السماء الثانية والثالثة والرابعة....»(٦٧).

ويقول السيوطي أيضا: «والعبد بالعبد والانثى بالانثى»، وبينت السنة ان الذكر يقتل بها وانه تعتبر المماثلة في الدين، فلا يقتل مسلم ولو عبداً بكافر ولو حراً».(٦٨)فذكر ما يتعلق بالحكم الشرعي من أمور بينتها السنة وأجملتها الآية.

ومن أمثلته أيضا ماورد في تفسير قوله تعالى: «وقوموا لله قانتين»(٦٩)، فقد فسر القنوت بالطاعة، معتمدا على ماورد عن رسول الله (ص)، في ذلك قائلا:

---

(٦٤) نفسه ص ٢٤٣.

(٦٥) الاعراف : ٤٠

(٦٦) تفسير الجلالين ص ١٢٧.

(٦٧) ينظر الحديث بتمامة في: ابن القيم: الروح: ص ٤٦-٤٧.

(٦٨) تفسير الآية ١٧٨ من البقرة ص ٢٤.

(٦٩) البقرة: ٢٣٨.

«قانتين: قيل مطيعين لقوله صلى الله عليه وسلم كل قنوت في القرآن فهو طاعة» (٧٠).

منهج الفقه وأصوله

ولا يعدم تفسير الجلالين بيان المسائل الفقهية والقضايا التشريعية، كلما كان لبيانها حاجة، وللكلام عليها مناسبة، وله في هذا المنهج الهام سبل يسلكها أظهرها:

١. أنه يبين الوجه الفقهي الذي تدل عليه آيات الاحكام، كما في تفسير قوله تعالى: «.. وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» اذ قال: «...طعام مسكين: أي قدر ما يأكله في يومه وهو مد في غالب قوت البلد لكل يوم» (٧١).

٢. وبروح أصولية يبين نوع هذه الاحكام الشرعية من حيث الوجوب أو الندب أو غيرهما، كما في تفسير قوله تعالى: «وأشهدوا اذا تبايعتم» (٧٢)، اذ قال السيوطي: «واشهدوا اذا تبايعتم: عليه. فانه ادفع للاختلاف. وهذا وما قبله أمر ندب» (٧٣). يريد ان الامر المفهوم من (اشهدوا) وما وما قبله من أوامر واردة في هذا المقام، لا تفيد الوجوب بل الاستحباب.

٣. ويشير الى السنة النبوية الشريفة حيثما وردت مبينة للقرآن، أو مفصلة لمجمله، كما في تفسير قوله تعالى: «وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة». (٧٤). اذ قال: «وبينت السنة جواز الرهن في الحضور ووجود الكاتب. فالتقييد بما ذكر لان التوثيق فيه أشد. وأفاد قوله: مقبوضة،

---

(٧٠) تفسير الجلالين ص ٣٤.

(٧١) تفسير لآية ١٨٤ من البقرة ص ٢٥.

(٧٢ البقرة: ٢٨٢.

(٧٣) تفسير الجلالين: ص ٤١. والندب مادعا الشارع الى فعل متعلقه ولم يلزم به (الحكيم: أصول الفقه المقارن ص ٦٢-٦٣).

(٧٤) نفسها: ٢٨٣.

اشتراط القبض في الرهن والاكتفاء به من المرتهن ووكيله»(٧٥)، فبين مافي السنة من تفصيل لمجمل الكتاب، الى جانب استنباط حكم شرعي، دلت عليه لفظة «مقبوضة» في الآية الكريمة. وكثيراً ماترد الآراء الفقهية المأثورة عن كبار الصحابة، عند تفسير آيات الاحكام خاصة. كالذي نجده في تفسير قوله تعالى: «ياأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ماقتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة»(٧٦). فنرى السيوطي يقول: «وقد حكم ابن عباس وعمر وعلي رضي الله عنهم في النعامة ببدنة وابن عباس وأبو عبيدة في بقر الوحش وحماره: ببقرة، وابن عمر وابن عوف في الظبي بشاة»(٧٧).

٤. وتبدو الآراء الفقهية لعدد من المدارس الاسلامية واضحة في تفسير الجلالين وبخاصة مدرسة الامام الشافعي وفقهه، فقد ظهرت آراؤها الفقهية وفتاواها بجلاء، ويعود ذلك الى ان كلا الامامين الجلالين شافعي المذهب فمن هنا كان اهتمامهما ببيان فقه الامام الشافعي واردا أكثر من غيره. ففي تفسير قوله تعالى «ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله»(٧٨) يقول السيوطي: «..محله»: حيث يحل ذبحه وهو مكان الاحصار(٧٩) عند الشافعي....». ويقول في تفسير قوله تعالى: «لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام»(٨٠) «بأن لم يكونوا على مرحلتين من الحرم عند الشافعي.. فلو أقام قبل أشهر الحج ولم يستوطن فعليه ذلك. وهو أحد وجهين عند الشافعي...»(٨١).

---

(٧٥) تفسير الجلالين ص ٤١.
(٧٦) المائدة: ٩٥.
(٧٧) تفسير الجلالين ص ١٠١.
(٧٨) البقرة : ١٩٦.
(٧٩) الاحصار: المنع عن اتمام مناسك الحج والعمرة لسبب من الاسباب كالعدو والمرض (انظر: الراغب الاصفهاني: مفردات القرآن مادة: حصر) ص١١٩–١٢٠.
(٨٠) البقرة: ١٩٦.
(٨١) تفسير الجلالين ص ٢٧.

وهكذا نرى انه لا يكاد وجه فقهي أو حكم شرعي يخلو من بيان رأي الامام الشافعي رحمه الله فيه. وهذا أجلى فيما فسره السيوطي خاصة. فيمكن القول ان تفسير الجلالين يعد مصدرا للفقه الشافعي.

٥- ومن عناصر المنهج الفقهي في تفسير الجلالين، بيان «علل الاحكام الشرعية كعلل العبادات، وعلل الحدود ونحوهما. فمن مثل ماورد في علل العبادات قول السيوطي في علة الصلاة: «وقيل الخطاب لليهود لما عاقهم من الايمان الشره وحب الرياسة، فأمروا بالصبر وهو الصوم، لانه يكسر الشهوة، والصلاة لانها تورث الخشوع وتنفي الكبر» (٨٢)، وذلك حين فسر قوله تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين» (٨٣).

ومثله ماورد في علة الاقتصاص من القاتل، بأن قال: «لان القاتل اذا علم انه يقتل ارتدع فأحيا نفسه ومن أراد قتله..» (٨٤). وذلك حين فسر قوله تعالى: «ولكم في القصاص حياة يا اولى الالباب لعلكم تتقون» (٨٥).

ومن هذه العلل علة قلة أيام الصوم ووصفها بكونها «أياماً معدودات» في التنزيل، اذ قال: «أي قلائل أو مؤقتات بعدد معلوم وهي رمضان.... وقلله تسهيلا على المكلفين» (٨٦). والسيوطي يشير الى مايسميه «محل العلة» عندما يفسر قوله تعالى: «أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى» (٨٧)، فيقول: «وجملة الاذكار محل العلة، أي لتذكر ان ضلت» (٨٨). وبعبارة أخرى ان العلة منصوص عليها في هذه المسألة، اذ بينت الاية الكريمة في جزء من اجزائها وهو الذي سماه السيوطي «محل العلة» او جملة الاذكار على حد قوله، الحكمة من اعتبار شهادة

---

(٨٢) تفسير الجلالين ص ٨.
(٨٣) البقرة: ٤٥.
(٨٤) تفسير الجلالين ص ٢٥.
(٨٦) تفسير الجلالين: ص ٢٥.
(٨٥) البقرة: ١٧٩.
(٨٧) البقرة: ٢٨٢.
(٨٨) تفسير الجلالين ص ٤١.

امرأتين من النساء بشهادة واحدة ،وهي ان تذكر احداهما الاخرى اذا ضلت صاحبتها في شهادتها،ولم تؤدها على وجهها الصحيح المطلوب.

ويبدو للدارس ان المنهج الفقهي فيما فسره السيوطي من الجلالين،أكثر اتساعاً وعمقاً مما هو فيما فسره استاذه وشيخه المحلي.وقد يتبادر ان ذلك يعود الى وفرة آيات الاحكام في القسم الذي فسره السيوطي من القرآن،الاانا لانلبث ان نجد ان تلك الايات ليست بالقليلة فيما فسره المحلي أيضاً.فلامناص عندئذ من عزو ذلك الى اهتمام السيوطي بهذا الجانب أكثر من شيخه المحلي،وعنايته الخاصة به.

المنهج اللغوي

ومنهج الجلالين اللغوي يشمل أموراً عديدة يلحظها الدارس له،وذلك:

١.انهما يفسران الالفاظ القرآنية تفسيراً لغوياً موجزاً مبنياً على مفهومها في الاصطلاح اللغوي وما تواضع عليه العرب في تعبيراتهم وأساليبهم،وما عرفه في معاني منطقهم.فيقول السيوطي في تفسير سورة الانفال(٨٩)مثلا:

«الا متحرفا»: متعطفا.

«ليثبتوك»: يوثقوك ويحبسوك.

وقد سبقه المحلي الى هذا التفسير اللغوي الموجز،فقال في تفسير سورة «المؤمنين» (٩٠) مثلا:

«في غمرة»: جهالة.

«لا نكلف نفسا الا وسعها» أي طاقتها.

«يجأرون». : يضجون.

---

(٨٩) ينظر تفسير الآيتين: ١٦و٣٠ منها.

(٩٠) ينظرتفسيرالآيات:٦٢-٦٤ منها.

فهما هنا يفسران «غريب الالفاظ» القرآنية.ويكشفان عن المراد منها، بوضع الالفاظ المؤدية لمعانيها في اللغة ازاءها.

ولعل هذا الذي حدا بأكثر الدارسين أن يلجأوا الى تفسيرهما في أوقات كثيرة، اذ هو يسعفهم في تفهم معاني الالفاظ القرآنية ويدلهم على المراد من آيات الكتاب المبين دون عناء كبير. وبخاصة ان الكثيرين منهم، قد لا يجدون وقتا أو يملكون جلدا على مراجعة المطولات من التفاسير.

٢. وهما قد يشيران الى مفهوم اللفظة في أصل الاستعمال اللغوي ومفهومها في استعمال القرآن: وما قد يقع بين هذين الاستعمالين من تغاير معنوي، كما في «لعل» الواردة في قوله تعالى: «ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون»(٩١).

اذ يقول السيوطي: «ولعل في الاصل للترجي، وفي كلامه تعالى للتحقيق»(٩٢) غير انه لم يسند الى «عسى» المعنى نفسه، حين فسرها في مثل قوله تعالى: «عسى الله ان يكف بأس الذين كفروا...»(٩٣).

اذ هي على ماهو ظاهر مثل «لعل» في أفادة معنى التحقيق حين ترد في كلامه تعالى، وليست على سبيل الرجاء.

٣. وعد الجلالان الحروف المقطعة في أوائل السورة المسماة بفواتح السور، مثل (ق) و(الم) و(المر)... رموزا لا يعلمها الا الله تعالى، حيثما وردت في التنزيل. ولذلك نجدهما يقولان بعد كل حرف من هذه الحروف: «الله أعلم بمراده به»(٥). او «الله أعلم بمراده بذلك.»(٥٥): وذلك مطرد في تفسيرهما كله لم يند عنه شيء وهما في هذا على طريقة فريق من السلف وقفوا من هذه الحروف

---

(٩١) البقرة: ٢١.

(٩٢) تفسير الجلالين: ص ٥.

(٩٣). النساء: ٨٤.

(٥) انظر مثلا (ن) في سورة القلم ص ٤٨٠. و(حم) في سورة فصلت ص ٤٠٠.

(٥٥) انظر مثلا (الم) البقرة ص ٣. و (طسم) في سورة القصص ص ٣٢٣.

موقفا محتاطا متورعا،فلم يخوضوا في مدلولاتها والمراد منها،بل أوكلوا علم ذلك الى الله وحده.على حين خاض آخرون في هذه المدلولات،واحتملوا لها وجوهاً وأراءولم يجدوا بأسا في تبيان المراد منها كالذيقاله قتادة ومجاهد وابن جريج من أنها من أسماء القرآن،أو انها فواتح يفتح بها القرآن وروى ذلك عن مجاهد ايضا واختاره البلخي،وقال بعضهم هي اسم للسورة وروى ذلك عن زيد بن أسلم والحسن البصري.وقال بعضهم هي اسم الله الاعظم وروى ذلك عن السدى والشعبي ،وقال بعضهم هي قسم أقسم الله به وهي من أسمائه؛ وروى ذلك عن ابن عباس وعكرمة وقيل غير ذلك أيضا.(٩٤).

وقد ضم تفسير «الكشاف»للزمخشري مجموعة من هذه الاقوال والآراء عند تفسيره (الم) من سورة البقرة؛ (٩٥) ودراسة وافية عن فواتح السور بعامة من حيث ماهيتها واعرابها كما تضمن أمورا أخرى تتعلقبها. وهي دراسة تتسم بالاصالة والعلو في مراتب التحقيق والتدقيق.

٤. ولهما في «المبهمات»(٩٦) القرآنية منهج واضح متميز ،وذلك انهما قد ينصان على صاحب المبهم ويشيران اليه،كنص السيوطي على المسائل عن الانفاق في قوله تعالى«ويسألونك ماذا ينفقون»(٩٧) اذ قال : «والسائل عمرو بن الجموح وكان شيخا ذا مال فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عما ينفق وعلى من ينفق»(٩٨).

---

(٩٤) ينظر تفصيل هذه الاقوال في تفسير التبيان للطوسي ٤٧/١.المتوفى سنة ٤٦٠هـ.

(٩٥) الزمخشري: الكشاف: ٦٠/١-٨٢.

(٩٦) يراد بالمبهمات القرآنية :أسماء الاشخاص والاشياء التي وردت في القرآن مبهمة دون تبيين، كما في اصطلاح المفسرين والمعنيين بالدراسات القرآنية.وهي كثيرة فمن مثلها: قربان ابني آدم مانوعه؟..وبعض بقرة بني اسرائيل؟ماهو، والذي مر على قرية،من هو؟ وطيور أبراهيم(ع) الاربعة مانوعها؟والمسجد الذي أسس على التقوى ماهو؟. وأشهر من ألف في المبهمات السهيلي وابن عساكر والسيوطي.

(٩٧) البقرة: ٢١٥.

(٩٨) ص ٢٩ من الجلالين.

وكنعـه على ان المراد بالقرية«بيت المقدس».وبالرجل الذي مر على تلك القرية عزير»(٩٩) وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها»؟(١٠٠)وقد ذكر المحلي ان العبدالرباني الذي آتاه الله من عنده رحمة وعلمه من لدنه علما هو«الخضر»(١٠١)، وذلك في تفسير قوله تعالى: «فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما» (١٠٢) . وقد يفصح الجلالان عن المأثور في تبيين هذه المبهمات القرآنية كما في تفسير قوله تعالى: «ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة »(١٠٣). اذ يقول السيوطي: «...سيطوقون مابخلوا به»: أي بزكاته من المال«يوم القيامة»بأن يجعل حية في عنقه تنهشه كما ورد في الحديث».(١٠٤) فهو هنا يخصص (ما) الموصولة في الآية الكريمة ويكشف عن المراد منها ببيان انها تعني حية في عنق الباخل بماله عن أداء حق الله فيه ، تنهشه يوم القيامة .معتمدا في ذلك على حديث مروي.

وقد لا يحدد المبهم القرآني في الجلالين بل يردد بين ما يحتمله اللفظ أو السياق من وجوه،أو ماتتضمنه الاخبار والروايات من أقوال،فمن مثل النوع الاول ماورد في تفسير قوله تعالى: «قالت احداهما ياأبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين» (١٠٥)اذ قال المحلي«قالت احداهما»: وهي المرسلة

(٩٩) تفسير الجلالين: ص ٣٧.

(١٠٠) البقرة: ٢٥٩.

(١٠١) تفسير الجلالين : ص ٢٥٠.

(١٠٢) الكهف: ٦٥.

(١٠٣) آل عمران: ١٨٠.

(١٠٤) تفسير الجلالين : ص ٩١:

والحديث الذي أشار اليه رواه عبد الله بن مسعود عن النبي(ص) وهو: «مامن أحد لا يؤدي زكاة ماله الا مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع حتى يطوق به عنقه» رواه أبن ماجه والنسائي وأبن خزيمة ومسلم.والشجاع: الحية. (المنذرى: الترغيب والترهيب ص:١٠٧.

(١٠٥) القصص: ٢٦.

الكبرى أو الصغرى»(١٠٦) فلم يعين القائلة من الفتاتين ابنتي الشيخ الكبير الذي عنه إنه شعيب عليه السلام وقيل ابن أخيه المسمى يثرون أو يثرى(١٠٧)؛ بل جعل الامر مردداً بينهما لاحتمال السياق ذلك، ولا بد انه لم يجد أثراً يسوغ له القطع بالقائلة منهما.

ومن أمثلة الثاني ماورد في تفسير قوله تعالى: «ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»، اذ فسر السيوطي «الشجرة» المحرمة الواردة في الآية الكريمة: بالحنطة أو الكرم ثم قال «أو غيرهما»(١٠٨) يريد أو غيرهما مما وردت به الروايات. اذ لا دليل على القول بأنها شجرة الكرم أو الحنطة الا بدليل، وهو الذي ذكر في التفاسير عن عدد من الصحابة والتابعين، وتباينت الروايات فيه. فلم يعد بالامكان الجزم بماهية تلك الشجرة التي حرمت على آدم وحواء.

ومما هو جدير بالذكر أن السيوطي ألف بعد ذلك في مبهمات القرآن كتابه الموسوم: «مفحمات الاقران في مبهمات القرآن»، كما أنه جعل النوع السبعين من كتابه الاتقان خاصا بهذا الموضوع الهام.

٥. وقد عني الجلالان بالقراءات القرآنية عناية واضحة في تفسيرهما، وأولياها ماتستحقه من تبيان وذلك:

أ. انهما يشيران الى القراءات المختلفة المشهورة بايجاز، حين يفسران آي الكتاب الحكيم ولا يضيفان هذه القراءات الى قرائها، بل يكتفيان بالتنبيه عليها.

فالسيوطي مثلا يورد اذ يفسر قوله تعالى: «وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير..» (١٠٩) القراءة التي قرأ بها اكثر القراء وهي «قتل» ببناء الفعل للمجهول

---

(١٠٦) تفسير الجلالين: ص ٣٢٥.
(١٠٧) الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن ٢٠/٣٩–٤٠.
(١٠٨) تفسير الآية ٣٥ من سورة البقرة ص ٧.
(١٠٩) آل عمران: ١٤٦.

ثم يشير الى القراءة الاخرى المشهورة التي قرأ بها اهل الكوفة وابن عامر (١١٠) وهي «قاتل» تلك القراءة التي قرأ بها أيضا عاصم بن أبي النجود الكوفي التابعي ورواها عنه حفص بن سليمان الاسدي الكوفي، والمشتهرة اليوم.
وقد أشار السيوطي الى هذا الاهتمام بالقراءات المشهورة في مقدمة القسم الذي فسره من «الجلالين».

ب- وتفسير الجلالين يربط بين القراءات المختلفة واللغات التي كانت تتكلم بها العرب وقت نزول القرآن. فعندما يفسر السيوطي قوله تعالى: «قل أونبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد (١١١)»، يذكر ان في لفظة «رضوان» قراءتين احداهما بكسر فائها والثانية بضمها، ثم يبين انهما لغتان من دون ان يعزوهما الى مصدرهما من لسان العرب.
ومثله ما أورده في تفسير قوله تعالى: «ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر..» (١١٢) اذ بين ان قراءة (يحزنك) وردت بوجهين احداهما «بضم الياء وكسر الزاي» والثانية بفتحها وضم الزاي من حزنه «لغة في أحزنه». (١١٣)

ج. وهو يربط بين القراءات القرآنية ووجوه الاعراب، كما في تفسير قوله تعالى: «ورسولا الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية،» (١١٤) اذ يقول السيوطي: «أني»، وفي قراءة بالكسر أستئنافاً (١١٥)» يريد كسر همزة «إن» التي تكسر اذا وقعت في صدر الكلام.

---

(١١٠) ينظر تفسير التبيان للطوسي ٣/١٠.
(١١١) آل عمران: ١٥.
(١١٢) نفسها : ١٧٦.
(١١٣) تفسير الجلالين ص٦١.
(١١٤) آل عمران: ٤٩.
(١١٥) تفسير الجلالين ص ٤٧.

ويقول في تفسير آية اخرى: «ولباس التقوى»: بالنصب عطفاً على «لباساً» والرفع مبتدأ خبره جملة: «ذلك خير ذلك من آيات الله». (١١٦)

د. ويربط بين تعدد القراءات واختلاف المعنى الذي قد يتولد من ذلك، كما في تفسير قوله تعالى: «ويستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون» (١١٧).

اذ يقول المحلي: «ويقول: «فيه بالنون، أي نأمر بالقول، وبالياء، أي يقول الموكل بالعذاب» (١١٨).

هـ. وقد أهمل تفسير الجلالين القراءات «الشواذ»، فلم ينبه أو يشر اليها. كقراءة اليماني (١١٩) مثلا «واذا لاقوا الذين آمنوا قالو آمنا» بدل القراءة المشهورة «واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا». وهو في هذا يؤثر الايجاز أو ذكر الصحيح دون السقيم من القراءات. وقد بينا آنفا ان السيوطي أوضح في مقدمة تفسيره انه نبه على القراءات المشهورة، وهذا يعني بالطبع تركه ماعداها من القراءات الشواذ.

---

(١١٦) ينظر تفسير الآية ٢٦ من سورة الاعراف ص ١٢٥.

(١١٧) العنكبوت: ٥٥.

(١١٨) تفسير الجلالين ص ٣٣٧.

(١١٩) تنظر هذه القراءة في تفسير التبيان للطوسي ٧٨/١.

المصادر والمراجع

١ . ابن القيم (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر)–الروح –مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ،القاهرة .ط ٢ سنة ١٩٥٧.

٢ . ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي)–شذرات الذهب في أخبار من ذهب– المكتب التجاري .بيروت.

٣ . ابن الانباري (كمال الدين عبد الرحمن بن محمد)–الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين–بتحقيق محيي الدين عبد الحميد .ط٣.سنة ١٩٥٥.مطبعة السعادة بمصر.

٤ . ابن هشام (جمال الدين عبد الله بن يوسف)–مغني اللبيب عن كتب الاعاريب بتحقيق محيي الدين عبد الحميد.

٥ . الاصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب)–مفردات ألفاظ القرآن –تحقيق نديم مرعشلي.دار الكاتب العربي .مطبعة التقدم العربي ١٩٧٢.

٦ . باشا (اسماعيل بن محمد أمين)–أيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون –المكتبة الاسلامية بطهران سنة ١٣٧٨هـ.صورة بالاوفست.

٧ . الحكيم (محمد تقي)–الاصول العامة للفقه المقارن–دار الاندلس للطباعة والنشر بيروت . ط١ .سنة ١٩٦٣.

٨ . خليفة –حاجي (مصطفى بن عبد الله)–كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون–المطبعة الاسلامية بطهران –ط٣،سنة ١٣٨٧هـ.

٩ . الذهبي(محمد حسين) –التفسير والمفسرون–ط١ ،سنة ١٩٦١.

١٠. الزرقاني (محمد عبد العظيم)– مناهل العرفان في علوم القرآن–دار احياء الكتب العربية –القاهرة.

١١. الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)– البرهان في علوم القرآن– بتحقيق أبي الفضل ابراهيم .ط١ سنة ١٩٥٧.دار احياء الكتب العربية.

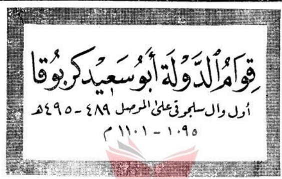
١٢. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)–الاتقان في علوم القرآن –مطبعة البابي الحلبي .ط ٣ . سنة ١٩٥١.

١٣. السيوطي –(عبد الرحمن) والمحلي (جلال الدين محمد بن أحمد)– تفسير الجلالين –المطبعة اليوسفية بمصر ١٩٦٧.
١٤. السيوطي –لباب النقول في أسباب النزول–مطبعة البابي الحلبي بمصر. ط ٢ . سنة ١٩٥٤.
١٥. السيوطي – نظم العقيان في أعيان الاعيان–مكتبة المثنى ببغداد بالاوفست عن طبعة المطبعة السورية الامريكية بنيويورك.
١٦. الصاوى (أحمد) –حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين–مطبعة الاستقامة .القاهرة ،سنة ١٩٥٦.
١٧. الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)–جامع البيان في تفسير القرآن–دار المعرفة ،بيروت ط٢ بالاوفست ١٩٧٢ عن طبعة بولاق.
١٨. الطوسي (أبو جعفر محمد بن الحسن) –التبيان في تفسير القرآن –طبعة النجف ،١٩٥٦.
١٩. عطية الله (أحمد)–القاموس الاسلامي – الناشر مكتبة النهضة بمصر، ١٩٦٣.
٢٠. الفيروز آبادي (مجدالدين محمد بن يعقوب)–القاموس المحيط والقابوس الوسيط دار العلم .بيروت .
٢١. القيسي (الشيخ قاسم) –تأريخ التفسير–مطبعة المجمع العلمي العراقي. سنة ١٩٦٦.
٢٢. المنذرى (أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى)–الترغيب والترهيب– تحقيق محيي الدين عبد الحميد . ط ١،سنة ١٩٦٠.

دوائر المعارف والمجلات:

٢٣. دائرة المعارف الاسلامية –ترجمة محمد ثابت الفندى وجماعته.صورة بالاوفست لطبعة سنة ١٩٣٣،طهران.
٢٤. رسالة الاسلام ،مجلة كلية أصول الدين ببغداد، العددان ٣و٤،سنة ١٩٧١م.

الدكتور عماد الدين خليل



الموصل بين عهدين :

إن العصر الذي سبق الحكم الأتابكي(١) للموصل، والذي يمكن تسميته بعهد ولاة السلاجقة، كان يتسم بخصائص عامة جعلته يختلف الى حد ما عن الحكم الاتابكي الذي أنشأه عمادالدين زنكي في الموصل عام ٥٢١هـ. ويبدو —من الناحية الظاهرية— ان كلا العهدين متمم للاخر، وان العهد الثاني انما هو أستمرار لسابقه من حيث طبيعة العلاقة بالسلطان السلجوقي الحاكم، حيث كان الأمراء في كلا العهدين يمارسون مهامهم الادارية نواباً عن السلاطين السلاجقة،

(١) على الرغم من أن عدداً من ولاة السلاجقة قبل زنكي كانوا تابكة أيضاً، حيث كلفوا بالاشراف على أبناء السلاطين الذين اديرت البلاد بأسمهم، الا أن معظم المؤرخين القدماء والمحدثين خصوا بلقب الاتابكة زنكي وابناءه من بعده وهو العهد الذي يطلق عليه أيضاً اسم (العهد الاتابكي).

ومن حيث الوقوف—قوة وضعفاً—بوجه الخطر الصليبي الزاحف. ولكننا اذا ما تفحصنا طبيعة الحكم في كلا العهدين بدقة فسنجد بينهما تفاوتاً واضحاً، سواء في علاقاتهما الخارجية أم في سياستهما الداخلية.

وأول ما يلاحظ في هذا المجال، أن الولاة كانوا على اتصال مباشر بالسلطان السلجوقي، يوجههم كيف يشاء، ويعزلهم متى اراد. حتى لو اضطره الامر الى استخدام القوة ضد من تحدثه نفسه بالسعي الى الاستقلال بمناطق ولايته، ورفض الارتباط المباشر بالسلطان. اما في العهد الاتابكي فقد غدا امراء الموصل على درجة كبيرة من الاستقلال والتمتع بالسلطة الفعلية، ولم يبق للسلطان السلجوقي سوى السلطة الرسمية والشكلية، وابرز مثل على ذلك هو استقرار النظام الوراثي في الحكم في اعقاب عماد الدين زنكي بحيث لم تعد للسلطان أية مشيئة في عزل أحدهم، او إصدار أوامره لوال جديد بالتوجه الى الموصل. واستلام ادارتها، كما كان الحال في السابق.

وإذ كان الولاة معرضين دائماً—نتيجة ارتباطهم المباشر بالسلطان—للإقالة والعزل من جهة ولتلقي الاوامر بالتوجه الى الشام لقتال الصليبيين الذين كانوا يزحفون بسرعة صوب الشرق—من جهة أخرى؛ فقد غدت طبيعة ادارتهم وسياستهم الداخلية قلقة غير مستقرة، بحيث ان زنكي لدى استلامه مهام الحكم في الموصل لم يجد ثمة جهازاً واضحاً للادارتين المحلية والعامة في مختلف المجالات، فقام هو بإنشاء جهاز إداري متكامل. كما انه وجد تدهوراً في النشاط العمراني، وخراباً شمل مناطق واسعة من الموصل، حتى أن الناس لم يكونوا يستطيعون الذهاب الى الجامع—فيما عدا يوم الجمعة—بسبب بعده عن المناطق السكنية(٢).

وهذا يشير الى عدم اهتمام معظم ولاة السلاجقة بإعادة أعمار المناطق التي استولى الخراب عليها على الرغم من انتشارها في قلب المدينة؛ وظل الامر كذلك حتى مجيء زنكي وقيامه بإصلاحات مهمة في هذا المجال.

(٢) ابن الاثير: الباهر ص٧٧، الكامل ١١/٤٥، ابو شامة: الروضتين ١/١١٠.

،ما الناحية الاقتصادية،حيث تعد الزراعة الأساس الرئيس لاقتصاديات المنطقة بناء على موقعها ،وطبيعة مناخها،ووفرة مياهها،فقد أصيبت هي الاخرى بالتدهور في هذا العهد.وغدت أقل البلاد فاكهة–كما يشير ابن الاثير–: قل عنبها حتى كاد ينعدم،وتقلص انتاج الرمان والكمثرى والتفاح الى حد كبير(٣) ولم تتطرق المصادر الى وضعية زراعة الحبوب،ولا الى بقية الفعاليات الاقتصادية الاخرى كالتجارة والصناعات المحلية.واذا ما عرفنا مدى ارتباط النشاط الاقتصادي بالحركة العمرانية،بدا واضحاً تأخر الموصل في هذا المضمار كتأخرها في العمران،خاصة بعد افتقاد الأمن في المنطقة الى حد غدا معه ايا من سكان المدينة لا يستطيع الابتعاد كثيراً عنها الا ومعه من يحميه(٤).ولعب العيارون وقطاع الطرق–الذين تعدى نشاطهم مدينة بغداد–دوراً كبيراً في افتقاد الأمن وتدهور التجارة،حيث قاموا–في هذه الفترة–بأعمال التمرد والاستيلاء على السفن التجارية القادمة من الموصل صوب بغداد وبالعكس(٥).

فإذا ما أضيف الى ذلك ظلم بعض ولاة السلاجقة،الذين تسلموا حكم الموصل بأساليب العنف،وإتاحة الفرصة للأقوياء بظلم الضعفاء،وعدم استقرار أي وال مدة كافية من الزمن يستطيع–معها–ان يتفهم مشاكل المدينة وما يحيطها، واحتياجات سكانها،من أجل أن يقوم بإحداث إصلاحات جدية–كما فعل زنكي فيما بعد–فضلا عن الخطر الصليبي الذي كان يتهدد جميع المواقع غربي الموصل،وانهماك الولاة بإيقاف هذا الخطر،والقلق الذي سيطر على السكان(٦) إستطعنا أن ندرك مدى تدهور الحالة الاقتصادية،حتى لقد ارتفعت الاسعار في بعض السنين،في المنطقة وهلك كثير من ضعاف الناس جوعاً.(٧)

---

(٣) ابن الاثير: الباهر ص٧٨،الكامل ١١/٤٥ .

(٤) الكامل: ١١/٤٥ .

(٥) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والامم،ج٩ص٢١٦.

(٦) الكامل: ١١/٤٥.

(٧) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٢١٢ .

ومما زاد في تقلص النشاط التجاري، في المنطقة، ما كان التجار والمسافرون يتعرضون له من تهديد الصليبيين وهجماتهم على القوافل التجارية، بحيث لم يكن أحد من هؤلاء التجار يبحث عن طريق غير مسلوك هرباً من الصليبيين، حتى يجد نفسه معرضاً للخطر من قبل البدو المنتشرين في المنطقة. ولم يستطع حكام المسلمين الحد من هذه المخاطر لانشغالهم بالمنازعات والحروب فيما بينهم.

وكانت هناك ظاهرة (التحكم) التي اتسمت بها هذه المرحلة التاريخية، أكثر من أي وقت مضى، والتي نجمت عن رغبة كل أمير في الاستقلال بمدينته أو قلعته، مهما كانت تافهة صغيرة، وإقامة إمارة تتمتع باستقلال ذاتي، واتخاذ الالقاب المختلفة. وكان استفحال هذه الظاهرة يقف حائلا دون توسع اية امارة وبلوغها درجة من التمكن العسكري والاقتصادي. وقد أثر هذا بطبيعة الحال على موارد الموصل واقتصادياتها، إذ اقتطعت معظم المواقع والقلاع التابعة للموصل من قبل الامراء الطموحين، وما تبقى مما يعود للسلطنة السلجوقية عانى من ظاهرة أخرى هي الاقطاع، حيث اقطع مغظمه، حتى أن السلطان محمود السلجوقي نفسه لم يكن له أعمال وبطل ديوانه، إذ لم يبق للديوان من عمل سوى مصادرة اموال ذوي اليسار (٨).

وإزاء ذلك تفنن الأمراء المحليون في فرض الضرائب الكيفية على الأهالي، وكانت (المكوس) اهم هذه الضرائب وكانت تعتبر — آنذاك — علامة الظلم، حتى أن السلطان محمد — لدى وصوله بغداد عام ٥٠١ هـ — قام بمحاولة للتقرب الى رعيته، فأمر برفع المكوس وإبطال رسومها عن التجار والمسافرين في جميع بلاده، وحظر على عماله وموظفيه تناول اليسير منها. ولكنه ما أن عاد الى أصفهان حتى طمع كبار الأمراء والموظفين بالتجار، واستأنفوا فرض المكوس عليهم مخالفين بذلك أوامر السلطان السلجوقي، لولا أن هذا أكد أوامره من جديد في إبطال تلك الضريبة، وحذر من مخالفته في سائر البلاد (٩).

(٨) عمادالدين الاصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق (أختصره البنداري) ص١٢٣
(٩) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص١٦٢، ابو الفدا: المختصر ١٤٩/٤.

وكانت الموصل والبلاد المجاورة تعاني من هذه الضريبة وغيرها، بدليل أنها استمرت في عهد زنكي، ولم ترفع نهائياً الا في عهد ابنه نورالدين محمود عام ٥٦٧هـ، وكانت هذه الضريبة قد بلغت في مدينة الموصل مقداراً كبيراً(١٠) هذا فضلا عن الضرائب الثابتة كالجزية والخراج والتي كانت –في كثير من الأحيان تذهب لصالح الولاة(١١).

وقد أثرت هذه العوامل جميعاً، وأدت الى وقف تزايد سكان الموصل، وعدم اتساع دائرتهم السكنية. وقد استمرت الامور تجري على هذا المنوال طيلة عهد الولاة، ولم يحدث تبدل واضح الا بعد مجيء زنكي، حيث عمر البلاد، فامتلأت أهلا وسكاناً(١٢)، وبدأت الموصل تشهد هجرة اليها من المناطق الاخرى(١٣) مما أدى الى تحويل المدينة قليلة السكان، الى عاصمة لأقوى إمارة شهدها الربع الثاني من القرن السادس الهجري.

ولم تتمتع الموصل في عهد الولاة باستقلال عسكري يذكر، بل على العكس، كانت في هذه الفترة قاعدة للتحركات العسكرية بأمر السلاجقة سواء للاسهام في الصراع بين السلاطين من أجل الحكم او لقتال الصليبيين ووقف خطرهم الزاحف. وقد حققت الموصل في كلتا الحالتين نتائج هامة.

ثم تأتي الناحية السياسية، فاذا بالموصل –في هذا العهد– تخطب رسمياً للسلاجقة، تارة للسلطان السلجوقي في أصفهان وبغداد، وتارة أخرى لسلطان المناطق الشمالية والشرقية من الدولة السلجوقية، حسب الاتفاق بين السلاطين المتنازعين(١٤). ولم يقف الامر عند حد العلاقة الرسمية بل تعداه الى الناحية الفعلية، حيث كانت

---

(١٠) انظر ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ١/٢٧٥–٢٧٦ (للاطلاع على اصلاحات نورالدين زنكي المالية). وانظر أيضاً ابن الاثير: الباهر ص١٥٤، الكامل ١١/١٤٧

(١١) ابن الجوزي: المنتظم ٩/١١٢.

(١٢) ابن الاثير: الكامل ١١/٤٥

(١٣) ابن الاثير: الباهر ص٧٧

(١٤) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ٨/٨، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٧٨.

الموصل تخضع تارة لسلطان فارس والعراق، وتارة أخرى تغدو ضمن أقطاعات الملك السلجوقي الحاكم في الجهات الشمالية من بلاد فارس والعراق والشام. ففي الصراع الذي جرى بين السلطان محمود وبين عمه سنجر—سلطان خراسان وما وراء النهر—والذي انتهى بانهزام محمود وتنازله لعمه، رأى هذا ان يكرم أخيه، فأقطعه من البلاد الجهات الشمالية من بلاد فارس والعراق والشام، وبضمنها منطقة الموصل والجزيرة، وأصدر سنجر منشوراً بذلك(١٥).



(١٥) أبو شامة، الروضتين ١/٧١.

كربوقا: السياسة الداخلية:

اشتهر ولاة الموصل، ولمعت أسماء معظمهم في هذا العهد، ليس بسبب جهادهم ضد الصليبيين فحسب، بل لأنهم لعبوا دوراً هاماً في الصراع المستمر بين سلاطين وملوك السلاجقة، كما قام بعض هؤلاء الولاة بنشاط واسع في المنطقة، وإنشاء علاقات مختلفة مع أصحاب الامارات الكثيرة المنتشرة في هذه الجهات. والوالي السلجوقي الاول الذي شهدته الموصل بعد سقوط آخر أمير عقيلي هو قوام الدولة أبو سعيد كربوقا او (كربوغا)، حيث أرسل السلطان بركياروق عام ٤٨٩هـ=١٠٩٥ م رسوله الى رضوان بن تتش السلجوقي أمير حلب بإطلاق سراح كربوقا وأخيه التونتاش من السجن. وكان هذان محبوسين منذ ما يقرب من سنة بسبب موقفهما من الصراع بين تتش حاكم الشام السلجوقي وبين السلطان بركياروق الذي اراد تتش انتزاع السلطة منه. ولما قتل تتش واستولى ابنه رضوان على حلب أبقى كربوقا وأخاه في السجن لحين ورود امر بركياروق بإطلاق سراحهما. وما أن غادرا السجن حتى استطاعا - كعادة قادة التركمان في تلك الفترة - أن يجمعا حولهما الكثير من الجند الذين لم يكن لهم من عمل آنذاك، وتقدما الى حران واستوليا عليها، وعند ذلك كاتبهما محمد بن شرف الدولة العقيلي من نصيبين يستنجد بهما على أخيه علي بن شرف الدولة، الذي كان تتش قد عينه على الموصل اثر استيلائه عليها. فتوجه كربوقا وأخوه الى نصيبين، حيث استقبلهما محمد عند اسوارها واستحلفهما لنفسه، ولكن كربوقا سرعان ما نقض الحلف وقبض على حليفه وتقدم الى نصيبين مؤملا الاستيلاء عليها عن طريق التهديد بأميرها الأسير. الا أن نصيبين امتنعت عليه، فحاصرها أربعين يوماً، وتمكن أخيراً من الاستيلاء عليها. ثم أتجه - بعد ذلك - الى الموصل وضرب حولها الحصار الا انه لم يحقق أي نتيجة فتركها باتجاه (بلد) شمالي الموصل، حيث قتل محمد بن شرف الدولة والقى جثته في نهر دجلة، ثم عاد الى الموصل ثانية ليحاصرها من جديد. وسرعان ما استنجد علي

بن شرف الدولة بالأمير شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر شمالي الموصل،فاستجاب هذا لنجدته،وتقدم لقتال قوات كربوقا وأخيه، الا أنه انهزم عائداً الى جزيرة ابن عمر.ولم يلبث كربوقا ان استماله،واتخذه حليفاً له ضد الموصل(١).

اشتد الحصار على الموصل،وانعدمت الاقوات ومواد الوقود،مما اضطر الاهالي الى ايقاد القير وحب القطن.فلما ضاق الامر بصاحبها علي تركها وتسلل خارجاً صوب الحلة مستجيراً بالأمير صدقة بن مزيد هناك.ومن ثم استولى كربوقا على الموصل بعد حصار دام تسعة أشهر.وعم الخوف أهالي المدينة لانتشار شائعات مفادها أن أخاه التونتاش يسعى لنهبهم،وان كربوقا يقف حائلا دون ذلك مما اضطر التونتاش الى القاء القبض على أعيان البلد ومطالبتهم بالودائع والأموال التي جمعوها خلال الحصار،واستطال التونتاش على أخيه،فرأى هذا نفسه مضطراً الى اصدار امره بقتله،فقتل التونتاش في اليوم الثالث من الاستيلاء على المدينة وتخلص السكان من تجبره.ومن ثم أحسن كربوقا السيرة في أهالي الموصل.ولم يكتف بما حققه من نصر بل سعى لتحقيق انتصارات أخرى،فتوجه صوب الرحبة(على شاطىء الفرات أسفل قرقيسيا)للاستيلاء عليها فصمدت له،الا أنه تمكن أخيراً من الاستيلاء عليها ونهبها وتعيين نائب له فيها،وعاد الى الموصل(٢).وتمكن بعد فترة قصيرة من الاستيلاء على ماردين —أهم موقع في ديار بكر شمالي الجزيرة—فامتدت أطراف إمارته،وعظم شأنه،

---

(١) ابن الاثير: الكامل ٩٦/١٠،الباهر ص١٥،ابو شامة: الروضتين١/٦٧،ابن واصل: مفرج الكروب ٢٨/١،ابو الفدا: المختصر ١٢٢/٤-١٢٣،الذهبي: العبر في خبر من غبر ٣٢٤/٣،ابن كثير: البداية والنهاية ١٩٥/١٢،ابن خلدون: تاريخ٥/١٧،ولا تقدم لنا المصادر،آنفةالذكر،شيئاً مفصلا عن شخصية كربوقا أو ماضيه سوى الإشارة الى أنه كان من قادة السلطان السلجوقي بركياروق وأن هذا ارسله الى الشام عام٤٨٧هـ لإسناد آق سنقر،حاكم حلب،ضدعمه تاج الدولة تتش،لدى ثورته ضد بركياروق المطالبة بالسلطنة لنفسه.

(٢) انظر مصادر الهامش السابق.

خاصة وانه كان ينوب عن الساطان السلجوقي بركياروق في المنطقة ويعلن له الطاعة(٣).

لعب كربوقا دوراً مهماً في تربية الأمير عمادالدين زنكي والعناية به—إذ كان كربوقا من مماليك ابي زنكي: قسيم الدولة اق سنقر حاكم حلب ٤٧٩—٤٨٧هـ، فلم ينس فضله عليه، فاستدعى مماليك اق سنقر وطلب منهم إحضار زنكي بين يديه قائلا لهم: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته. فأحضروه عنده لكي يشرف بنفسه على تربيته، فضلا عن أنه استعان في حروبه بمماليك أبيه آق سنقر، الذين كانوا يمتازون بالشجاعة والاقدام، وأقطعهم الاقطاعات الواسعة(٤)، وقد كان لهؤلاء المماليك دور مهم في المعارك التي خاضها كربوقا ضد بعض المواقع في ديار بكر(٥).

أسهم كربوقا على نطاق واسع في الصراع الذي كان يدور باستمرار بين سلاطين السلاجقة وملوكهم من أجل الاستئثار بالحكم، او الحصول على مزيد من المواقع. ولم يتخذ كربوقا موقفاً واحداً إزاء هذا الصراع، وإنما كان ينتقل من معسكر الى آخر باحثاً عن السلطان المنتصر لينضم اليه ويعمل تحت لوائه، ولعل مايبرر موقفه المتأرجح هذا كونه تابعاً للسلاجقة يأتمر بأمرهم، فكان لابد له من إطاعة السلطان الأقوى لكيلا ينال عقاب المتمردين.

وقد شهد عام ٤٩٢هـ=١٠٩٩م، إحدى جولات الصراع بين السلطانين محمد، الذي كان يحكم الجهات الشمالية من الدولة السلجوقية، وبركياروق سلطان فارس والعراق، وانضم كربوقا الى محمد فيمن انضم اليه من أمراء الأطراف، وشعر محمد بمدى قوته، فأرسل الى بغداد يطلب أن يخطب له فيها، فتم له ما أراد، وخطب له على منابرها في السابع عشر من ذي الحجة عام

(٣) ابن الاثير: الباهر ص١٥ .
(٤) ابن الاثير: الباهر ص١٥—١٦.
(٥) المصدر السابق: نفس الصفحة، الكامل: ١٠/١٤٦، أبو شامة: الروضتين ١/٧.

٤٩٢هـ(٦)،وفي العام التالي أخذ بركياروق يتراجع في بلاد فارس ازاء تقدم أخيه محمد،وعندما اجتمع حوله عدد من الامراء والاجناد سعى للقاء أخيه، ودارت المعركة بينهما في الثالث من جمادى الاخرة عام ٤٩٤هـ=١١٠٠م، حيث انتصر بركياروق وانهزم محمد بعد أن تفرق عنه معظم عسكره.ولما فرغ بركياروق من هذه المعركة توجه الى الري.حيث اجتمع اليه هناك كربوقا وعدد من الأمراء.وصادف أن أعلن الملك السلجوقي مودود بن اسماعيل تمرده في أذربيجان،فوجه اليه بركياروق جيشاً قوامه عشرة الاف فارس عهد بقيادته الى كربوقا.وقد تقدم هذا صوب اذربيجان،وحقق مهمته بنجاح، حيث تمكن من الاستيلاء على معظمها،الا أن مرضه حال دون انجاز هذه المهمة،فأوصى بولاية الموصل لأحد امرائه المدعو(سنقرجه)وأمر الاتراك بطاعته وما لبث كربوقا ان توفي في ذي القعدة من عام ٤٩٥هـ=١١٠١م فتوجه سنقرجه على رأس قواته صوب الموصل،وتسلم مهام الحكم فيها(٧).

كان أعيان الموصل قدكاتبوا موسى التركماني،نائب كربوقا فيحصن كيفا (في أقليم ديار بكر)،وطلبوا منه أن يبادر اليهم ليسلموا اليه البلد،فأسرع هذا بالتوجه نحو الموصل،وعندما سمع(سنقرجه)بوصوله خرج مع أهالي البلد لاستقباله ظناً منه أنه جاء ليعلن له الطاعة،ويعمل تحت زعامته.وعند اللقاء جرى بين القائدين حوار تتضح من خلاله طبيعة علاقة الوالي بالسلطان السلجوقي، إذ بين سنقرجه لموسى التركماني:أن قصده من كل ما كان لكربوقا الولاية فحسب،أما الأموال والحكم الفعلي«فله وبحكمه»فكان جواب موسى انه لا أختيار لهما في هذه المسائل،إنما ذلك للسلطان يعين من يريد ويولي من يختار.

وأغلب الظن ان موسى أراد من خلال موقفه هذا تعزيز مركزه ضد سنقرجه بإضفاء طابع الطاعة للسلاجقة والأنقياد اليهم. ولم يطل الحديث بينهما بعد ذلك،

---

(٦) بو الفد:المختصر ١٢٧/٤.

(٧) ابن الاثير:الكامل ١١٢/١٠-١١٣،١٢٧-١٢٨،الباهر ص١٦،أبو الفداء:المختصر ١٣١/٤-١٣٢ ،ابن الوردي:تاريخ١٣/٢-١٤،ابن خلدون:تاريخ ٢٢/٥-٢٩،٣٠.

إذ حاول سنقرجة قتل موسى، ولكن المحاولة انقلبت عليه فقتل، وتوجه موسى الى الموصل، وأحسن الى أصحاب سنقرجة، ولم يلحق بهم أي عقاب إستمالة لهم، وخوفاً من استفزاز السلطان بروكياروق(٨).

السياسة الخارجية:

كربوقا والحملة الصليبية الاولى:

منذ الايام الاولى لوصول طلائع القوات الصليبية الى مشارف الجزيرة والشام، بدا أن ولاة الموصل السلاجقة سيلعبون دوراً حاسماً ازاء الخطر الجديد، نظراً لطبيعة موقعهم الحصين، بعيداً عن الأخطار المباشرة للهجوم الصليبي، ولكونهم يمثلون حلقة الوصل المباشرة بين القوى السلجوقية التي يتلقون اوامرهم منها، وبين الامارات الاسلامية المنتشرة في الجزيرة والشام، والتي وقع على عاتقها عبء التصدي للهجوم الجديد. لذا فانه ما أن رأى ياغي سيان صاحب أنطاكية أن مدينته غدت قاب قوسين او ادنى من الزحف الصليبي حتى كان كربوقا، حاكم الموصل(٤٨٩–٤٩٥) في مقدمة اولئك الأمراء الذين بعث يستنجد بهم لايقاف ذلك الزحف قبل ان تحل الكارثة بالمسلمين، ويجد اعداؤهم موطن قدم لهم في بلاد الشام.

ومنذ تلك اللحظة، وحتى ظهور عمادالدين زنكي عام ٥٢١هـ، وتأسيس إمارته الشهيرة في المنطقة، راح ولاةالموصل يدلون بدلوهم في مجرى الصراع العنيف الذي شهدته الجزيرة والشام، والذي شبت ناره بين المسلمين والصليبيين. وكان موقف أولئك الولاة يتراوح بين القوة والضعف، استناداً الى الظروف المرحلية التي كان الصراع يجتازها، والى طبيعة العلاقات المتغيرة، التي كانت تتحكم في كثير من الأحيان بسياسة الأمراء والحكام المسلمين. فكنا نجد بعض ولاة الموصل يأخذون على عاتقهم مهمة قيادة حركة الجهاد، وتجميع القوى الاسلامية لتحقيق هذا الغرض، ونجد بعضهم الاخر يكتفي بعقد محالفات

---

(٨) ابن الاثير: الكامل ١٠/١١٢–١١٣، ١٢٧–١٢٨، الباهر ١٦، أبو الفدا: المختصر، ٤/١٣١–١٣٢، ابن خلدون: تاريخ ٥/٢٩–٣٠، ٢١١.

متكافئة مع أمراء مسلمين آخرين للعمل المشترك ضد أعدائهم. كما كنا نجد فئة أخرى من الولاة لا يكتفون بالوقوف سلبيين ازاء ما يجرى من أحداث، بل أن أحدهم وهو (جاولي سقاو) سعى للتحالف مع الصليبيين انفسهم من أجل حماية نفسه من غضب السلطان السلجوقي وأنصاره، أو من أجل تحقيق مكسب شخصي جديد.

وفي كل الاحوال كان ولاة الموصل يمسكون بقلم الاحداث بقوة، ليرسموا لها تياراتها ومصائرها، فيما عدا تلك السنوات (٥١٣-٥١٨هـ) التي برز في المنطقة خلالها قادة الارتقة كقوة رائدة في ميدان الجهاد. وقد جاء ذلك في الوقت الذي كان بعض ولاة الموصل يجتازون خلاله سلسلة من المناورات والحروب السلجوقية، الامر الذي وضع الموصل في الظل، وعزلها فترة من الزمن عما كان يجري في الاراضي البعيدة عنها من صراع بين المسلمين والصليبيين.

ما أن تلقى كربوقا نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية، واستنجاد صاحبها به؛ حتى جمع قواته وتوجه صوب الفرات(١)، دون ان يتمهل لاستئذان السلطان السلجوقي في تحركه الذي قد يجر نتائج حاسمة على الدولة السلجوقية ذاتها. لكنه سرعان ما أضاع كسبه هذا لعامل الزمن عندما توقف أسابيع طوال عند أسوار الرها في محاولة لاجتياحها، وقد كان بلدوين قائد الحملة الصليبية في الجزيرة، لايزال في تل باشر (شمالي حلب) عندما قدمت اليه سفارة من الرها في مستهل السنة الجديدة (١٠٩٨م=٤٩١هـ) إذ أستبد القلق بتوروس الارمني حاكم الرها حول وصول الصليبيين، بعد أن شهد تمهلهم على الضفة الغربية لنهر الفرات. كان مركزه دائماً بالغ الحرج، إذ أرتاع لما بلغه من أنباء حشد كربوقا أمير الموصل المعروف بخطورته وشدته، جيشاً ضخماً، استعداداً لنجدة أنطاكية، وقدرته على ان يمحو في سهولة ويسر، الرها وسائر الامارات الارمنية الواقعة في طريقه. الا أن بلدوين لم يجازف بالذهاب الى الرها الا بالشروط التي تلائمه... واضطر توروس أخيراً الى اعلان تبنيه للقائد الصليبي واتخاذه وريثاً شرعياً وقسيماً له في حكم بلاده(٢).

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب ١/١٣-١٣٣؛ ابن الاثير: الكامل ١٠/١٠٢.
(٢) ستيفن رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٢٨٩ (ترجمة السيد الباز العريني)

لم يغب عن المسلمين عامة، وكربوقا على وجه الخصوص، حقيقة أن أمير الرها الصليبي الجديد سرعان ما غدا قوة لابد من الاهتمام بأمرها، لذا أجمعوا على تدميره قبل ان يستفحل خطره. ويتضح مدى عزم المسلمين على تحقيق هذا الهدف في توقف كربوقا عند أسوار الرها لدى مسيره لنجدة أنطاكية، وذلك للتخلص من بلدوين. ولم يتخل عن هدفه الا بعد ان ظل ثلاثة أسابيع يهاجم أسوار الرها دون جدوى. وأدى فشله الى ارتفاع مكانة بلدوين وهيبته، كما ان ما أضاعه كربوقا من وقت أنقذ الحملة الصليبية الأخرى التي كانت تستهدف أنطاكية آنذاك(٣).

أستانف كربوقا مسيره صوب أنطاكية، وما لبث السلاجقة أن أعلنوا عن مساندتهم له، ووعدوه بالمساعدة. وفي مرج دابق، «اجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب، فأجتمع معه دقاق حاكم دمشق، وأتابكه طغتكين وجناح الدولة صاحب حمص، وارسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن ارتق أحد أمراء الاراتقة، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم. فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم، وخافوا لما هم فيه من الوهن، وقلة الأقوات عندهم»(٤).

كان الصليبيون آنذاك قد أحكموا تطويق أنطاكية، وازاء ذلك حشد ياغي سيان داخل الحصن كل ما لديه من قوات، وعزز استحكامات المدينة الدفاعية، وشرع في توفير ما يكفيه من المؤن لحصار طويل. ولم يسع الصليبيون، وقد أحسوا

(٣) المصدر السابق ٢٩٩/١ (وانظر ابن العديم: زبدة الحلب ١٣٠/٢ حيث نجده يقدم رقماً مبالغاً فيه لقوات تلك الحملة اذ يقدرها بثلاثمائة وعشرين الف مقاتل. وتتضح هذه المبالغة اذا ما قارنا هذا بالرقم الذي اورده رنسمان عن عدد القوات الاسلامية-نقلا عن المصادر الفرنجية حيث يقول، والراجح ان جيش كربوقا بلغ عدده نحو ثلاثين الف رجل، غير انه ليس لدينا دليل قاطع. وكان بوسعه ان يبلغ من الكفاية في حصار انطاكية ما لم يبلغه الجيش الصليبي» تاريخ الحروب الصليبية ٢٨٩/١

(٤) ابن الاثير: الكامل ١٠٢/١٠، ابن العديم: زبدة الحلب ١٣٣/٢، ابن تغرى: النجوم الزاهرة ١٤٧/٥-١٤٨.

باحتمال وقوعهم بين شقي الرحى: ياغي سيان من الداخل وكربوقا وحلفاؤه من الخارج، الا أن يعززوا هجومهم بالقيام بنشاط سياسي واسع النطاق استهدف تمزيق وحدة المسلمين وكسب بعض قادتهم. فدخلوا في مفاوضات مباشرة مع الفاطميين حصلوا من خلالها على عدد من النتائج المهمة لصالحهم. بعد أن وعدهم حلفاؤهم الجدد بالعمل سوية من أجل أقتسام بلاد الشام. كما أنهم بعثوا الى دقاق أمير دمشق يطلبون منه التزام الحياد، وأعلموه بأنهم لم يتخذوا خططاً لمهاجمة بلاده. الا أن دقاق لم يستجب لرغباتهم نظراً لرجوع أخيه ومنافسه رضوان حاكم حلب الى سابق حياده(٥).

ظل ياغي سيان صامداً في أنطاكية، رغم ما تعرض له من ضغط شديد. وازداد التوتر بين الصليبيين، إذ أدركوا أنهم ما لم يستولوا أولا وقبل كل شيء على المدينة فسوف يجري تحطيمهم لوقوعهم بين حامية المدينة والجيش الضخم القادم لانقاذها، وبعثوا الى الامبراطور البيزنطي الكسيوس نداءاً حاراً يلتمسون نجدتهم. واستبد القلق والضيق ببوهمند بصفة خاصة، لحرصه وعزمه على أستخلاص أنطاكية لنفسه، فإذا ما حدث ووصل الامبراطور قبل سقوطها. أو إذا لم يتيسر هزيمة كربوقا الا بمساعدة الامبراطور، صار من المستحيل الامتناع عن رد أنطاكية الى الامبراطورية البيزنطية. على ان ما ارتكبه كربوقا من أخطاء في التقدير، هيأ للحملة الصليبية الفرصة للتنفس والراحة. إذ لم يشأ كربوقا- كما رأينا- أن يزحف على أنطاكية ومن خلفه جيش صليبي في الرها يهدد جناحه الأيمن. ولم يدرك ان بلدوين، أمير الرها، بلغ من شدة الضعف أن غدا ليس بوسعه القيام بالهجوم، بل اعتقد انه بلغ من القوة في حصنه المنيع ما لا يسهل طرده منه. ولم يقرر كربوقا أن ما بذله من جهد، وأنفقه من وقت. إنما ضاع سدى، الا بعد أن أمضى الأسابيع الثلاثة الأخيرة امام الرها يحاول عبثا مهاجمة أسوارها. وفي أثناء تلك الاسابيع الثلاثة القيمة أمعن بوهمند في

---

(٥) رنسمان ٣٢٦/١

العمل واستطاع ان يوطد صلته بأحد القادة داخل مدينة أنطاكية وأسمه فيروز وهو ليس الا أرمنياً أعتنق الاسلام وارتقى الى وظيفة عالية في حكومة ياغي سيان. وعلى الرغم من تظاهره بالولاء لسيده، فانه كان شديد الحقد والبغضاء له، لانه فرض عليه أخيراً غرامة لاختزانه القمح. فاتصل فيروز باخوانه السابقين في الدين (الارمن) وعن طريقهم وصل الى تفاهم مع بوهمند، ووافق بمقتضاه على أن يبيع المدينة له. على أن سر الصفقة ظل محفوظاً، فلم يبح به بوهمند لأحد، بل أنه بدلا من ذلك صار يؤكد علناً ما سوف يواجه الصليبيين من أخطار، كيما يزيد من قيمة انتصاره المقبل(٦).

أخذت قوات كربوقا تقترب من أنطاكية شيئاً فشيئاً، وأخذ الذعر يسود معسكر الصليبيين؛ وصار يتسلل منه عساكر بلغت من كثرة العدد انه غدا من العبث محاولة منعهم. وكان بضمنهم ستيفن بلوا قائد جماعة كبيرة من عساكر شمال فرنسا. الا أن مؤامرة فيروز ما لبث أن أتت أكلها، واثالت قوات الصليبيين — وفق خطة متفق عليها — الى داخل المدينة، حيث ساعدهم المسيحيون والارمن المحليون، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين، واضطر ياغي سيان الى الفرار، حيث قتله احد الارمن أثناء سقوطه عن فرسه في احدى المرتفعات. أما ابنه شمس الدولة فقد لجأ الى القلعة واعتصم بها. ولم يفلح الهجوم الذي شنه بوهمند على القلعة، وأعقبه بما هو أسهل، حيث راح وقواته ينهبون شوارع المدينة ويستبيحونها. حتى لم يبق في أنطاكية من الترك أحد من الأحياء يجرؤ على الظهور.. وعادت أنطاكية مسيحية مرة أخرى. وما أن وصل الى البلاد المجاورة خبر الفوضى والخراب الذين حلا بأنطاكية اثر دخول الصليبيين، حتى هرب المسلمون منها وتسلمها الارمن(٧).

---

(٦) المصدر السابق ٣٢٧/١–٣٢٩؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص١٣٥؛ ابن العديم: زبدة الحلب ١٣٣/٢–١٣٥.

(٧) رنسمان ٣٢٩/١–٣٣٤
ابن القلانسي: المصدر السابق ص١٣٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية ١٥٦/١٢.

ما ان علم كربوقا وحلفاؤه بنبأ استيلاء الصليبيين على أنطاكية، حتى غادروا مواقعهم في مرج دابق، واتجهوا الى ارتاح على طريق أنطاكية، وانطلق بعضهم الى جسر الحديد–شمال شرق أنطاكية–وقتلوا من كان معسكراً فيه من الصليبيين. وما لبث القوات الاسلامية أن عسكرت قريباً من أسوار أنطاكية في السادس من رجب، فانسحب من كان مقيماً بظاهر البلد من الصليبيين الى الداخل، واكتشف المسلمون أن القلعة لا زالت مستعصية على الغزاة(٨).

جابه الصليبيون إثر دخولهم المدينة مشاكل عدة أهمها: لمن تكون أنطاكية؟ ولكنهم لم يكن لديهم اول الأمر وقت لمناقشة ذلك، إذ كان كربوقا يزحف بجيوشه، ولابد من الدفاع عن المدينة ازاء الهجوم الحادث. ومهما وضع بوهمند من خطط، فالواقع انه لم يتوافر له من العساكر ما يكفي لحراسة الأسوار، الا بمساعدة رفاقه، فالتزم كل واحد منهم بالدفاع عن قطاع من الاستحكامات. والواضح ان الصليبيين استطاعوا ان يستقروا في المدينة قبيل قدوم كربوقا. وما ان القى هذا القائد رحاله عند الاسوار حتى بادر شمس الدولة بن ياغي سيان بان بعث اليه من القلعة يطلب منه المساعدة. غير أن كربوقا أصر على انه لابد لعساكره ان يحوزوا القلعة. والتمس منه شمس الدولة ان يحتفظ بالقيادة، حتى يتم استرداد المدينة، غير ان توسلاته ضاعت سدى، فلم يسعه الا ان يسلم الحصن وكل مخازنه الى نائب كربوقا الأمين أحمد بن مروان(٩).

ما لبث المسلمون ان بدأوا القتال بأن شنوا هجوماً على البلد من ناحية القلعة، استهدف كربوقا من ورائه النفاذ الى البلد عن طريق القلعة. وقاتل المسلمون الصليبيين «الذين أشرفوا على التلف» الامر الذي دفعهم الى بناء سور لمنع أتصال القلعة بأستحكامات المدينة، وصد محاولات المسلمين لاستغلال نقطة الضعف هذه والتسرب الى المدينة(١٠). وما لبث أحمد بن مروان أن قام باختبار هذا

---

(٨) ابن العديم: زبدة ١٣٦/٢.
(٩) رنسمان ٣٣٦/١–٣٣٧، ابن العديم: زبدة ١٣٦/٢–١٣٧.
(١٠) ابن العديم: زبدة ١٣٦/٢–١٣٧، رنسمان ٣٣٧/١.

القطاع وبادر بتوجيه هجومه عليه.وكاد يتغلب على الصليبيين.غير انهم استطاعوا آخر الامر ان يردوه على أعقابه وان يكبدوه خسائر فادحة.على ان كربوقا قرر اثر ذلك ان من دواعي الاقتصاد في النفقات ان يضيق الخناق على اعدائه ويشتد في حصارهم،ثم يوجه اليهم ضربته حين يضعفهم الجوع.ومن ثم تحرك كي يتم تطويق المدينة،وحاول الصليبيون ان يمنعوه من ذلك.فقاموا بهجوم عنيف ضده،غير أنهم لم يلبثوا ان ارتدوا واحتموا بالاسوار(١١).

استبد بالصليبيين القنوط واليأس،بعد أن فشلت جهودهم،فالروح المعنوية التي ارتفعت منذ اسبوع بالاستيلاء على المدينة،لم تلبث ان هوت الى أحط درك. أخذ الطعام ينفد من جديد،وغلت الاسعار غلاء فاحشاً.واضطر الجند الى أكل الميتات(١٢)..وظن عدد كبير من الفرسان ان ستيفن بلوا.القائد الفرنسي لم يتخذ بفراره الا أحسن السبل وأسلمها،فتسللوا الى البحر هم الاخرون..واعتقد الامبراطور البيزنطي الكسيوس.انه إذا ما استولى الترك على أنطاكية،وهلك الصليبيون فمن المحقق ان الترك سوف يمضون في الهجوم.ولاشك ان السلاجقة سوف يحاولون استرداد ما فقدوه من الاراضي.وسوف يساندهم كل العالم التركي المظفر من ورائهم.ومن ثم قفل عائداً الى الشمال مكتفياً بما استولى عليه من أراضي الترك هناك(١٣).

واصل كربوقا-خلال ذلك-ضغطه على أنطاكية،وقام بهجوم مفاجيء كاد يجعله يستولي على احد الحصنين المقامين على السور الواقع جهة الجنوب الغربي من المدينة،ولم يحفظ هذا الحصن الا بسالة ثلاثة من فرسانه(١٤).

ما لبثت اسطورة الحربة المقدسة ان راجت في معسكرات الصليبيين،فرفعت من روحهم المعنوية،في وقت كانوا فيه على وشك الاستسلام لليأس الكامل.

---

(١١) رنسمان ١/٣٣٨-٣٣٩ .

(١٢) المصدر السابق ١/٣٣٨-٣٣٩،ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦-١٣٧،ابن كثير: الكامل ١٠/١٠٣

(١٣) رنسمان ١/٣٣٨-٣٤١

(١٤) رنسمان ١/٣٤٢-٣٤٣ .

فقد ادعى بطرس بارثولوميو احد الخدام الذين قدموا مع الحملة الصليبية : انه شاهد حلماً عن موضع الحربة التي اخترقت جنب المسيح عليه السلام. وقصها على الأمراء الصليبيين، ففتشوا عنها ووجدوها في ذات المكان الذي كان قد وضعهابطرس نفسه فيه.. يقول ابن الاثير «وكان مع الفرنج راهب مطاع فيهم، وكان داهية من الرجال، فقال لهم ان المسيح (عليه السلام) كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فان وجدتموها فانكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك محقق. وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفا على أثرها وأمرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة ايام. فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الأماكن. فوجدوها كما ذكر، فقال لهم ابشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين» (١٥). ومن ثم أعلن بوهمند ان الخطة الوحيدة أمام الصليبيين هي انه لابد لهم من القيام بهجوم شامل على معسكر كربوقا. وبينما ازداد الصليبيون معنوية وتماسكاً واملا. اخذ حلف كربوقا يتعرض لتمزق خطير بسبب عدم مرونته من جهة. والاحقاد الشخصية التي تناوشت حلفاءه، وما رافقها من شكوك، من جهة أخرى.

فعندما كانت رسل رضوان امير حلب تترى على كربوقا، امتلأ قلب أخيه وغريمه دقاق غيظاً، وتوهم ان هذه الاتصالات تستهدفه شخصياً، فضلا عن انه كان يحرص على مغادرة أنطاكية والعودة الى الجنوب بسبب اعتداء الفاطميين على فلسطين. وكان هناك عداءاً سرياً مستحكماً بين اميري حمص ومنبج، استحال معه حدوث اي تعاون أو تنسيق بين قواتهما. وحدثت منافرات بين الترك، وبين العرب التابعين للامير العربي، وثاب بن محمود، انسحبوا على أثرها، كما تفرق كثير من الترك بتحريض من رضوان (١٦). «واساء كربوقا السيرة

(١٥) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٠٣، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص١٩٦-١٩٧. انظر التفاصيل الدقية لقصة الحرب المقدسة في : رنسمان ١/٣٤٣-٣٤٨، وانظر مناقشة هذا الادعاء وتفنيده : نفس المصدر ١/٣٤٩).

(١٦) ابن العديم : زبدة ٢/١٣٦-١٣٧، رنسمان ١/٣٥٠

فيمن معه من المسلمين،واغضب الامراء وتكبر عليهم ظناً منه انهم يقيمون معه على هذه الحال،فأغضبهم ذلك وأضمروا له في انفسهم الغدر اذا كان القتال»(١٧)،وإذاكنا نستطيع التماس بعض الاعذار لتصرفات كربوقا الذي سعى الى استغلال سلطته،واستخدام اساليب الشدة من اجل تماسك حلفه، الا أننا لا يمكن ان نجد أي عذر لتصرفات سائر حلفائه من الأمراء الذين نسوا هدفهم المشترك،ولم تكن تهمهم في تلك الساعات الحرجة سوى مصالحهم الخاصة،وشفاء أحقادهم المتأصلة.

لم تكن متاعب كربوقا مجهولة لدى قادة الصليبيين الذين حاولوا ان يحملوه على التخلي عن الحصار.فأنفذوا الى معسكره سفارة مؤلفة من بطرس الناسك وفرنجي يدعى هيرلوين يجيد الحديث باللغتين العربية والفارسية.ولا نعلم شيئاً عن الشروط التي كلف بطرس بعرضها.إذ أن ما أجراه المؤرخون المتأخرون من الاحاديث على لسان بطرس وكربوقا يعتبر من نسيج الخيال.ولعل من الاقتراحات ما اورده أولئك من انه قد يحسم الموقف القيام بسلسلة من المبارزات الفردية.الا أن كربوقا ظل مصراً على وجوب استسلام الصليبيين دون قيد او شرط على الرغم من تزايد ضعف جيشه(١٨)وقال للسفراء«لا تخرجون الا بالسيف»(١٩)وهكذا خسر كربوقا هذه الفرصة الثمينة،وعادت السفارة دون ان تتوصل الى شيء.غير أنه في أثناء قيامها بمهمتها وقف هيرلوين،فيما يبدو، على معلومات بالغة الاهمية عن مجرى الامور في المعسكر التركي.وإذ فشلت السفارة غدا لا مفر من القتال...عبأ بوهمند قواته للقتال حيث قسمهم الى ستة جيوش،وللمحافظة على القلعة ومراقبتها تقرر إبقاء مائتي عسكري بالمدينة يتولى قيادتهم ريموند من فراش مرضه.(٢٠)

(١٧) ابن الاثير:الكامل ١٠/١٠٢

(١٨) رنسمان،١/٣٥١ .

(١٩) ابن الاثير:الكامل ١٠/١٠٣ .

(٢٠) رنسمان ١/٣٥١-٣٥٢ .

ما أن بدأ الصليبيون يتسللون فرادى الى خارج أسوار أنطاكية، على مرأى من قوات المسلمين حتى تقدم القائد العربي وثاب بن محمود، وعدد من قادة المسلمين الى كربوقا وقالوا له: «ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فان امرهم الان وهم متفرقون سهل» فأجابهم قائلا: «لا تفعلوا، امهلوهم حتى يتكامل خروجهم، فنقتلهم»، ومن ثم اصدر أمراً يمنع فيه قواته من معاجلتهم. وعندما قام جماعة من قواته بقتل بعض الخارجين من الفرنج، جاء اليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم، معتقداً ان بإمكان المسلمين إنزال ضربة ماحقة بأعدائهم في اللحظة التي يتم فيها خروجهم من أنطاكية(٢١) فضلا عن انه خشي: إذا ما أسرع بقتالهم، ان لا يتمكن سوى من سحق مقدمتهم. أما اذا انتظر فانه سوف يتخلص بضربة واحدة من كل القوات الصليبية. وتبين له من سلوك عساكره انه سوف لايتحمل استمرار الحصار المرهق زمناً طويلا. على انه حينما شاهد الصليبيين في كامل عدتهم، اخذ يتردد، وبعث اليهم من قبله رسولا، بعد فوات الاوان، يعرض عليهم انه على استعداد لان يناقش معهم شروط الهدنة. غير ان اعداءه تجاهلوا رسوله ومضوا في تقدمهم(٢٢).

ما ان تم خروج القوات الصليبية ووقوفها ازاء جيوش كربوقا حتى لجأ هذا الى اتخاذ مادرج عليه الترك من خطط حربية، وذلك بالتظاهر بالانسحاب. واستدراج العدو الى ارض بالغة الوعورة حيث قذف رماته صفوف العدو بوابل من السهام. وفي تلك الاثناء بعث بفصيلة من جيشه كي تحيط بقواتهم من ناحية اليسار حيث لم يكن النهر ليحميهم. غير ان بوهمند استعد لذلك فألف جيشاً سابعاً لوقف هذا الهجوم(٢٣).

---

(٢١) ابن الاثير: الكامل ١٠/١٠٣، ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦-١٣٧.

(٢٢) رنسمان: ١/٣٥٢-٣٥٣.

(٢٣) هذا ما تؤكده المصادر الفرنجية التي نقل عنها رنسمان (المصدر السابق ١/٣٥٣) وهو امر جح اعتماداً على سوابق ولواحق هذه الخطة التي كثيراً ما كان الاتراك يعتمدونها في قتالهم. اما ابن العديم فيشير الى ان ذلك الانسحاب السريع لقوات كربوقا لم يكن الا هزيمة توهمها الفرنج مكيدة فكفوا عن مطاردة المسلمين. يقول «انهزم عسكر كربوقا بعد ان عاث التركمان

اشتد القتال في الجبهه الرئيسية، ولم يستطع الرماة الترك وقف زحف الصليبيين. واخذت صفوف الترك تضطرب، وامعن الصليبيون في الضغط عليهم ومضوا في زحفهم. وزاد في مساعدتهم ماقرره كثير من امراء كربوقا من التخلي عنه، اذ انهم خافوا انه اذا مااحرز النصر فسوف يصير له من القوة ما سوف يجعلهم اول من يدفع الثمن باهظا. فأخذ جند دقاق امير دمشق يغادرون ساحة القتال، وترتب على ذلك ان ساد الذعر بين قوات المسلمين، فأشعل كربوقا النيران في الحشائش الجافة امام صفوف عساكره كيما يعوق سير الفرنج، دون جدوى، وراح في الوقت نفسه يسعى الى اشاعة الامن في صفوف قواته. ولم يبقى مواليا له الا سقمان بن ارتق وامير حمص. حتى اذا فرا، ادرك ان المعركة خاسرة وانصرف عن القتال. وتداعى كل الجيش التركي ووقع فريسة للفوضى والخوف. واذ اتبع الصليبيون النصيحة التي بذلها احد قادتهم بالا تشغلهم عملية نهب معسكر العدو، اخذوا يطاردون الفارين حتى بلغوا جسر الحديد فقتلوا عددا كبيراً منهم. اما اولئك الذين التمسوا ملاذاً في قلعة انطاكية فجرى تطويقهم ولم يلبثوا ان هلكوا. ولقي كثير من الباقين مصرعهم، اثناء فرارهم، على ايدى السريان والارمن المحليين في الريف... ووصل كربوقا الى الموصل في فلول جيشه مارا بحلب حيث حمل له صاحبها رضوان خياما وطعاما ، وضاع الى الابد

فيه، وتوهم الفرنج ان ذلك مكيدة فتوقفوا عن تبعهم فكان ذلك سبباً لسلامة من اراد الله سلامته (زبدة ٢/١٣٦–١٣٧) ويذهب ابن الاثير الى ما ذهب اليه ابن العديم؛ مع اعطاء مزيد من التفاصيل عن أسباب هذه الهزيمة، فيقول «لما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية احد منهم ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين، لما عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والاعراض عنهم، ومنعهم من قتل الفرنج وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب احد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم. وآخر من أنهزم سقمان وجناح الدولة لأنهما كانا في الكمين وانهزم كربوقا معهم، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، اذ لم يجر قتال ينهزم من مثله، وخافوا ان يتبعوهم وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة ، فقتل الفرنج منهم الوفا» الكامل ١٠/١٠٣.

ما كان له من سلطة ومكانة.(٢٤).

اما احمد بن مروان نائب كربوقا في قلعة انطاكية فقد فاوض الصليبيين واعلن استسلامه لهم، حيث سمح له ولحاميته مغادرة المكان في الثاني من شعبان دون التعرض لاذى(٢٥) وتحول جماعة من اصحابه، وبضمنهم احمد نفسه، الى المسيحية وانحازوا الى جيش بوهمند. وهكذا قرر انتصار الصليبيين الحاسم على كربوقا انه لابد ان تبقى انطاكية في حوزة المسيحيين، غير انه لم يقرر ايا منهم تنتقل الى حوزته: الفرنج ام الامبراطور البيزنطي؟(٢٦).

يبدو، لنا، بعد استعراض تفاصيل الدور الذي لعبه كربوقا في مجابهة الهجوم الصليبي على المعاقل الاسلامية الاولى، انه بذل ما في وسعه للتصدي لهذا الخطر قبل ان يتمكن من تثبيت اقدامه في الارض الاسلامية، فلم يأل جهداً في تهيئة كافة العوامل العسكرية: الزمنية والبشرية والفنية، من اجل تحقيق هدفه ذاك. الا ان ظروفاً شديدة التعقيد، اسهم هو بأخطائه السياسية والعسكرية ــ في تشكيل بعضها، واسهم امراؤه وحلفاؤه ــ بحرصهم على مكاسبهم الاقليمية، وتغلغل الحقد والتنافس الشخصي بينهم ــ في تشكيل معظمها، هذه الظروف هي التي احبطت محاولة كربوقا، وانتهت بها الى هذا المصير المفجع الذي كان له تأثيراته السيئة ونتائجه الخطيرة على مستقبل الحرب الصليبية بشكل عام.

فلقد استطاع الصليبيون، اثر هزيمة كربوقا، ان يثبتوا اقدامهم في بلاد الشام، كما كانوا قد ثبتوها قبيل ذلك في منطقة الجزيرة عن طريق الرها، وان يتخذوا من انطاكية ــ امارتهم الثانية ــ قاعدة للانطلاق الى الجنوب، وفرض سيطرتهم على المواقع القائمة على الطريق الى القدس. وليس استيلاء الصليبيين على القدس،

---

(٢٤) رنسمان ١/٣٥٣–٣٥٤
ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦–١٣٨، ابن كثير: الكامل ١٠/١٠٣، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٣٦.

٢٥. رنسمان ١/٣٥٤، ابن العديم: زبدة ٢/١٣٧–١٣٨.

(٢٦) رنسمان: ١/٣٥٤.

وانزالهم باهليها تلك المذبحة الرهيبة التي ذهب ضحيتها عشرات الالاف من السكان المجردين عن السلاح، سوى نتيجة مباشرة للهزيمة التي مني بها المسلمون عند اسوار انطاكية. ذلك ان هزيمة كهذه، لم تعط الصليبين فرصة التماسك والانطلاق ثانية الى اهدافهم فحسب، بل انها أصابت وحدة القوى الاسلامية في المنطقة بضربة قاصمة فمزقتها وشلتها عن العمل المشترك المنسق فترة من الزمن، كان الصليبيون يجتاحون خلالها ـ القرى والمدن والحصون، بينما كان قادة المسلمين يجترون احقادهم ويسعون للحفاظ على اقاليمهم فحسب، في الوقت الذي كان المسلمون فيه قد شدهوا للانتصارات الصليبية المتلاحقة، تلك التي لم تجد، بعدهزيمة كربوقا، ايةمحاولة جادة لصدهاعن المضي صوب هدفها المرسوم.

والحق ان اخطر ما ترتب على هزيمة المسلمين عند انطاكية هو الشلل الذي اصاب سياسة كربوقا وموقفه ازاء الخطر الصليبي الزاحف. فلقد اصابته تلك الهزيمة، بما حدث فيها من بوادر السلبية والانهزام لدى عدد من أمرائه، والخيانة المكشوفة لدى عدد اخر، برد فعل شديد صده عن التفكير الجاد في القيام بأية محاولة جديدة لتزعم القوى الاسلامية في المنطقة، والتصدى للزحف الصليبي السريع صوب الشرق والجنوب. الا ان هذه النتائج السالبة جميعا لن تصدنا عن محاولة تلمس ردود الفعل الايجابية التي تمخضت عن هزيمة انطاكية وما اعقبها من انتصارات صليبية، احدثت هزة عنيفة في ضمائر مسلمي المنطقة ونفوسهم، وعمقت وعيهم السياسي، وحركتهم لمطالبة جماعية من القوى الاسلامية الحاكمة ان تتخذ تدابير سريعة لوقف الهجوم الصليبي الامر الذي دفع السلاجقة بعد سلسلة من الضغوط والاضرابات العامة والمظاهرات الحاشدة(٢٧) الى توجيه اهتمامهم صوب تلك الساحة، ومن ثم اتيح لولاة الموصل الذين اعقبوا

---

(٢٧) انظر على سبيل المثال: ابن الجوزي: المنتظم ٩/١٠٥، ١٠٨، ١٦٥، ابن كثير البداية والنهاية ١٢/١٥٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ٥/١٥٠–١٥١، ١٥٢، ابن القلانسي تاريخ دمشق ص ١٧٣–١٧٤.

كربوقا، ان يتولوا ـ ثانية ـ زمام المبادرة وان يدخلوا : قادة وحلفاء : مع سائر امراء المنطقة ، في معارك متتالية مع الصليبيين ، وان يحققوا خلال صراعهم ذاك انتصارات بالغة الاهمية مكنت العالم الاسلامي من ان يقف على قدميه ثانية : وان يتحول من مراكز الدفاع الى الهجوم ، كما فتحت الطريق امام ظهور قيادات اشد حنكة ودراية وتمكناً ، أخذت على عاتقها ، فيما بعد ، السعي الدائب المنظم من اجل طرد الصليبيين وارغامهم على العودة ثانية من حيث جاءوا .

ـ قائمة المصادر ـ

ابن الاثير : ابوا الحسن عز الدين علي بن محمد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ)
التاريخ الباهر في الدولة الا تابكية (بالموصل) ؛ تحقيق عبد القادر احمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ـ ١٩٦٣ م .
الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءا ، دار الطباعة القاهرة ـ ١٢٩٠ هـ .

البنداري : الفتح بن علي بن محمد الاصفهاني (ت ٦٤٣ هـ) .
تاريخ دولة آل سلجوق ، من انشاء عماد الدين الاصفهاني (ت ٥٩٧ هـ) واختصار البنداري ، مطبعة الموسوعات ؛ مصر ـ ١٩٠٠ م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين ابو المحاسن بن تغرى بردى الاتابكي (ت ٨٧٤ هـ)
النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ، ١٣ جزءا ، ط ١ ؛ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ـ ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦ م .

ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧ هـ)
المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ٥ اجزاء ، ط ١ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن ، الهند ـ ١٣٥٩ هـ

الحسيني : صدر الدين ابو الحسن علي بن ابي الفوارس (ت ٦٢٢ هـ)
اخبار الدولة السلجوقية (المسمى : زبدة التواريخ في اخبار الامراء والملوك السلجوقية) تحقيق محمد اقبال ، نشريات كلية فنجاب ؛
ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) . لاهور ـ ١٩٣٣ م .

العبر وديوان المبتدأ والخبر (ويسمى – اختصارا – تاريخ بن خلدون ط بولاق : ٧ اجزاء، ١٢٨٤هـ، وط بيروت ٦مجلدات، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦–١٩٥٩م.

الذهبي : الحافظ شمس الدين محمد بن قايماز التركماني (ت٧٤٨هـ).
العبر في خبر من غبر، ٤اجزاء(الجزءان الاول والرابع تحقيق صلاح الدين المنجد، دار المطبوعات والنشر، الكويت–١٩٦٠م والجزءان الثاني والثالث تحقيق فؤاد السيد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت–١٩٦١م).

سبط بن الجوزي: شمس الدين ابو المظفر بن قزاد غلي التركي (ت٦٥٤هـ
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، جزءان، ط١ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند –١٣٧٠هـ=١٩٥١م

ابو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت٦٦٥هـ).
كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان، تحقيق محمد حلمي محمد احمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة–١٩٥٦م.

ابن العبري: غريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـ)
تاريخ مختصر الدول، تحقيق انطوان صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت–١٩٥٨م.

ابن العديم: كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ).
بغية الطلب في تاريخ حلب، ٣مجلدات (مخطوطة) دار الكتب في القاهرة، رقم١٥٦٦.
زبدة الحلب من تاريخ حلب، جزءان، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي دمشق–١٩٥٤م.

ابو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت٧٣٢هـ)
المختصر في اخبار البشر، مجلدان، دار الكتاب اللبناني، بيروت

ابن القلانسي: ابو يعلي حمزة (ت٥٥٥)هـ.
ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت١٩٠٨م

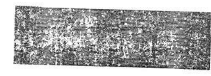
ابن كثير: اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ).
البداية والنهاية في التاريخ، ١٤جزءا مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٣٢م

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ).
مفرج الكروب في اخبار بني ايوب؛ ٣اجزاء. تحقيق جمال الدين الشيال، جامعة فؤاد الاول، القاهرة–١٩٥٣م.

ابن الوردى: زين الدين عمر (ت٧٥٠هـ).
تتمة المختصر في تاريخ البشر، جزءان، المطبعة الوهبية، القاهرة –١٢٨٥هـ.

الدكتور خضر جاسم الدوري

نظرات حول ملاحظات الدكتور جورج مقدسي عن الحلة وبني مزيد



من بين القبائل العربية التي لعبت دورا في تأريخ العراق الوسيط بنو اسد. ونخص بالذكر منهم بني مزيد الذين استطاعوا—مستغلين ضعف السلطات المركزية في العراق—ان يقيموا امارة خاصة بهم في مناطق الفرات الاوسط دامت مابين ٣٨٧—٥٥٨هـ/٩٩٧—١١٦٢م.على الرغم من تنقلهم—كبدو— يمكن ان نعتبر كلا من مدينة النيل والفلوجة والجامعين على انها المراكز الاولى لتجمعاتهم او حللهم (مفردها حلة)وفي سنة ٤٩٥/١١٠١ أنشأوا عاصمتهم الحلة كمركز ثابت.

لقد اثيرت مناقشات طويلة حول الشخص الذي بنى الحلة واتخذها مركزا للامارة ومتى كان ذلك.وعالج هذا الموضوع؛بأسهاب؛الدكتور جورج مقدسي في مقالته التي نشرها عام ١٩٥٤ باللغة الانكليزية (١)،وعالجه ايضا

(١) G. Makdisi,"Note on Hilla and the Mazyadids in Medieval Islam" Jounral of American Oriental Society, vol. 74, pp. 247-262.

الدكتور عبد الجبار ناجي في كتابه الامارة المزيدية وهو يميل الى الاخذ برأي الدكتور مقدسي مع بعض الاضافات البسيطة حيث يقول: «...واراني اتفق بصورة عامة مع اغلب النقاط التي جاء بها» ويعني الدكتور مقدسي (٢).

فما هو رأي الدكتور مقدسي؟ وخلاصة رأيه ان الحلة أنشئت في مدينة الجامعين او قريبا منها والتي يراها على انها كانت مدينة مزدهرة قبل بناء الحلة، كذلك يرى ان الحلة انشئت كمركز ثابت للمزيديين قبل سنة ٤٩٥هـ وعلى الخصوص في الفترة مابين سنتي ٤١٠–٤٤٢/١٠٢٩–١٠٥٠ ويرى بأن ماحدث في سنة ٤٩٥ ماهو الا تجديد او تعمير للمدينة المنشأة سابقا(٣).

ومن اجل اثبات نظرته تلك، عرض الدكتور مقدسي للتناقض الذي وقع فيه ياقوت الحموى اذ قال عند تكلمه على الحلة « ... مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تسمى الجامعين...وكان اول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الاسدي.وكانت منازل ابائه الدور من النيل، فلما قوى امره واشتد ازره وكثرت امواله لاشتغال الملوك السلجوقية بما تواتر بينهم من الحروب انتقل الى الجامعين موضع في غربي الفرات ليبعد عن الطالب وذلك في محرم سنة ٤٩٥. وكانت أجمة تأوى اليها السباع فنزل بها بأهله وعساكره وبنى المساكن الجليلة والدور الفاخرة وتأنق اصحابه في مثل ذلك فصارت ملجأ»(٤) اما عندما يتكلم ياقوت على الحويزة فأنه يقول: «...وهو موضع حازه دبيس بن عفيف الاسدي في ايام الطائع لله ونزل فيه بحلته وبنى فيه ابنية وليس بدبيس بن مزيد الذي بنى الحلة بالجامعين ولكنه من بني أسد ايضا، وهذا الموضع بين واسط والبصرة وخوزستان في وسط البطائح» (٥)

---

(٢) الدكتور عبدالجبار ناجي: الامارة المزيدية، (البصرة ١٩٧٠) ص٢٥٤–٢٥٧.

(٣) Makdisi, op. cit., pp. 258-259

(٤) ياقوت: معجم البلدان (بيروت ١٩٥٦) ج٢ ص٢٩٤.

(٥) نفس المصدر: ج ٢ ص ٣٢٦.

لقد اعطى الدكتور مقدسي اهمية كبرى لهذا التناقض في قولي ياقوت والذي مرجعه كما يبدو سقطة لسان او قلم خصوصا وان اسماء امراء بني مزيد انفسهم وكذلك اسماء اقاربهم من بني دبيس في الحويزة متشابهة تشابها كبيرا. هذا على أننا لا ننسى أن ياقوت قد ذكر اسم مؤسس الحلة بشكله الصحيح عندما كان يتكلم عن الحلة نفسها.

وثم نقطة اخرى اثارها الدكتور مقدسي على ياقوت هي انه اعتبر معلومات ياقوت الحموي حول اوضاع مدينة الجامعين قبل انشاء الحلة في عام ٤٩٥ لا يعتمد عليها كذلك. ولاثبات هذا. اعتمد الدكتور مقدسي على اقوال جغرافيين من امثال الاصطخري وابن حوقل والمقدسي البشاري اذ انهم وصفوا الجامعين بأنها مدينة مزدهرة، مأهولة، وخصبة وهو وصف يراه الدكتور مقدسي مناقضا لما ذكره ياقوت اذ ان الاخير كان قد وصف منطقة الجامعين عند تأسيس الحلة عليها على انها «... كانت اجمة تأوي اليها السباع »(٦).

استنادا الى التناقض بين وصف الجغرافيين السابقين ووصف ياقوت اكد الدكتور مقدسي استنتاجه السابق وهو عدم الثقة بما يقوله ياقوت فيما يخص مدينة الحلة وبنائها. ولكن يبدو أن الدكتور مقدسي مغال في ذلك حيث انه اعتبر اقوال اولئك الجغرافيين عن المنطقة وكأنها حقائق مطلقة لا يمكن تبدلها لا سيما وأن اخر اولئك الجغرافيين (المقدسي البشاري) كان قد عاش مابين ٣٣٥–٣٩٠ﻫ وما بين هذا التأريخ وسنة ٤٩٥ وهي السنة التي اسست فيها الحلة فترة زمنية طويلة كفيلة بتبديل اوضاع مدينة الجامعين من الازدهار الى الانحطاط.

أننا نعلم انه منذ السنوات الاولى للقرن الخامس الهجري شهدت الجامعين احداثا كثيرة كانت بلا شك السبب في ذلك التدهور. ففي سنة ٤١٧ «سار منيع أبن حسان امير خفاجة الى الجامعين، وهي لنور الدولة دبيس، فنهبها، فسار دبيس في طلبه الى الكوفة...

(٦) نفس المصدر: ج٢ص ٢٩٤.

(ثم) سار قرواش الى الجامعين فأجتمع هو ونور الدولة دبيس بن مزيد في عشرة آلاف مقاتل، وكانت خفاجة في الف..»(٧). وفي سنة ٤٢١ وبعد ان عاد دبيس بن مزيد من حربه ضد جلال الدولة «وصل الى بلده. وكان قد خالف عليه قوم من بني عمه. ونزلوا الجامعين واتاهم وقاتلهم، فظفر بهم، واسر منهم جماعة...وحملهم الى الجوسق»(٨).

وفي سنة ٤٢٤ نجد ان ابا قوام ثابت بن علي بن مزيد والبساسيرى سارا معاً الى قتال نور الدولة دبيس بن علي بن مزيد «فدخلوا النيل واستولوا عليه وعلى اعمال نور الدولة، فسير نور الدولة اليهم طائفة من اصحابه، فقاتلوهم فأنهزموا. فلما رأى دبيس هزيمة اصحابه سار عن بلده، وبقي ثابت فيه الى» (٩) سنة ٤٢٥. ففي هذه السنة اجتمع دبيس وجماعة من بني اسد وخفاجة وغيرهم «وساروا جريدة لاعادة دبيس الى بلده واعماله...وكانت بينهم حرب قتل فيها جماعة من الفريقين»(١٠).

وفي سنة ٤٤٦ نجد ان بني خفاجة قصدوا «الجامعين، واعمال نور الدولة دبيس، ونهبوا وفتكوا في اهل تلك الاعمال. وكان نور الدولة شرقي الفرات وخفاجة غربيها، فأرسل نور الدولة الى البساسيرى يستنجده. فسار اليه. فلما وصل عبر الفرات من ساعته، وقاتل خفاجة واجلاهم عن الجامعين. فأنهزموا منه ودخلوا البر، فلم يتبعهم فعاد عنهم، فرجعوا الى الفساد. فأستعد لسلوك البر خلفهم اين قصدوا، وعطف نحوهم قاصدا حربهم، فدخلوا البر ايضا..»(١١)

مما ذكرنا اعلاه يبدو واضحا ان الجامعين اصبحت ساحة معركة بين بني اسد انفسهم من جهة وبينهم وبين بني خفاجة من جهة ثانية مما دمر المنطقة.

وفي سنة ٤٤٩ كان هنالك وباء في منطقة النيل ومطير آباذ والكوفة وذلك

(٧) ابن الاثير: الكامل(بيروت، صادر) ج٩ص ٣٥٤-٣٥٥.

(٨) نفس المصدر: ج٩ص ٣٧٦.

(٩) نفس المصدر: ج٩ص٤٣٦.

(١٠) نفس المصدر: ج٩ص٤٣٦.

(١١) نفس المصدر: ج٩ص٥٩٩.

عندما«دخل دبيس بن علي على بلاده...وجدها خرابا لا اكاربها ولا عاملة حتى انه انفذ رسولا الى بعض النواحي فلقيه جماعة فقتلوه واكلوه»بسبب الجوع (١٢)

هذه نماذج قليلة (١٣) تثبت ان مدينة الجامعين—نتيجة للحروب والغزوات والاوبئة—اصبحت فعلا اجمة.وهكذا فأن وصف ياقوت للجامعين ولاوضاعها المتردية وصف صحيح مطابق للواقع ويعتمد عليه بعكس ماذهب اليه الدكتور مقدسي.

وفي معرض نقاش الدكتور مقدسي للنص الذي اورده ياقوت فأنه يرى ان هنالك صعوبات تعترض فهم النص ومن جملتها عبارة ياقوت«وكانت منازل ابائه الدور من النيل» والصعوبة هنا كما يرى الدكتور مقدسي في كلمتي «دور»و«نيل» ويقرر اخيرا ان كلمة دور تعني المنازل او البيوت او الخيم، وهذا صحيح ،اما بالنسبة لكلمة النيل فانه يعتقد انها تعني المادة التي عملت منها المساكن « The stuff of which these habitations were made»

ثم يستشهد الدكتور مقدسي بما يقول صاحب القاموس المحيط في وصفه لنبات مادة النيلة الصابغة ومنها يستنتج ان اجداد صدقة كانوا قد عاشوا في خيام معمولة من نوع من القصب المسمى «النيل»:

« (١٤) Sadaqa's ancestors lived in tents made of plant called nil.»

ثم يؤكد الدكتور مقدسي استنتاجه هذا خلال المقاله(١٥).ونؤكد هنا ان ما ذهب اليه الدكتو مقدسي لايمكن ان يكون صحيحاً مطلقاً حيث انه لم يستطع ان يميز بين صبغة النيلة وبين مدينة النيل فالبلاذري يشير الى انه بعد ان مصر الحجاج بن يوسف الثقفي مدينة واسط ونزلها «احتفر النيل والزابي...واحيا ما على هذين النهرين من الارضين واحدث المدينة التي تعرف بالنيل ومصرها»(١٦) كما

(١٢) بن الجوزي: المنتظم،ج٨ ص ١٨٠-١٨١.

(١٣) انظر الكامل لابن الاثير:ج٩ ص٤٣٦،ابن الجوزي:المنتظم،ج٩ص١١١.

(١٤) Makdisi, Op. Cit., pp. 251-252.

(١٥) Ibid., p. 253

(١٦) البلاذري: فتوح البلدان(القاهرة ١٩٥٩)ص ٢٨٨.

نجد ان الجغرافي المقدسي البشاري يشير الى ان النيل هي احدى مدن كورة الكوفة(١٧).

اضافة الى ذلك فأن ياقوت الحموي يقول انها «بليدة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد. يخترقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير حفره الحجاج ابن يوسف وسماه بنيل مصر»(١٨).

ثم يورد الدكتور مقدسي بعد ذلك مشكلة اخرى من المشاكل التي ترد في نص ياقوت الا وهي كلمتا «عمر» و«بنى» وهل ان كلمة عمر معناها البناء الجديد او انها تشير الى ان الشيء كان موجودا ثم جدد بناؤه؟. بعبارة اخرى هل ان مدينة الحلة وجدت في سنة ٤٩٥ او انها كانت موجودة من قبل ذلك التأريخ ثم حصنت، او عيد تعميرها في تلك السنة؟(١٩).

ومن أجل تبيان ذلك يورد ثلاثة نصوص من كل من ياقوت، ابن الاثير، وابن الجوزي بخصوص الحلة. ويستنتج منها بأن نص ابن الاثير مستمد من ابن الجوزي وذلك للتشابه في المحتوى والشكل بين النصين بينما يرى ان الاجزاء الرئيسية من نص ياقوت مستمدة من ابن الاثير للتشابه، قبل كل شيء في المحتوى (٢٠).

ولكن لاندري كيف قرر الدكتور مقدسي بأن ياقوت الذي كان قد انهى كتابة معجمه قبل سنة ١٢٢٧/٦٢٥ كان قد اخذ من ابن الاثير اذ ان مجرد التشابه بين عبارات النصوص لا يعني بالضرورة ان احدهما اخذ من الاخر لا سيما وان الجميع كانوا متأخرين عن سنة وقوع الحدث أي ٤٩٥ / ١١٠١ ومن الجائز ان كليهما اخذ من مصدر واحد سابق لهما. اما بالنسبة للنص الذي اورده ابن الجوزي فأنه جاء ضمن عرض طويل يتناول فيه تأريخ امارة

---

(١٧) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص١١٤.

(١٨) ياقوت: معجم البلدان، ج٥ ص٣٣٤.

(١٩) Makdisi, op. cit., p. 253 .

(٢٠) Ibid., p. 254

بني مزيد منذ نشوئها وحتى سنة ١١٢٢/٥١٦ ويورد ابن الجوزي نصه بخصوص الحلة عندما يتكلم عن نشاطات صدقة في الفترة التي اعقبت وفاة نظام الملك، الوزير السنجوقي، في سنة ١٠٩٢/٤٨٥ حيث يقول عن صدقة «وعمر الحلة وجعل عليها سورا وخندقا وانشأ بساتين...»(٢١) وكما لاحظ الدكتور مقدسي فان ابن الجوزي لم يذكر تأريخ تعمير الحلة، على اية حال فأنه يرى على ضوء ماجاء في نصوص اخرى من المنتظم بخصوص الحلة ان الفعل «عمر» يعني «حصن» fortified الا انه لا يشير الى اي نص من تلك النصوص الاخرى التي اعطته هذا الاستنتاج. ومع هذا فأنه يبني على ذلك الاستنتاج ان صدقة بنى سورا حول الحلة، التي كانت موجودة سابقا، كوسيلة دفاعية ضد هجوم محتمل كما انه زرع فيها حدائق « Gardens » فليس هنالك شك في ان الحلة -يقول مقدسي- كانت موجودة سابقا(٢٢).

ومن حقنا ان نتساءل انه اذا كان الفعل عمر يعني حصن« fortified » كما يرى الدكتور مقدسي فهل كان من الضروري على ابن الجوزي ان يتممه بقوله«وجعل عليها سورا وخندقا؟» كان عليه ان يكتفي بذكر الفعل عمر اذا كان التعمير يعني التحصين كما يراه مقدسي ولا داعي لاتمام النص بذكر التسوير وحفر الخندق لهذا فليس من الخطأ ان نعتبر الفعل عمر على انه بناء شيء جديد« fined » . امابقية النص فتعني التحصين وباختصار فأن صدقة في سنة ٤٩٥هـ أوجد او بنى الحلة وحصن ذلك البناء بالسور. وفي نفس النص الذي يورده ابن الجوزي يرد ذكر لانشاء صدقة بساتين في مدينته وهذا ربما يشير الى ان المنطقة كانت خلواً من البساتين وبعبارة اخرى ان الاحوال الزراعية للمنطقة التي بنيت فيها الحلة -اي الجامعين- كانت في ذلك الوقت غير جيدة. وهذا ينسجم تماما مع ماقاله ياقوت من ان الجامعين كانت أجمة تأوى اليها الوحوش.

اما بالنسبة للنص الذي اورده ابن الاثير فجاء فيه«وفيها(اي سنة ٤٩٥هـ) بنى سيف الدولة صدقة بن مزيد الحلة بالجامعين. وسكنها، وانما كان يسكن

(٢١) ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص٢٣٦.
(٢٢) Makdisi, op. cit., p. 254.

هو وآباؤه قبله في البيوت العربية»(٢٣)وهذا مما لا يدع مجالا لادنى شك في ان الحلة كانت قد انشئت عام ٤٩٥ ه في الجامعين الا ان الدكتور مقدسي يورد نصوصا اخرى لنفس المؤلف محاولا من خلالها ان يثبت عدم دقة النص السابق وبالتالي لان يعتبر ابن الاثير مصدراً لا يمكن الاعتماد عليه فيما يخص انشاء الحلة.واول هذه النصوص التي يوردها الدكتور مقدسي هو الآتي:

«في هذه السنة (٤٢٠)اصعد الملك ابو كاليجار الى مدينة واسط فملكها. وكان ابتداء ذلك ان نور الدولة دبيس بن علي بن مزيد،صاحب الحلة. والنيل،ولم تكن الحلة بنيت ذلك الوقت-خطب لابي كاليجار في اعماله»(٢٤) يرى الدكتور مقدسي ان معنى ذلك هو ان الحلة كانت موجودة في سنة ٤٢٠ه وهي السنة التي حدث فيها الحدث طالما ان ابن الاثير يصف نور الدولة دبيس بأنه «صاحب الحلة.والنيل» اما عن عبارة« ولم تكن الحلة بنيت ذلك الوقت» فيفسرها على ان الحلة لم تكن مبنية في وقت ذكر نور الدولة لاسم ابي كاليجار في خطبة يوم الجمعة.

Hilla had not been built at the time that Nur al-Dawla mentioned Abukalijar in public prayer in his provinces.

الا اننا لا نشارك الدكتور مقدسي فهمه هذا لمعنى النص ومن ثم استنتاجه اولا،ان النص،يشير بشكل واضح الى ان الحلة لم تكن مبنية في عام ٤٢٠ه ويبدو ان ابن الاثير بقوله:«ولم تكن الحلة بنيت ذلك الوقت»، يحاول ان يفسر ان اطلاقه لقب صاحب الحلة،والنيل على دبيس على انه من قبيل المجاز.ومما يثبت قولنا ان الحلة لم تكن موجودة في عام ٤٢٠ ه هو مايقوله ابن الاثير نفسه متمما قوله عن نفس الحدث والذي يبدو ان الدكتور مقدسي كان قد تجاهله وهو ان كلا من ابي كاليجار ودبيس بن مزيد كان في واسط لمحاربة جلال الدولة،الا ان الاخير تركها الى هواز لينهبها«ولما سمع ابو كاليجار الخبر سار ليلقى جلال الدولة فتخلف عنه دبيس بن مزيد،خوفا

(٢٣) ابن الاثير:الكامل،ج٩ ص٤٩٥.

(٢٤) نفس المصدر:ج٩ ص٣٧٤.

على اهله وحلله من خفاجة»(٢٥) ويستمر ابن الاثير في شرح الاحوال قائلا «لما عاد دبيس بن مزيد الاسدي. وفارق ابا كاليجار وصل الى بلده. وكان قد خالف عليه قوم من بني عمه، ونزلوا الجامعين واتاهم وقاتلهم فظفر بهم .واسر منهم جماعة... وحملهم الى الجوسق» وبعد ذلك انهزم دبيس الى السندية فنزل من كان معتقلا من قبل دبيس في الجوسق«الى حلله فحرسوها» (٢٦).من هذا النص لانجد اي ذكر للحلة كمركز ثابت او مدينة لدبيس بل ترد كلمة «حلله» وبصيغة الجمع تتكرر مرتين والتي تشير بلا ادنى شك الى مضرب للخيام اي منزل مؤقت وليس مدينة ثابتة.كذلك فعند ذكر ابن الاثير لعودة دبيس من واسط لايرد ذكر للحلة بل ان العودة كانت «الى بلده» ووجد في «بلده» ان قوما من بني عمه ثاروا عليه«ونزلوا الجامعين» . فلو كانت الحلة موجودة لذكرت هنا كما ان نزول ابناء عمه«في الجامعين» المدينة القديمة التي انشئت عليها الحلة يؤكد ان الحلة لم تكن موجودة في هذه السنة فلو وجدت لورد ذكرها بدل لفظ الجامعين.

ويمكننا ان نقول بأنه لم يرد في الكامل لابن الاثير قبل سنة ٤٩٥هـ ذكر للحلة يفهم منه انها كانت مركزا ثابتا بل دائما كمضرب لخيام احد الامراء وكثيرا ماترد اللفظة مقرونة بأسم ذلك الامير(٢٧)وابن الجوزي يضيف لنا ادلة على ذلك ففي سنة ٤٤٢هـ يقول «ووقعت ...صاعقة في حلة نور الدولة على خيمة لبعض العرب »(٢٨).كذلك في احداث سنة ٤٩٣هـ عندما توفي محمد بن سيف الدولة صدقة بن مزيد يقول:«خرج قاضي القضاة... الى حلة سيف الدولة برسالة من دار الخلافة. . . » (٢٩) واكثر من ذلك ففي احداث

---

(٢٥) نفس المصدر:ج٩ ص٣٧٤-٣٧٥.

(٢٦) نفس المصدر:ج٩ ص٣٧٦.

(٢٧) نفس المصدر:ج٩ ص ٣٠٤.

(٢٨) ابن الجوزي:المنتظم،ج٨ ص١٤٦.

(٢٩) نفس المصدر:ج٩ ص١١٩.

سنة ٤٩٤هـ عندما طولب سيف الدولة بالمليون دينار والتي كانت سببا في انتقاله الى الجانب الغربي من الجامعين وبنائه الحلة هناك في سنة ٤٩٥هـ طرد الرسول الذي جاء مطالباً به «وكانت كيفية طرده انه نزل في خيمة فأمر سيف الدولة بأن يقطعوا اطنابها فوقعت الخيمة عليه فخرج وركب في الحال»(٣٠). فلو كان هناك بناء قائم في الحلة فكيف يسكن عميد بغداد ورسول الوزير في خيمة.ان الحلة حتى سنة ٤٩٤هـ لم تكن الا مضرباً للخيام عمرت بعد ذلك مدينة.

ولنرجع ثانية الى ابن الاثير فأننا نجده في حوادث سنة ٤٤٦هـ يستعمل اسم الجامعين بدلا من الحلة (٣١). وعند وفاة نور الدولة دبيس سنة ٤٧٤هـ فأن مكان الوفاة يرد على انه مطيرا باد وليس الحلة(٣٢).

ومن اجل اثبات ان الحلة كانت قد بنيت قبل سنة ٤٩٥هـ فأن الدكتور مقدسي يورد نصا آخر لابن الاثير عن وفاة منصور بن دبيس سنة ٤٧٩هـ وصف فيه منصورا بأنه«صاحب الحلة والنيل وغيرهما مما يجاورها»(٣٣).

الا ان هذا لا يعني مطلقا ان الحلة كانت حينذاك مدينة قائمة بل مضرباً للخيام كما ذكر سابقا كما اننا لا ننسى ان بعض المؤرخين المسلمين عندما كانوا يكتبون عن احداث وقعت في منطقة ما فأنهم احيانا يستخدمون الاسماء الشائعة في ازمانهم لتلك المواقع مغفلين اسماءها القديمة وهذا اشبه شيء بارجاع التأريخ الى الوراء.

يعود الدكتور مقدسي مرة اخرى الى ياقوت معتقداً ان ياقوت اخذ نصه الذي اورده عن بناء الحلة من ابن الاثير ومشيراً باستغراب(٣٤) كيف ان ياقوت اخطأ

---

(٣٠) نفس المصدر: ج٩ ص١٢٤.

(٣١) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص٥٩٩.

(٣٢) نفس المصدر: ج١٠ ص١٢١.

(٣٣) نفس المصدر: ج١٠ ص١٥٠.

(٣٤) Makdisi op.cit.,n.60,pp.250-251.

في اعتباره الجامعين مجرد اجمة، مع العلم ان اوائل الجغرافيين من امثال الاصطخري وابن حوقل والمقدسي البشاري الذين اعتمد عليهم ياقوت في معجمه جميعا ذكروا الجامعين كمدينة مزدهرة مأهولة. وردا على هذا التساؤل يعلل الدكتور مقدسي الامر على ان ياقوت، في قوله ذلك ربما كان يستند الى رواية كانت تتعلق بموقع الجامعين، كانت ماتزال تلك الرواية شائعة في ايامه وهي ان مدينة النرس Nares القديمة—والتي احتلت موقعها فيما بعد مدينة الجامعين— كانت قد وصفت في التلمود على انها اجمة تماماً كما وصف ياقوت الجامعين(٣٥).

ان الدكتور مقدسي يرجع هنا بالتاريخ الى فترات بعيدة جداً ليجد حلا لقول ياقوت ولكن يفوته ان يتذكر احداث التاريخ الاكثر قرباً واعني بذلك احداث السنوات ٤١٧، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٣٥، ٤٤٩هـ التي وردت سابقاً والتي كانت السبب الوحيد في تدمير منطقة الجامعين. ومن اجل القاء ضوء على عملية تبدل الاوضاع في مدينة الجامعين اضيف مثالا اخر، حيث ان مدينة قصر ابن هبيرة التي كانت قريبة الى مدينة الجامعين وصفت من قبل الجغرافي المقدسي البشارى على انها«...مدينة كبيرة جيدة الاسواق يجيئهم الماء من الفرات، كثيرة الحاكة واليهود والجامع في السوق»(٣٦).

كما ان هلالا الصابي ذكر في احد كتبه عن بغداد قائلا: «واما قصر ابن هبيرة فاني أذكر فيه عدة حمامات وكثيراً من الناس منهم قضاة وشهود وعمال وكتاب واعوان وتناء وتجار» ودليلا على ثراء المدينة فأن هلالا يقول في سنة ٤١٥ توسطت لدى شرف الدولة ابن علي «على ضمان النصف من سوق الغزل بها وضمنته بسبعمائة دينار في كل سنة وضمن الناظر في الحاميات من جهة الغرب النصف الاخر بألف دينار ...وما بقي في هذا الموضع اليوم (توفي هلال عام ٤٤٨هـ) اكثر من خمسين نفسا من رجال ونساء في بيوت شعثة على حال رثة»(٣٧).

---

(٣٥) Ibid., p.256.

(٣٦) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص١٢١.

(٣٧) ياقوت: معجم البلدان، ج٤ ص ٣٦٥.

هذا يعني ان هذا التبدل في احوال مدينة قصر ابن هبيرة حدث في الثلاثين سنة الاخيرة من حكم البويهيين اعني مابين٤١٦ـ٤٤٧هـ.لذا قياسا على ماحدث بالقصر في هذه الفترة الزمنية واستناداً الى ماذكرناه من احداث متشابهة مرت بالجامعين لاسيما احداث سنوات٤١٧ـ٤٤٩هـنستطيع ان نقرر وبأمان ان الجامعين قبل سنة٤٩٥هـكانت فعلا اجمة كما ذكر ياقوت.

واخيرا، فان الدكتور مقدسي يختم مقاله عن الحلة مؤكدا ان الحلة اتخذت موقعها في مكان قريب من، او ضمن، الجامعين بعد ان اصبحت الاخيرة في سنة ٣٩٧هـضمن ممتلكات المزيديين.ويحدد الدكتور مقدسي بشكل ادق الفترة الزمنية التي اسست فيها الحلة فيقرر انها بنيت في سنة ما،بين٤٢٠ـ٤٤٢هـ.

الا اننا لانوافقه في ذلك كما وضحنا سابقا ونضيف اننا نقرأ في كتاب الكامل لابن الاثير انه في سنة٤٦٠هـعندما عزل الوزير ابن جهير عن الوزارة«خرج من بغداد الى نور الدولة دبيس بن مزيد بالفلوجة»(٣٨)وحول نفس الحدث نجد ان سبط ابن الجوزي يذكر بأن الوزير المذكور ذهب«الى حلة نور الدين(كذا) ابن مزيد بالفلوجة»(٣٩)لذا فأن حلة نور الدولة كانت بالفلوجة وليست بالجامعين التي اصبحت مكانا لمدينة الحلة فيما بعد.

واختم البحث بالقول بأن صدقة بن منصور اوجد الحلة في سنة٤٩٥هـ(٤٠) في منطقة الجامعين،المنطقة التي كانت انذاك قد تحولت الى اجمة.واود ان اذكر ايضاانه في سنة٤٩٤هـ كانت علاقة صدقة بن منصور بالسلطان السلجوقي بركيارق متأزمة جداً، وقد انذر صدقة من قبل الاعز وزير بركيارق بان يدفع الدين الذي عليه للخزانة السلطانية والبالغ مليون دينار «والا فبلدك مقصود»(٤١).ولذلك فان انتقال صدقة الى الجامعين التي كانت آنذاك

---

(٣٨) ابن الاثير :الكامل،ج١٠ص٥٧.

(٣٩) سبط ابن الجوزي:مرآة الزمان،مخطوطة المكتبة الوطنية–باريس رقم ١٥٠٦ ورقة ١١٣أ

(٤٠) ابن الجوزي :المنتظم،ج٩ ص١٣٢.

(٤١) نفس المصدر :ج٩ ص١٢٤.

اجمة واختياره بشكل خاص جانبها الواقع على ضفة الفرات الغربية يشير الى انه خطا خطوة موفقة من حيث الاهمية الاستراتيجية، كما لا يفوتنا ان نتذكر بأن الاجام كانت الاماكن المفضلة للثوار او للخارجين على القانون(٤٢). ولهذا فنحن نجد ان سبط بن الجوزي عندما يتكلم على صدقة وعلى بنائه الحلة يذكر لنا بان جماعة من البدو وقطاع الطرق لجأوا اليه(٤٣).



(٤٢) انظر مثلا: المنتظم، ج٨ ص٧٢.
(٤٣) سبط ابن الجوزي: مرآة، مخطوطة-البودليان، رقم ٦٥٨، ورقة ١٣٢.

الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي

دراسات في الوثائق الاسلامية

(عهد عمر بن الخطاب للنصارى)

تعتبر الوثائق من اولى المصادر المهمة لدراسة التاريخ الاسلامي، لانها تحوي مادة تاريخية أصيلة، ونقصد بها على الخصوص الاوراق الرسمية، كالرسائل والمنشورات والسجلات والاحكام القضائية، والنظم المالية والفتاوى الدينية والمعاهدات السياسية والمراسيم وعهود التولية لكبار الموظفين من وزراء وولاة وقواد، ومع ذلك فان الكثير من هذه الوثائق سواء المكتوبة باللغة العربية ام بغيرها قد فقدت على الرغم من أهميتها الكبيرة في دراسة التاريخ الاسلامي، ولعل السبب الرئيسي في ضياعها واتلافها يرجع الى ان العالم الاسلامي، بعد ان كان وحدة سياسية الى اخر عهد الدولة الاموية في سنة ١٣٢هـ=٧٥٠م، انقسم على نفسه نتيجة لظهور الصراعات بين المسلمين والتعصب الديني عند غير المسلمين مما أدى الى فقدانها او تزييفها، ولاسيما في فترة حدوث انفصال أقاليم عديدة عن الدولة الاسلامية.

فالوثائق التاريخية الاولى لا تزال مجهولة لدينا، ولم يبق منها غير القليل مبعثرة،

ومتناثرة في كتب المتأخرين(١)، وعلى الباحثين في التاريخ الاسلامي الا يترددوا في البحث عنها(الوثائق)ونشرها، وجمع ما وجد منها في كتب المتأخرين، لانها هي السبيل الرئيسي لايصالنا الى الحقيقة السليمة.

وسنحاول دراسة الوثيقة التاريخية، التي نسبت الى الخليفة عمر بن الخطاب تارة والى قائده ابي عبيدة بن الجراح تارة أخرى، والتي تناقلها الفقهاء والمؤرخون المسلمون والمستشرقون، واختلفوا في نسبتها، فمنهم من اعتبرها وثيقة أصدرها الخليفة عمر لتحديد العلاقة بين المسلمين والنصارى، ومنهم من أنكر على الخليفة عمر أن يصدر مثل هذه الوثيقة، لاسيما وانه كان من أشد الخلفاء الراشدين رحمة بالنصارى وغيرهم من أهل الذمة. ولنا في أقواله ووصاياه فيهم خير دليل على ذلك. فقد روي عنه عند وفاته انه قال(أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ان يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولايكلفوا فوق طاقتهم)(٢).

ان أغلب الفقهاء والمؤرخين الذين اشاروا اليها—وإن اختلفوا فيها—عاشوا في العصور الاسلامية المتأخرة منهم ابو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي(٣) المتوفى سنة ٥٢٠هـ—١١٢٥م في كتابه(سراج الملوك)، كما رواها ابن عساكر(٤)(ت ٥٧١هـ—١١٧٥م) في كتابه(تاريخ دمشق) بعدة أوجه، وقد نقلها الفقهاء والعلماء والمؤرخون المتأخرون منهم الشيخ عبدالله محمد بن الشيخ مفلح المقدسي الحنبلي(ت٧٦٣هـ) في كتاب(الآداب الشرعية والمصالح المرضية)(٥) وكتاب (العزيزي المحلى)(٦) لعزيز الدين ابن محمد بن يحيى بن المخلطة

---

(١) انظر محمد حميد الله مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ط٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة—١٩٥٨.

(٢) ابو يوسف الخراج ص١٢٥ المطبعة السلفية ط٢ ١٣٥٢ هـ القاهرة.

(٣) الطرطوشي سراج الملوك ص٢٨٣ وما بعدها طبع مصر ١٣١١ هـ.

(٤) ابن عساكر تاريخ دمشق المجلد الاول ص٥٠٤؛ ص٥٦٣ طبع المجمع العلمي العربي بدمشق.

(٥) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٢، اخلاق المكتبة التيمورية.

(٦) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٨٢/ادب المكتبة التيمورية.

المولود عام ٨٢٤هـ. وكتاب (كناش)(١) للشيخ محمدبن عمر الخونكي البصري (من علماء القرن الحادي عشر). وكتاب (الشروط العمرية على أهل الذمة)(٢) للقاضي ابي محمد عبدالله بن أحمد بن زير القاضي كتبه سنة ٨٥٩هـ، وكتاب (مرسوم بعض الملوك الصلاحية في إلزام أهل الذمة بالشروط العمرية)(٣) لمؤلف مجهول . وكتاب (المذمة في استعمال أهل الذمة)(٤) لشمس الدين أبي أمامة محمد بن علي بن عبدالواحد المغربي النقاش المصري.

وقد وجدت صور أخرى من العهد تشير الى أن النصارى، انتهوا اليها بعد محادثة جرت بين الخليفة عمر بن الخطاب. وقائده أبي عبيدة بن الجراح من جانب وبين البطريك قسطنطين من الجانب الاخر(٥) وسنشير الى العهد الذي أورده الطرطوشي(٦) باعتباره أقدم من أشار اليه.



---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٤/ادب المكتبة التيمورية.

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٥٢/تاريخ ومصور بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم ٢٩٢/تاريخ.

(٣) مصور بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم ٤٦٨/تاريخ.

(٤) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٦٩٣ فقه شافعي، مصور بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم ٤٦٥/تاريخ.

(٥) انظر غازي الواسطي: الرد على الذميين مجلة الدراسات الشرقية الامريكية ص٣٩١ سنة ١٩٢١م

(٦) الطرطوشي سراج الملوك ص٢٨٣–ص٢٨٦.

«صورة عهد عمر للنصارى»

بسم الله الرحمن الرحيم:

«هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة(ـ)انكم لما قدمتم الينا(١)سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا،وشرطنا لكم على أنفسنا الا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلية(٢)ولا صومعة(٣)ــــــــ(٤)ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان(٥)مختطاً منها في خطط المسلمين في(٦)ليل ولا نهار، وان نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليالي(٧)نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً،ولا نكتم غشاً للمسلمين،ولا نعلم أولادنا القرآن(٨) والا نظهر شرعنا(٩)ولا ندعو اليه أحداً،والا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان اراد(١٠)،وان نوقر المسلمين،ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس،ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولاعمامة

---

(١) وتأتي في رواية ابن النقاش(علينا)

(٢) قلية او قلاية تكون مرتفعة كالمنارة والفرق بينها وبين الدير ان الدير يجتمع فيه عدد من الرهبان، والقلاية لا تكون الا لواحد ينفرد بنفسه ولا يكون لها باب بل فيها طاقة يتناول منها الراهب طعامه وشرابه(متز الحضارة الاسلامية ص٥٧).

(٣) الصومعة: كالقلاية لراهب واحد والفرق بين الصومعة والقلاية ان القلاية تكون منقطعة في فلاة الارض والصومعة تكون على الطريق ابن القيم الجوزية احكام اهل الذمة ص٦٦٨– ص ٦٦٩.

(٤) يضيف ابن النقاش كلمة(راهب)على نص العهد.

(٥) وتأتي في روايات اخرى(ولا شيئاً منها)و(ولا نأتي منها ما كان)و(ولا نجيء ما كان منها) .

(٦) ويضيف ابن النقاش(والا نمنع كنائسنا ان ينزلها احد من المسلمين).

(٧) ويضيف ابن النقاش وايام.

(٨) ذكر ابن عساكر صورة اخرى للعهد انه كتب لابي عبيدة بن الجراح (انا سألناك الأمان لانفسنا واهالينا واولادنا واهل ملتنا على ان نؤدي الجزية عن يد ونحن صاغرون ح١ص ٥٦٣

(٩) وفي رواية ابن النقاش(والا نظهر شركا).

(١٠) وفي رواية اخرى(ان ارادوا)

ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور وان نجز مقادم رؤوسنا، ونلزم زينا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير(١)على أوساطنا. ولا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا تضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضرباً خفيفاً، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيىء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانينا (٢)ولا باعوثنا(٣)، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم. ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق، ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع الى منازلهم»

ولما جاء النصارى بهذا العهد زاد فيه عمر (ولا نضرب أحداً من المسلمين) وقالوا شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان، فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم، وضمنا على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل لنا ما يحل في أهل المعاندة والشقاق(٤)، واشترط عليهم أيضاً(ان لا يشتروا شيئاً من سبايا المسلمين

(١) الزنانير جمع زنار، والزنار ما يشد على وسط النصراني او المجوسي وفي التهذيب ما يلبسه الذمي يشده على وسطه(ابن منظور لسان العرب حـ٥ ص ٤١٩، محمد مرتضى الحسيني تاج العروس حـ٤ ص٢٤٣).

(٢) السعانين والشعانين: عيد دخول المسيح الى القدس. لفظة عبرانية مدلولها التسابيح اخذها السريان ومنهم اخذها العرب. انظر الالفاظ السريانية في المعاجم العربية مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ٢٤ ص١٢؛ انظر الديارات للشابشتي.

(٣) الباعوث: كلمة سريانية معناها الابتهال وهي بضعة أبيات منظومة على اوزان تتلى يومياً أثناء الصلاة، وكان الباعوث قديماً يعني صلاة الاستسقاء من البلاء ثم صار دعاء أثناء الطواف في الاعياد. انظر الالفاظ السريانية في المعاجم العربية مجلة المجمع العلمي بدمشق المجلد ٢٣ص ٣٢٢، المجلد ٢٦ ص٣٢٧.

(٤) الطرطوشي سراج الملوك ص٢٨٣–ص ٢٨٦ ابن النقاش المذمة في استعمال اهل الذمة مخطوط ورقة ٣–٤، عبدالله بن زير القاضي: الشروط العمرية على اهل الذمة. (مخطوط) ورقة ١–٤، محمد الخونكي(كناش)مخطوط ورقة ١٣٦، مؤلف مجهول(مرسوم بعض الملوك الصلاحية في الزام أهل الذمة بالشروط العمرية)عزيز الدين بن المخلطة(العزيزي المحلي) مخطوط ورقة ١٦١–١٦٢.

ومن ضرب مسلماً عمداً فقد عهده خلع) (١).

يلحق بالعهد أحكام تتعلق بالكنائس نسبت الى الخليفة عمر بن الخطاب أيضاً فذكر ابن عساكر(٢)أن عمر بن الخطاب امر بهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام،ومنع من أن تحدث كنيسة بعد الاسلام وأمر أن لا يظهر صليب خارجاً من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه.

وهذه صورة أخرى لعهد عمر يدعي النصارى انه وضع بعد المحادثة التي جرت بين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح من جانب والبطريك قسطنطين من جانب آخر،إذ اشترط الخليفة عمر(على الموسر دفع ثمانية وأربعين درهماً وعلى الوسط اربعةوعشرون*درهماً وعلى المدقع اثنا عشر درهماً،وعلى الا يحدثوا كنيسة ولا يرفعوا صليبا بين ظهراني المسلمين،وعلى أن يقروا ضيوفهم ثلاثة أيام وثلاث ليال،وعلى أن يحملوا راجلهم من رستاق الى رستاق،وعلى أن يناصحوهم،والا يغشوهم،وعلى ان لا يستمالوا مع عدو لهم،والا استحللنا سفك دمائهم وسبي أبنائهم ونسائهم،وذلك عهد الله وعهده وذمة المسلمين(٣).ويرد في كتاب الخراج لابي يوسف صورة أخرى للعهد فيما رواه عثمان بن حنيف(وان لا يترك احد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه،ولا في هيئته،ويؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات—مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم—وبأن تكون قلانسهم مضربة،وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب،وبأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية ولا يحذو على حذو المسلمين،وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل،ويمنعوا من آن يحدثوا بناء بيعة أو كنيسة في المدينةالا ما كانوا صالحوا عليه،وصاروا ذمة وهي بيعة لهم أو كنيسة فما كان كذلك تركت لهم ولم

---

(١) الطرطوشي ص٢٨٦،ابن عساكر تاريخ دمشق المجلد الاول ص٥٦٥.

(٢) ابن عساكر تاريخ دمشق المجلد الاول ص٥٧١.

(٣) انظر غازي الواسطي الرد على الذميين مجلة الدراسات الشرقية الامريكية ص٣٩١سنة ١٩٢١.

* وردت في الاصل (عشرون) والصحيح: عشرين

تهدم، وكذلك بيوت النيران ويتركون يسكنون في أمصار المسلمين وأسواقهم، يبيعون ويشترون، ولا يبيعون خمراً، ولا خنزيراً، ولا يظهرون الصلبان في أمصار المسلمين، ولتكن قلانسهم طوالا مضربة فمر عمالك ان يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي هكذا كان عمر بن الخطاب أمر عماله ان يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي حتى يعرف زيهم من زي المسلمين(١).

لقد نسب بعض الفقهاء هذا العهد الى عمر بن الخطاب، والذي بعث به النصارى اليه عندما فتح المسلمون بلاد الشام، وقد اتخذ الفقهاء من هذا العهد المنسوب الى عمر القانون الثابت والمعول عليه كلياً في تحديد العلاقة بين المسلمين والنصارى، والذي يجب تطبيقه بحذافيره عليهم في البلاد المفتوحة، وزادوا عليه بأن أجتهدوا في نصوصه وبنوده يحللونها ويؤولونها ويوصون الخلفاء الذين جاءوا بعد الخلفاء الراشدين بوجوب تطبيقها والالتزام بها، لانها نسبت الى الخليفة عمر بن الخطاب.

والواقع أن هذا العهد لا يحتمل أن يكون صحيحاً لانه نسب تارة الى عمر والى قائده ابن الجراح تارة أخرى. ولانه (لم تجر العادة ان يشترط المغلوبون الشروط التي يسترضونها لوادعهم الغالب)(٢).

اضف الى هذا انه من الغريب أن يحرم على المسيحيين تعلم القرآن هم وأولادهم، ومع ذلك يرد في إحدى صور العهد اقتباس من آيات القرآن في خطابهم للخليفة (...ان نعطي الجزية عن يد ونحن صاغرون)(٣).

كما ان العهد لم ينص على اسم البلد وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بوضع هذا العهد، لان المعاهدات التي عقدها الخلفاء والقادة المسلمون مع اهل البلاد المفتوحة، ذكروا فيها اسم البلد وأحياناً الممثل لهذا البلد. وهذه نماذج من

---

(١) ابو يوسف الخراج ص١٢٧ ط٢ المطبعة السلفية ١٣٥٢ القاهرة.

(٢) انظر ترتون أهل الذمة في الاسلام ص٤ ترجمة حسن حبشي مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٧م.

(٣) ابن عساكر تاريخ دمشق المجلد الاول ص٥٦٣.

العهود لاهل البلاد المفتوحة: (١)(هذا كتاب من النبي محمد الى ابي الحارث بن علقمة اسقف نجران)ويقول المستشرق ترتون(٢)(إننا لا نجد قط عهداً مع أية مدينة من مدن الشام يشبهعهد عمر بن الخطاب بحال من الاحوال) ويمكن الاستشهاد بالعهد الذي قطعه عمر مع اهل حمص جاء فيه(ان اهل حمص صالحوه على ان يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وارحائهم، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد، واشترط الخراج على من أقام منهم)(٣)ويشك المستشرق ترتون(٤)في نسبة العهد الى عمر بقوله (اننا لا نستطيع الادعاء بان عمر اراد وضع تشريع للمستقبل، إذ لم يكن ذلك أسلوب عمر بن الخطاب لادراكه بتغيير الأحداث في المستقبل، ولو وضع عمر مثل هذا العهد كتشريع لصرح والتزم به الخلفاء الذين جاءوا بعده ولرواه المؤرخون الاولون الذين رووا أصغر الحوادث، فكيف لا يروون مثل هذا العهد الخطير؟).

ولو افترضنا ان موقع بلاد الشام على حدود الدولة الاسلامية، جعلها أكثر من غيرها تعرضاً للحروب مع البيزنطيين، وان هذا الوضع، أدى الى فرض قيود معينة على النصارى، فلماذا لم يتقيد به النصارى في عهده وعهد من تلاه من الخلفاء في كافة انحاء الامبراطورية الاسلامية، ويقول جرجي زيدان(٥)(اننا في حيرة من صحة نسبة العهد الى عمر، فالعهد وارد في كتب المسلمين، فلا يحتمل أن يضعه الطرطوشي لما له من المنزلة في الزهد والتقوى ما يتزهه عن الكذب كما أن أكثر مواد هذا العهد وارد في كتب الفقه في أحكام اهل الذمة منها كتبت قبل زمن الطرطوشي ومنها بعده، كما جاء ذكر هذا العهد في كتب السياسة

---

(١) انظر محمد حميد الله مجموعة الوثائق السياسية ص١١٥.
(٢) أنظر ترتون أهل الذمة في الاسلام ص ٥ .
(٣) البلاذري فتوح البلدان ص١٣١ نشر صلاح المنجد مطبعة البيان العربي القاهرة .
(٤) انظر ترتون ص ٦
(٥) انظر جرجي زيدان التمدن الاسلامي ج٤ ص١٠٨ طبع دار الهلال القاهرة .

والنظم . فقد جاء في كتاب الاحكام السلطانية للماوردي(١) المتوفى سنة ٤٥٠هـ ١٠٥٨م، والذي سبق الطرطوشي بسبعين سنة في باب(الجزية والخراج) ويشير ابن الاثير (٢) (ت٦٣٠هـ-١٢٢٣م) الى ذكر العهد في حوادث سنة ٤٨٤هـ. وابن زير القاضي(٣) بقولهم(واخرج توقيع الخليفة بالزام أهل الذمة الغيار ولُبس ما شرطه عليهم امير المؤمنين عمر بن الخطاب)، كما ان بعض الخلفاء من بني أمية وبني العباس حاولوا الرجوع اليه في معاملة النصارى . ومنهم عمر ابن عبدالعزيز . الذي أراد رد النصارى الى ما نسب الى عمر بن الخطاب من العهد وكذلك فعل المتوكل الخليفة العباسي.

ولو رجعنا الى ما ورد عن عمر بن الخطاب والى وصاياه فيهم، لرفضنا نسبة هذا العهد اليه، فقد جاء في وصينه لخليفته من بعده(...وأوصيك الا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة)(٤) . وينتقد محقق(٥) كتاب(أحكام أهل الذمة)لابن القيم الجوزية النصوص الواردة في عهد عمر فيقول(ولا يصدق ورود عبارة«شد الزنار على الاوساط»فالزنانير جمع تكسير للفظ(الزنار) الذي هو لفظ يوناني موضوع للمنطق او الحزام، ولم تكن هذه الصيغة شائعة الاستعمال في عهد عمر، فكيف يستعمل هذا اللفظ الاعجمي رغم قيام المنطق او الحزام(مقامه).

أما المؤرخون الذين اسهبوا في مواد هذا العهد، وتفصيلاته، ولاسيما في موضوع الغيار والزام الذميين الزنار، فكانوا من المتأخرين فما عرض قط لازياء النصارى ابن جرير الطبري، ولا البلاذري من أئمة المؤرخين المتقدمين،

(١) الماوردي الاحكام السلطانية ص٢٣٨ مطبعة البابي الحلبي ط٢ ١٩٦٦ مصر.
(٢) ابن الاثير الكامل في تاريخ حوادث سنة ٤٨٤هـ .
(٣) ابن زير القاضي: الشروط العمرية على اهل الذمة(مخطوط)ورقة ٥-٦
(٤) الجاحظ البيان والتبيين ج٢ ص٤٧ تحقيق عبدالسلام هارون ط٣، مكتبة الخانجي بمصر.
(٥) انظر صبحي الصالح محقق كتاب اهل الذمة في الاسلام لابن القيم الجوزية ص٨٦ وما بعدها. مطبعة جامعة دمشق ط١ ١٣٤٧ هـ.

مما يحملنا على الاقناع بكثرة الادراج على تلك الاصول التي وضعها عمر بن الخطاب.

كما ينتقد جرجي(١)زيدان نصوص هذا العهد فيقول(يتضح من نصوص هذا العهد عنصر الضغط والصغار للنصارى خلافاً لما جاء في سائر عهود الأمان أو كتب الصلح في صدر الاسلام، وخلافاً لما هو معروف عن عدل عمر بن الخطاب ورفقه بأهل الذمة، فكان اذا أساء مسلم الى مسيحي أقتص له منه؛ ولو كان المسلم من كبار الصحابة، كما اقتص لذلك القبطي من عمرو بن العاص وابنه. وقال لعمرو بن العاص(يا عمرو مذكم استعبدتم الناس، وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً)وهذا تناقض واضح بين مناقب عمر، ونصوص هذا العهد. مما يتبادر الى الذهن انه موضوع بعد عهد عمر بن الخطاب بزمن. فقد نعم النصارى وغيرهم من الذميين بكل ما كان ينعم به المسلمون في ما عدا الجزية.

ويعتقد بعض المؤرخين ان نصوص هذا العهد وضعت في وقت متأخر عن عهد عمر بن الخطاب.

انه لم تكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام أهل الذمة بلبس نوع من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون، إذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة وكان أهل الذمة يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون إجبار او الزام(٢). فيقول Chafik Chehata في دائرة المعارف(٣)الاسلامية(اما الشروط الشديدة الخاصة التي كانت تشتد وطأتها بازدياد روح التعصب، فقد ظهرت اول صورة لها في وثيقة تعرف ب(عهد عمر)الذي قيل: انه عقده مع نصارى بيت المقدس على انه من المؤكد ان هذه الوثيقة وضعت في عهد متأخر عن أيام عمر)ويقول

(١) أنظر جرجي زيدان التمدن الاسلامي ج٤ ص١٠٩.

(٢) ابن ابي أصيبعة عيون الانباء في طبقات الاطباء ج٢ ص١٢٧ طبع بيروت دار الفكر ١٩٥٦.

(٣) أنظر
Chafih Chehata, The Encylopedia of Islam (New Edition) Leidan Brill 1965. p. 231

زيدان(١) : انه(العهد)وضع في أوائل القرن الثالث الهجري لاننا لا نجد اشارة اليه قبل ذلك التاريخ).

ويذكر ارنولد(٢)ان هذه الشروط تمثل ما كان في العصور المتأخرة من تصرفات أشد تعصباً وأبعد عن التسامح ، وهناك شواهد كثيرة تبين ان المسيحيين قلما كانوا في عهد الفتوح الاسلامية الاولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم ويؤيد هذا الرأي بارتولد(٣)بقوله(وأخذت حالة النصارى تسوء منذ منتصف القرن الثالث الهجري ، وربما كان للاضطهادات التي وقعت على المسلمين واليهود في بلاد النصارى في القرون الوسطى اثر في هذا ، ولم يكن يطلب الى النصارى تنفيذ الشروط حرفياً ، كارتدائهم ثوباً مميزاً لهم طبقاً لما ورد فيما نسب الى عمر ، فكان العمال النصارى يلبسون أثواباً كأثواب عظماء المسلمين ويجعلون لأنفسهم مقاماً عالياً أمام العامة).

ويعقب سعيد بن بطريق(٤)(ت٣٢٨هـ-٩٣٩م)على زي النصارى في العهود الاسلامية فيقول(ولم تزل النصارى يلبسون السواد ويركبون الخيل حتى أيام المتوكل)وقد أشار Shedd (٥)الى الرسالة التي بعثها البطريق النسطوري يشوع باف الثالث الى رئيس أساقفة فارس جاء فيها (ان العرب الذين منحهم الله زمام العالم في هذه الاونة أصبحوا في صفنا كما تعلمون وهم لا يضطهدون المسيحية بل يمتدحون عقيدتنا ويحترمون قسيسينا ، وقديسينا ويساعدون كنائسنا وهياكلنا).

ان معاملة عمر لاهل الذمة جاءت انطلاقاً من مبادىء الرسول فقد روي عنه ، انه قال(من ظلم معاهداً او كلفه فوق طاقته فانا حجيجه)(٦)ويؤيد

(١) أنظر جرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج٢ ص١١١.

(٢) أنظر ارنولد الدعوة الى الاسلام ص٧٧ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١ .

(٣) انظر بارتولد تاريخ الحضارة الاسلامية ص٥٥ ط٣ دار المعارف بمصر .

(٤) سعيد بن بطريق التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص٥٩ مطبعة الاباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٩ .

(٥) Shedd: Islam and the orieontal churches p. 110 (Philadephia 1904)

(٦) ابو يوسف الخراج ص١٢٥

ارنولد(١)ذلك بقوله(ويمكننا ان نحكم ان الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بان القوة لم تكن عاملا حاسماً في تحويل الناس الى الاسلام فمحمد نفسه قد عقد حلفاًمع بعض القبائل المسيحية، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة ان ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة).

كما ان هذا العهد يتنافى مع ما جاء به القرآن الذي يتجلى فيه التسامح الديني فقال تعالى(لا اكراه في الدين)(٢)وقال(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين)(٣).

وقال تعالى(اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم)(٤).

وقال تعالى(ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبان وانهم لا يستكبرون)(٥)كما يتجلى في العهود والمواثيق التي أعطاها الرسول والخلفاء والقواد المسلمون لاهل البلاد المفتوحة من الذميين، ومما جاء في عهد الرسول لنصارى نجران(ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد على أموالهم وملتهم وبيعهم. وكل ما تحت أيديهم من قليل او كثير)(٦)ويعلل fattal (٧) على اجراءات الرسول بقوله(ان النبي أظهر حرية تامة بالنسبة للكفرة لانه اراد ان يكسبهم الى الاسلام عن طريق

(١) ارنولد الدعوة الى الاسلام ص٦٥

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦

(٣) سورة الممتحنة آية ٨.

(٤) سورة المائدة آية٤

(٥) سورة المائدة آية ٨٢

(٦) ابو يوسف الخراج ص٧٢

(٧) Fattal, le statut legal Des Non. Muslmans p. 159

الاقناع) وان ما جاء في عهد خالد بن الوليد لاهل عانات(...ولهم ان يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل او نهار الا في أوقات الصلوات وان يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم).(١)

ويبدو ان هذا العهد وضع اولا في بلد اسلامي كانت نسبة النصارى فيه عالية بالنسبة لبقية طوائف اهل الذمة، وانه على الارجح بلاد الشام كما نسب الى العهد. و يحتمل انه وضع زمن عمر بن عبدالعزيز، ونسب خطأ بطريقة النقل او الاسناد الى عمر بن الخطاب لزيادة قيمة العهد وليتقيد به الخلفاء، والذي يجعلنا نشك في نسبة العهد لعمر هو عدم تقييد من جاء بعده من الخلفاء الراشدين كعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ولم يؤكدوا عليه.

كما أن العلاقة السيئة بين الامويين والبيزنطيين وارتباط بعض من نصارى الشام بالكنيسة والحكومة البيزنطية وقيام بعضهم بنقل أخبار المسلمين والتجسس عليهم او قيامهم بايواء الجواسيس الروم، مما دفع بعض الخلفاء الى التشديد عليهم في الزي والركوب لتمييزهم عن المسلمين.

واذا آمنا جدلا بصحة العهد فان خلفاء المسلمين لم يفعلوا ذلك تعصباً او كرهاً للنصرانية، وإنما حماية لهم وللدولة، ثم أطلق الفقهاء وغيرهم من الخلفاء هذا العهد على سائر أهل الذمة فيما بعد ولكن بدرجات متفاوتة.

(١) ابو يوسف الخراج ص١٤٦.

الدكتور عباس حسين الدباغ

صناعة النفط والصراع الطبقي في الشرق الاوسط

تحتل صناعة نفط الشرق الاوسط مكانا مرموقا في الدراسات الاقتصادية الحديثة لما لهذه الصناعة من اهمية كبيرة في الاقتصاد العالمي والمحلي من جهة ولما للنفط من أهمية بالغة كمادة اولية استراتيجية لا غنى عنها لاي بلد من بلدان العالم من الجهة الاخرى اضافة الى ندرة هذه المادة الحيوية وعدم توفرها وامكانية الحصول عليها في بقية مناطق العالم بجهود اعتيادية وبتكاليف منخفضة.

وحتى بداية القرن الحالي (١٩٠٤) لم تكن هناك اية صناعة للنفط في الشرق الاوسط لاسباب كثيرة لعل اهمها قلة الطلب العالمي للنفط،الا انه بزيادة اهمية النفط لا ستعماله وقوداً اولا ولأنه مادة اولية لمختلف الصناعات ثانيا بدأت البلدان الرأسمالية المتقدمة تبحث عن المصادر الغنية للنفط في الكرة الارضية لتضعها تحت تصرفها وتستفيد منها كمصدر لا غنى عنه للطاقة وللارباح الخيالية.فكان ان تدفقت رؤوس الاموال الاجنبية على بلدان الشرق الاوسط لتستغل هذه الثروة العظيمة الهائلة.وما ان حلت نهاية النصف الاول من القرن العشرين حتى كانت صناعة استخراج نفط الشرق الاوسط صناعة جبارة لا تقل اهمية وتقدما عن مثيلاتها في البلدان الرأسمالية المتقدمة.

وتتميز هذه الصناعة بكونها صناعة استخراجية،اي تنحصر فعالية شركات النفط في التحري والتنقيب واكتشاف مكامن النفط ومن ثم استخراجه وبيعه خاما للبلدان الاخرى.وهي ايضا صناعة ترتبط بأقتصاديات الدول الاجنبية وتخدم مصالح الاقتصادية لتلك الدول اكثر من ارتباطها بالمصالح الاقتصادية لبلدان المنطقة.

ومنذ نشوء هذه الصناعة في الشرق الاوسط والى الآن تتصارع ثلاث قوى رئيسة.وتتوقف مسألة تطور هذه الصناعة اللاحق على نتيجة هذا الصراع

العنيف الذي يكتسب مظاهر واشكال غاية في التعقيد والتشعب.

واولى هذه القوى هي الشركات الاجنبية التي تمثل طبقة الرأسماليين في الدول الاستعمارية.فجميع رؤوس الاموال المستثمرة في صناعة نفط الشرق الاوسط كانت حتى وقت قريب تمولها وتسيطر عليها (ثماني شركات عالمية هي ـ خمس منها امريكية وواحدة بريطانية وواحدة بريطانية ـ هولندية وواحدة فرنسية)(١).ولم يدخل الرأسمال الوطني الى هذه الصناعة الا في فترة متأخرة جداً. وحتى الوقت الحاضر لا تزال نسبة رؤوس الاموال الوطنية المستثمرة في هذه الصناعة قليلة للغاية لاسباب عديدة اهمها وجود السيطرة الاجنبية المتحكمة في هذه الصناعة ووقوفها ضد مساهمة رؤوس الاموال الوطنية في بناء هذه الصناعة وادارتها وتطويرها.

جدول (١)

التوزيع التقديري لمجمل قيمة الموجودات الثابتة في صناعة نفط الشرق الاوسط والجهات التي تمتلكها وتسيطر عليها عند بدء عامي ١٩٤٧و١٩٥٩. مقدرة بملايين الدولارات وبنسبتها المئوية(٢).

البلد	ملايين الدولارات		النسب المئوية	
	١٩٤٧	١٩٥٩	١٩٤٧	١٩٥٩
الولايات المتحدة الامريكية	٣٦٠	١٨٥٠	٤٠	٥٠
المملكة المتحدة	٤٠٠	٦٨٠	٤٤	١٨
فرنسا	٧٠	٢٠٠	٨	٥
هولندا	٧٠	١٢٥	٨	٣
أقطار أخرى	—	٨٧٠	—	٢٤
المجموع :	٩٠٠	٣٧٢٥	١٠٠	١٠٠

(١) شارلس عيساوي ومحمد يغانة ـ اقتصاديات نفط الشرق الاوسط ـ ترجمة حسن أحمد السلمان بغداد ١٩٦٦ ص١٠٧.

(٢) عيساوي ويغانة نفس المصدر،ص ١١٠.

ان الهدف المباشر الذي تسعى رؤوس الاموال المستثمرة في هذه الصناعة الى تحقيقه هو الحصول على الارباح الطائلة، ونظرة واحدة في الجدول رقم(٢) تعطينا فكرة واضحة عن مقدار الارباح الخيالية التي جنتها وما زالت تجنيها الاستثمارات الاجنبية من استغلال نفط الشرق الاوسط بالرغم من تحفظاتنا في هذه الارقام.

جدول(٢)

النسبة المئوية للارباح على الاموال المستثمرة في صناعة النفط في الشرق الاوسط
مليون دولار(٣)

تقديرات ادارة التجارة الامريكية:	٩٥٨	٩٥٩	٩٦٠	معدل السنوات الثلاث
معدل الاستثمارات	١١٥٤	١١٨٣	١١٤٥	١١٦١
الارباح على الاموال المستثمرة	٦٥٣	٥٨٧	٧١١	٦٧٢
النسبة المئوية للارباح على الاموال المستثمرة	٪٥٧	٪٥٠	٪٦٣	٪٥٦
تقديرات شركة ارثر دي ليتل:				
معدل الاستثمارات	١١٧٢	١١٩٨	١٢١١	١١٩٤
الارباح على الاموال المستثمرة	٧٩٥	٧٩١	٨٧١	٨١٩
النسبة المئوية للارباح	٪٦٨	٪٦٦	٪٧٢	٪٦٩

وتبدو لنا ضخامة الارباح واضحة اذا ما علمنا ان أكبر نسبة للارباح يمكن أن تحققها اية شركة أوربية من رؤوس اموالها المستثمرة في أية صناعة او أي

(٣) مجلة نفط العرب-العدد الثالث-كانون ثاني ٩٦٩٠، ص١٤.

قطاع من قطاعات الانتاج في أوربا، لا يمكن ان تزيد بأي حال من الأحوال على ٢٥٪(٤)من رأس المال المستثمر. كما تبين المعطيات التالية مقدار الارباح التي حصلت عليها الشركات من أستغلالها للنفط في الشرق الاوسط على الرغم من أن هذه الارقام هي دون الواقع بكثير.

جدول(٣)

صافي الاستثمارات في الموجودات الثابتة وصافي المبالغ المحولة للخارج تمثل صافي دخل شركات النفط في الشرق الاوسط (مقدرة بملايين الدولارات) (٥).

	١٩١٣–١٩٤٧	١٩٤٨–١٩٦٠
صافي الاستثمارات في الموجودات الثابتة	٤٢٥	١٣٢٠
المبالغ المخولة الى خارج الاقليم	١٧٢٥	١٢٨٣٣
المجموع ويمثل صافي دخل شركات النفط	٢٢٥٠	٢٨٣٩٢

ورأس المال الاجنبي الذي تمثله الشركات الاجنبية كان ولا يزال في صراع ونزاع من أجل الاستحواذ على الحصة الكبرى من هذه الارباح عن طريق ازاحة منافسيه من الميدان والحلول محلهم. فمن الجدول رقم(١)نرى ان رؤوس الاموال الانكليزية، قد انخفضت حصتها النسبية في الفترة ١٩٤٧–١٩٥٩ على الرغم من ازدياد حصتها المطلقة، وكذلك الحال بالنسبة لرؤوس الاموال

(٤) للحصول على تفصيلات اكثر راجع مجلة نفط العرب العدد الثالث–كانون الثاني ١٩٦٩.
(٥) عيساوي ويغانة–مصدر سابق–مقتبسة من الجدول ٤ الملحق بالكتاب

الفرنسية والهولندية.وظهرت في صناعة نفط الشرق الاوسط قوى منافسة جديدة تتمثل في رؤوس الاموال اليابانية والايطالية والالمانية والكندية، كما وان بعض أقطار الشرق الاوسط قد بدأت باستثمار رؤوس اموالها في صناعة النفط من أجل انماء ما في بلادها من صناعة.ولقد ادى دخول المنافسين الجدد الى احداث تغيرات جذرية في شكل وتوزيع ملكية صناعة النفط في الشرق الاوسط وأساليب السيطرة عليها.وجعلت البعض منها بيد مصالح وطنية مختلفة. فالشركات البريطانية التي تمتلك ٤٤٪ من اجمالي قيمة الموجودات الثابتة في ١٩٤٧ لصناعة نفط الشرق الاوسط، اصبحت لا تمتلك الا ١٨٪ منها في ١٩٥٩ في الوقت الذي ارتفع فيه نصيب الشركات الامريكية من ٤٠٪ الى ٥٠٪، وكذلك ارتفع نصيب اقطار أخرى(ايطالية ويابانية والمانية الخ.)والتي لم تكن تملك شيئاً في صناعة النفط عام ١٩٤٧ الى ٢٤٪ في عام ١٩٥٩.

وملاحظة أخرى لابد من الاشارة اليها في هذا الصدد،وهي أن رؤوس الاموال المستثمرة في صناعة النفط حالياً لم تستورد كلها الى الشرق الاوسط، بل ان ما أستثمر في البداية كان بنسبة ضئيلة للغاية، وقد تضاعفت مبالغ الاستثمارات بمرور السنين عن طريق اعادة استثمار جزء من الارباح الهائلة التي تحصل عليها الشركات في صناعة نفط الشرق الاوسط ذاتها.

كما ولابد من أن نشير الى ان الصراع والتناقض بين الشركات الاجنبية المسيطرة على صناعة النفط هو تناقض ثانوي، اذا ما قورن مع الصراع والتناقض بين هذه الشركات ككل من جهة وحركة التحرر الوطني في المنطقة من جهة أخرى.

فالشركات على الرغم من خلافاتها تنسق فيما بينها سياسة الاستثمار وتوزيع الاعمال والارباح...الخ.ويشير الكاتب الامريكي فيني الى هذه الحقيقة بوضوح عندما يقول(لعل البريطانيين كانوا يدركون ان قوتهم كانت محدودة، وان أفضل من يمكن اشراكهم ــ مادام الامر كذلك ــ هم الامريكيون، إذ أن السياسة العامة للولايات المتحدة كانت الانسياق وراء السياسة البريطانية في هذه المنطقة

النائية المعقدة بحيث لا يخشى منها ان تقوم بعرقلة السياسة البريطانية(٦).

اما القوة الثانية في هذه الصناعة العملاقة، فهي الحكومات المحلية. فمن المعلوم ان ملكية النفط تعود من الناحية القانونية للحكومات المحلية، وذلك لسببين رئيسين الاول ان ملكية باطن الارض منفصلة عن ملكية سطحها في الشرق الاوسط، فاذا ملك شخص ما سطح الارض، فان ما تحويه تلك الارض من كنوز وثروات سواء كانت أثرية أو معدنية أو غيرها تعود للحكومة. والثاني أن الارض ككل سواء كان في ذلك سطحها ام باطنها تعود من حيث الملكية للحكومة نتيجة لتطور تاريخي(...وبقدر ما يختص الامر بالعراق، فقد أعتبرت أراضيه بموجب أحكام الشرع الاسلامي من الأراضي الخراجية التي تعود رقبتها الى الدولة التي تنوب عن المسلمين كافة. ومنذ تشريعات عمر استقرت الأحكام الفقهية حول أراضي العراق، بأن تكون ملكيتها جماعية وما يجنى منها من أموال الجزية والخراج ينفق على المصالح الجماعية للمسلمين كافة. وصار هذا الحكم مجمعاً عليه من كافة علماء المسلمين وفقهائهم من القرن الاول للهجرة حتى يومنا هذا......

وعندما احتل العثمانيون العراق عام ١٥٣٤ اعتبروا جميع الأراضي فيه ملكاً للدولة، عدا الأراضي الموقوفة. وهذه القاعدة قد أخذت بها الدولة العثمانية في بقية ولاياتها الأخرى أساساً شرعياً تستند اليه في اثبات حق رقبتها للاراضي الواقعة ضمن الامبراطورية...)(٧).

ولذلك فان الرأسمال الأجنبي في استغلاله للثروة النفطية في المنطقة كان لابد له ان يتعامل مع الحكومات المحلية التي كانت حكومات أقطاعية ترتبط بحكم وضعها ومركزها الطبقي بالاستعمار والسيطرة الاجنبية.

---

(٦) دافيد.هـ.فيني: بترول الصحراء–ترجمة ابراهيم الناظر–بيروت ١٩٦٠ صفحة ٦٤.
(٧) الدكتور كمال محمد سعيد الخياط–التطور التاريخي لحيازة الارض وعلاقات الملكية في الريف العراقي. مجلة الاقتصادي–بغداد–العدد الثاني حزيران ١٩٧٠.

ولقاء حصول الشركات الاجنبية على حق استغلال النفط تنازلت عن قسم من الارباح التي تجنيها من هذه الصناعة للحكومات المحلية، وأصبحت حصة الحكومات المحلية من أرباح صناعة النفط تشكل فيما بعد الجزء الأكبر من دخل هذه الحكومات، فلقدبلغت مدفوعات شركات النفط المباشرة الى حكومات أقطار الشرق الاوسط خلال الفترة ما بين ١٩١٣–١٩٦٠ مبلغ ٩٩٤٤ مليون دولار(٨) ويشير الجدول التالي الى حصة الدخل المباشر من شركات النفط من دخل الحكومة الاجمالي في بعض بلدان الشرق الاوسط(٩) بملايين الدولارات .

البلد	السنة	مجموع دخل الحكومة	الدخل المباشر من شركات النفط	النسبة المئوية
ايران	٥٥–١٩٥٦	٢٥٥/٨	٩٨	٣٨/٣
الكويت	٥٣–١٩٥٤	١٧٣/٣	١٦٨/٨	٩٧/٤
	٥٤–١٩٥٥	١٩١/٣	١٨٤/٨	٩٦/٦
	٥٥–١٩٥٦	١٩٤/٧	١٨٨/٩	٩٧
المملكة				
العربية	٥٢–١٩٥٣	٢٠٤/٦	١٥٣/٩	٧٥/٣
السعودية	٥٤–١٩٥٥	٣٦١/٨	٢٥٨/١	٧١/٣
العراق	٥٣–١٩٥٤	٢٧٩/٥	١٤٠/٤	٥٠/٢
	٥٤–١ ٥٥	٣٠٧/٦	١٥٥/٠	٥٠/٤
	٥٥–١٩٥٦	٣١٨/٦	١٦٩/٢	٥٣/١

ومن الطبيعي ان ينشب الصراع بين الشركات الاجنبية والحكومات المحلية حول مقدار حصة الاخيرة من ارباح صناعة النفط. فكلا الجانبين يعملان على زيادة الارباح عن طريق زيادة الانتاج وتخفيض التكاليف ولكن كل منهما

(٨) عيساوي ويغانة–مصدر سابق–صفحة ٢٤٤.
(٩) دافيد.هـ.فيني–مصدر سابق–صفحة ١٩١.

يحاول في نفس الوقت ان يزيد حصته من الارباح على حساب الطرف الاخر. وتطورات نصف القرن الماضي في هذه القضية تبين ان الحكومات قد أحرزت تقدما ملحوظا في زيادة حصتها من الارباح فبعد ان كانت لا تحصل الا على اربعة شلنات انكليزية عن كل طن نفط مصدر للخارج في وقت بلغت فيه قيمة طن النفط المصدر اكثر من ١٥٠ شلنا نرى انها تحصل الان على ٥٥٪ من الارباح الصافية اضافة الى الايجار. ولقد حصلت حكومة العربية السعودية مثلا على دخل من شركات النفط في عام ١٩٦٩ يساوي اكثر من الف مليون دولار وكذلك حكومة ايران في حين حصلت الكويت على ٨١٢ مليون وليبيا على ١١٣٢مليون دولار (١٠) والجدول التالي يبين نسبة اقتسام ارباح شركات النفط من عمليات استغلال نفط الشرق الاوسط بينها وبين الحكومات المحلية وارتفاع حصة الحكومات في السنوات الاخيرة مقارنة بما كانت عليه قبل خمسينات هذا القرن.

جدول (٥)

مقارنة صافي الدخل المقدر لصناعة النفط مع المدفوعات المباشرة الى حكومات الاقطار المنتجة للنفط من ١٩٠٣ حتى ١٩٦٠ بملايين الدولارات (١١).

البلد	صافي الدخل المقدر				المدفوعات المباشرة
	١٣–٩٤٧	٤٨–٩٥٣	٥٤–٩٦٠	١٣–٩٦٠	١٩١٣– ١٩٦٠
عدن	—	—	٦٠	٦٠	—
البحرين	١٢٩	٢٤٥	٢٥٤	٦٢٨	١١٠
ايران	١/٥٦٧	٨١٦	١٤٥١	٣٨٣٤	١٨٨٤
الكويت	٦٧	١٢٥٠	٣٠٠٥	٤٣٢٢	٢٥٠٩
قطر		٩١	٣٤٠	٤٣١	٣٤٥
العربية السعودية	١١٩	١٧١٧	٢٥٧١	٤٤٠٧	٢٨٨٩

(١٠) Petroleum Press Service.Sep.1970. p.8

(١١) عيساوي ويغانة–مصدر سابق–ص٢٢٨.

والقوة الثالثة هي الطبقة العاملة، فقبل قيام صناعة النفط في الشرق الاوسط لم يكن هناك عمال بالمعنى المعروف للكلمة وذلك لطبيعة الاقتصاد الزراعي الذي كان سائدا آنذاك. وبعد قيام صناعة النفط نشأت طبقة عاملة في اقطار الشرق الاوسط من العمال العاملين في هذه الصناعة او في الصناعات والنشاطات الاقتصادية الاخرى وكان قيامها مرتبطا بقيام صناعة النفط سواء من حيث كونها صناعة تكميلية لصناعة النفط وضرورية لاستمرارها،او من حيث كونها صناعات مستقلة ولكنها نشأت بفعل تراكم بعض رؤوس الاموال لدى البرجوازيين المحليين.

لقداعتمدت صناعة النفط على الايدي العاملة المحلية لعوامل عديدة اهمها رخص هذه الايدي العاملة .فعلى الرغم من ان اجور عمال النفط هي أعلى من اجور عمال القطاعات الاقتصادية الاخرى واعلى في بعض الاحيان حتى من الحد الادنى المقرر رسميا للاجورفأن اجور عمال نفط الشرق الاوسط هي منخفضة للغاية مقارنة بأجور عمال هذه الصناعة في البلدان الرأسمالية المتقدمة.

جدول (٦)

الاستخدام المباشر في صناعة نفط الشرق الاوسط خلال الفترة ٩٤٨-٩٦٠(١٢)

البلد	١٩٤٨	١٩٥٠	١٩٥٤	١٩٥٨	١٩٦٠
عدن	—	—	٢٢٧٢		
البحرين	٦٠٧٨	٧٧٤٩	٨٥٣٢	٨٤٥٥	٧٦٨٤
أيران	٥٠٣٩٣	٥٥٩٧٠	—	٥٧٣٠٩	٥٤٠٣٠
العراق	١٤٢٤١	١١٣٧٤	١٢٧٧٠	١٥٩٨١	١٦٧٠٢
الكويت	١٠٢٢٣	١٠١٦٤	٨٠١٤	٩٣٦٤	٧١٦١
العربيةالسعودية	١٨٦٣٧	١٦٨٦٠	٢١٨٥٨	١٧١٧١	١٤٨٣٤

(١٢) عيساوي ويغانة-مصدر سابق-ص١٨٤.

فلقد كان معدل مجمل الدخل الشهري للعمال الذين تدفع لهم اجور يومية في الكويت والمستخدمين لدى شركةنفط الكويت ٦٠٣ روبية شهريا او ما يعادل ١٥٠٠ دولار سنويا في شهر كانون الاول ١٩٥٨ وارتفع الى ٦٧٠ روبيه شهرياًاوما يقرب من ١٧٠٠ دولارسنويا في كانون الاول١٩٥٩وفي العربية السعودية تضاعف معدل الدخل السنوي للعمال العرب خلال الفترة مابين ٩٥٣–١٩٥٩ فبلغ ٧٠٨٢ ريالا او ١٨٨٨ دولارا عند نهاية سنة ١٩٥٩ في حين ان الدخل السنوي للعامل المشتغل في صناعة النفط في الولايات المتحدة لعام ١٩٤٨ بلغ ٣٤٧٠ دولارا للعامل المشتغل في التصفية وفي سنة ١٩٥٨ بلغت تلك المدخولات ٥٧٠٠ دولارا للعامل المشتغل في انتاج النفط الخام والغاز الطبيعي و ٥٩٧٠ دولارا للعامل المشتغل في التصفية اما في فنزويلا فكان الحد الادنى للاجور اليومية دولارين عام ١٩٥٠و٣/٧ دولار عام ١٩٥٩ ولقد بلغت كلفة العمل بالنسبة للعامل الواحد في شركة نفط كريبول لعام ١٩٥٠ خمسة الاف واربعمائة دولار ولعام ١٩٦٠ مايقرب من ٩٦٠٠ دولار (١٣).

كما ان مستوى الاجور لا يتناسب مع مقدار ما ينتج من النفط الخام بالنسبة للعامل الواحد في الشرق الاوسط ولا مع مقدار الارباح الصافية التي تحصل عليها الشركات.

كل ذلك يؤكد حقيقة الاستغلالالبشع الذي يخضع له العمال العاملون في شركات النفط الاجنبية،والطبقة العاملة في البلدان المنتجة للنفط.ولذلك كان لابد ان تخوض الطبقة العاملة صراعاً عنيفاً مع الرأسمال الاجنبي وتشن نضالا حازماً ضد هذا الرأسمال في سبيل حقوقها المشروعة من زيادة الاجور وتخفيض ساعات العمل وتوفير الظروف الملائمة للعمل..الخ

من كل ما جاء أعلاه يمكننا أن نستنتج الحقائق التالية :

---

(١٣) عيساوي ويغانة–مصدر سابق–ص١٨٦–١٨٧.

١- ان التناقض بين الطبقة العاملة والرأسمال الاجنبي هو التناقض الاساسي في صناعة نفط الشرق الاوسط.وإن الطبقة العاملة عندما تدافع عن حقوقها وتناضل ضد الرأسمال الاجنبي يقف معها في هذا النضال كل الشعب الذي يطالب بتصفية وجود هذا الرأسمال ويكتسب النضال صفة وطنية عامةبأعتباره نضالا ضد الاستعمار وشركاته الاحتكارية،ويصبح جزءاً من حركة التحرر الوطني التي تستعر في العالم كله ، والتي تلحق الهزائم بالاستعمار ومواقعه في مختلف أقطار العالم.ولذلك يلاقي التأييد والمساندة من كل أحرار العالمومنظماته الثورية.

٢- ان الخلافات والتناقضات بين الرأسمال الاجنبي والحكومات المحلية الاقطاعية والمرتبطة بهذا القدر او ذاك بالاستعمارليست هي الاساسية وذلك لان الطرفين لهما مصلحة مباشرة في زيادة الارباح وتشديد استغلال العمال، ونهب ثروات الشعب.ولكن يجب ذكر حقيقتين مهمتين وهما انه من الممكن الاستفادة من التناقض بين الحكومات المحلية وشركات النفط الاجنبية،وتوجيه هذا التناقض نحو المصلحة الوطنية،ووضعه في خدمة حركة التحرر الوطني اولا،كما يجب علينا ان نميز حقيقة وطبيعة الحكومة المحلية التي يعتمد موقفها من شركات النفط على هذه الطبيعة ثانياً.فالحكومات الاقطاعية المعزولة لابد ان يكون موقفها من الشركات الاجنبية اكثر تساهلا ،ومن الشعب اكثر تشدداً،وهي تقف الى جانب الشركات على طول الخط،و لا يهمها من المصلحة الوطنية العليا الا ما يخدم مصالحها الطبقية الانانيةبهذا القدر او ذاك.اما الحكومة التي تمثل الشعب وجماهيره الكادحة فانها لابد ان تقود نضال هذه الجماهير ضد الرأسمال الاجنبي،وتعمل على تصفية مواقعه ومرتكزاته وتسترجع حقوق الشعب المنهوبة.ولذلك فأن مثل هذه الحكومة ستجابه بالمحاربة لا من قبل الشركات الاجنبية والدول الاستعمارية التي تقف وراءها فحسب،وإنما من قبل الحكومات الأقطاعية الضالعة في ركاب الشركات أيضاً في الوقت الذي تلاقي فيه أوسع التأييد والمساندة من جماهير الشعب،وكل قواها الوطنية الى أبعد الحدود.

٣ـ كما أشرنا في بداية البحث هناك تناقضات بين الشركات الاجنبية في سبيل الاستحواذ على أكبر نسبة من الارباح على حساب الشركات الاخرى الا أن هذه الشركات تقف جبهة واحدة في صراعها ضد حركة التحرر الوطني في المنطقة، وتعمل بالتحالف مع الطبقات الرجعية على تكريس وجودها وادامته بمختلف الطرق والوسائل وفي مقدمتها تكريس التخلف الاقتصادي والاجتماعي وتوجيه التطور الاقتصادي وجهة تخدم مصالحها بالدرجة الاولى، وكذلك القضاء على حركة التحرر الوطني وتصفية وجودها او عوامل نشوئها. مستخدمة في ذلك كل امكاناتها وتجربة الاستعمار العالمي في هذا المجال الى أبعد الحدود.

٤ـ ان الثروة النفطية هي ملك لكل الشعب ويجب ان تكرس لخدمة الشعب كله ولمصلحته في التقدم والتطور وان استيلاء الاحتكارات الاجنبية وحلفائها من الاقطاعيين وعملاء الاستعمار المحليين على ارباح هذه الثروات ما هو الا نتيجة للسيطرة الاستعمارية المباشرة في هذه المنطقة ولذلك فأن تصفية المواقع الاستعمارية ستعني قبل كل شيء انتزاع هذه الثروات من براثن الاحتكارات ووضعها في خدمة مصلحة الشعب. ان الحكومات الاستعمارية التي تشعر بخطر عودة الثروات النفطية لاصحابها الشرعيين على مصالحها تلجأ الى اتباع مختلف الاساليب من اجل توجيه الدعوة المطالبة بوضع الثروة النفطية في خدمة المصالح الشعبية وجهة اخرى تخدم مصالحها الآنية والبعيدة المدى وما الاتفاقيات المعقودة بين حكومة ايران الاقطاعية والشركات الاحتكارية وكذلك الدعوات المشبوهة للدخول مع الشركات في اتفاقيات طويلة الامد تضمن للشركات البقاء والاستمرار في نهب نهب الثروات النفطية الا جزء من المحاولات الكثيرة في هذا المجال.

الدكتور: محمد أزهر السماك

«دراسة تحليلية:

للابعاد الجغرافية لاتجاهات النمو السكاني في العالم»

تهتم الدراسات الجغرافية عامة اهتماماً بالغاً بالسكان. وكيف لا؟وان الجغرافية اصلا تعني: دراسة الارض بوصفها موطن الانسان.اي دراسة الانسان في مركبه البيئي.لذلك،فان كافة النظريات السكانية:الديموغرافية والاثنوغرافية والاقتصادية يمكن ارجاع اصولها الى الأطار الجغرافي الذي انبثقت عنه، حتى يتسنى معرفة جوهرها وماهيتها وابعادها.

وعليه،فان هذا البحث يحاول دراسة الابعاد الجغرافية لاتجاهات النمو السكاني في العالم،لكي يمكن رسم ملامح الصورة المستقبلة لخريطة العالم السكانية وضوابطها.وعلى هذا الاساس،فان هذه الدراسة ستتضمن بحث النقاط التالية،وهي:—

أولا— توطئة

ثانيا— تطور النمو السكاني في العالم.

ثالثا— دراسة مقارنة للنمو السكاني في العالم وعلاقته بتوزيع موارد الثروة، خلال السنوات ١٩٥٠/١٩٧١.

رابعا— مستقبل النمو السكاني في العالم.

أولاً- توطئة

يعاني سكان المعمورة حاليا من مشكلات سياسية واقتصادية عديدة. تتباين في مغزاها ومرماها ودرجة تعقيدها تباينا كبيراً. وتتربع مشكلة تزايد السكان على عرش هذه المشكلات جميعا. ذلك ان الابعاد الحقيقية لمشكلات العالم السياسية والاقتصادية هي في جوهرها مشكلات سكانية: جغرافية واثنوغرافية وديموغرافية.

وليس ادل على ذلك من ان اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية كان بدافع التنفيس من الضغط السكاني والتوسع الاقليمي. ذلك الشعار الذي رسم ابعاد الاستراتيجية لالمانيا النازية تأثرا بآراء هوسهوفر وزملائه من رواد الجغرافية السياسية في العالم(١).

ولا تقف المظاهر السلبية للنمو السكاني عند حد الصراع السياسي الدائر في انحاء العالم المتباينة بل تتعداها الى ابعد من ذلك. اذ الملاحظ ان حوالي ٧٠٪ من سكان العالم الآن يعانون من مشكلة نقص الغذاء (الجوع) وزهاء ٦٠٪ يشكون سوء التغذية. وهذا يعني ان حوالي ثلاثة ارباع سكان العالم قد سلبت قدراتهم وشل تفكيرهم وانخفض امل حياتهم فهنا يستوي الوجود الانساني والعدم. بسبب نقص وسوء تغذيتهم. في الوقت الذي نجد نسبة ضئيلة (٢٥٪) من السكان تحيا في ظل ظروف معاشية جيدة. ان سوء التوزيع الجغرافي لمعدلات النمو السكاني وموارد الثروة في العالم على مستوى الافراد والدول هي المسؤولة عن ملامح الصورة الحالية لخريطة العالم السكانية. تلك الصورة التي ترعب الاسرة العالمية جميعا. كما يستدل على ذلك من تأكيدات هيئة الامم المتحدة (اليونسكو)

---

(١) للوقوف على آراء هوسهوفر (١٨٦٩-١٩٤٦) راجع:
د- محمد السيد غلاب: الجغرافية الساسية ط٤ مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٠ ص ص ١٨-٢١ .
وكذلك د. محمد محمود الديب: الجغرافية السياسية، القاهرة ١٩٧٢، ص ص ٣٩٥-٤٠٢.

على ضرورة الاهتمام الجدي بالدراسات السكانية واعتبار العام الحالي، عام ١٩٧٤، هو عام السكان.

وعليه، فان البحث التالي يعتبر مساهمة فعلية في هذا المجال، بالاضافة الى انه يمثل دراسة تطبيقية للمنهج الجغرافي القائم على التوزيع والربط والتعليل، والذي يمكن ان يساهم في الدراسات التخطيطية المختلفة مساهمة جدية وهادفة.

ثانياً— تطور النمو السكاني في العالم:

لم يكن عدد سكان العالم يزيد على ١٠ ملايين نسمة حينما كان الانسان يمارس حرفتي الصيد وجمع القوت، وذلك قبل مئات الالاف من السنين في العصور الحجرية القديمة.(١) ولكن الانسان تعلم—خلال الفترة ٨٠٠٠—٦٠٠٠ ق.م، كيف ينتج غذاءه ويقيم مراكز استيطانه الاولى. فالانتقال من مرحلة جمع القوت الى مرحلة اعداده يعتبر تغييراً محفزاً لتزايد السكان الشكل رقم(١). ففي خلال السنوات ٦٠٠٠—٨٠٠٠ سنة التالية ازداد عدد السكان حتى بلغ نحو ٢٠٠—٣٠٠ مليون نسمة. وفي عام ١٦٥٠م بلغ زهاء ٥٠٠ مليون نسمة.

ويمكن القول ان تزايد السكان خلال هذه الفترة التي استغرقت نحو ١٠,٠٠٠ سنة كان بطيئاً جداً. غير ان تطور النمو السكاني خلال الفترة ١٦٥٠ وحتى عام ١٩٧١ تميز بمعدلات نمو سريعة عموماً. كما يظهرها

---

(١)

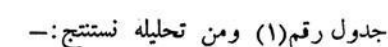
Population Bulletin , A puplication of the population Reference Bureau INC., April 1971, Vol. 27. No. 2. P.5.

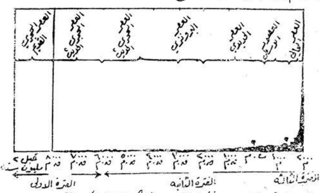
لمعرفة التفاصيل عن النمو السكاني أنظر:

Perpillou, A. V. "Human Geography, "Translated by laborade Longmans, 2nd ed. London 1960, PP. 343-346.

Shimm, M. G., "Population Control" وكذلك

Oceon a publications, INC., New York 1961, PP. 3-5.


جدول رقم(١) ومن تحليله نستنتج:-



عن Man's population Predicament : P. 4

شكل رقم (١)

التطور التاريخي لنمو السكان في العالم

جدول رقم (١)

نمو اعداد السكان في العالم خلال الفترة ١٦٥٠/١٩٧١.(١)

«مليون نسمة»

القارات	١٦٥٠	١٧٥٠	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠	١٩٥٠	١٩٧١
اوربا	١٠٠	١٤٠	١٨٧	٢٦٦	٤٠١	(٢)٥٧٢	٤٦٦
امريكا الشمالية	١	١ر٣	٥ر٧	٢٦	٨١	١٦٦	٢٣٠
امريكااللاتينية	١٢	١ر١١	٩ر١٨	٣٣	٦٣	١٦٢	٢٩١
الاوقيانوسية	٢	٢	٢	٢	٦	٦ر١٢	٨ر١٩
افريقيا	١٠٠	٥	٩٠	٩٥	١٢٠	٢١٧	٣٥٤
آسيا	٣٣٠	٤٧٩	٦٠٢	٧٤٩	٩٣٧	١٣٥٥	٢١٠٤
جملة العالم	٥٤٥	٧٢٨	٩٠٦	١١٧١	١٦٠٨	٢٤٨٦	٨ر٣٧٠٦

(١) United Nations: Statistical Year Book 1972, New York 1973 P. 8

(٢) بضمنه سكان الاتحاد السوفيتي(٢٤٥) مليون نسمة

١ــ لعل اهم مايلفت النظر عند دراسة النمو السكاني في العالم هو التطور السريع لاعداد السكان خلال القرنين الاخيرين.فقد قدر عدد سكان العالم عام ١٨٥٠بنحو ١١٧١مليون نسمة،بينما بلغ تعدادهم الان نحو٣٧٠٦مليون نسمة. اي زهاء اكثر من ثلاثة امثال ماكان عليه قبل قرن وخمس تقريبا.وهذا يشير الى ان نمو السكان خلال هذه الفترة يفوق نموهم خلال عمر الانسان على هذا الكوكب.اذ أستلزم الامر نحو مليون سنة لكي يبلغ عدد سكان العالم زهاء ١٢٠٠مليون نسمة،بينما اقتضاء الامر نحو١٢١سنة لمضاعفة هذا العدد الى ثلاث مرات تقريبا.وهذا يعني ان نمو حجم السكان وقتذاك كان يغلب عليه صفة الركود.وظلت الحال كذلك حتى اشراق عصر النهضة العلمية في القرن السابع عشر.عندما سخر الانسان بعقله وذكائه وقدراته الاختراعات العلمية المختلفة لاستغلال بيئته الجغرافية استغلالا افضل.

والحقيقة ان نمو حجم السكان لم يكن واحداً في جميع اقاليم او قارات هذا الكوكب،ولا متساوياً خلال تلك الفترة ايضاً،بل كان متغايراً تغايراً كبيراً، كما سنرى.

٢ــ اتسم النمو السكاني خلال الفترة١٦٥٠/١٨٥٠بالبطء الشديد، مما يمكن اعتبارها الفترة الانتقالية بين فترتي الركود(الاولى)والانطلاق(الثالثة). ذلك يرجع الى طبيعة الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة في العالم آنذاك،وما كان يصاحبها من انخفاض المستوى المعاشي والصحي وغيرهما. والتي انعكست في انخفاض نسب المواليد وارتفاع نسب الوفيات.

في حين شهدت الفترة مابعد١٨٥٠وحتى١٩٧١تحولا خطيرا في النمو السكاني (مرحلة الانطلاق).اذ بلغ عدد سكان العالم عام١٩٧١نمو اكثر من سبعة امثال ماكان عليه قبل اكثر من ثلاثة قرون بقليل.ومن البداهة ان يكون التطور الحضاري والتكنولوجي والصحي والاقتصادي هو المسئول عن ذلك.وما تبعه

من تغيرات اساسية في المستوى المعاشي والصحي للسكان وقد تمثل ذلك في انخفاض نسب الوفيات.

٣ـ شهدت السنوات ١٩٥٠/١٩٧١ نموا سكانيا خطيراً بمعدل زيادة بلغ نحو ٥٨مليون نسمة سنوياً.اي بزيادة قدرها٣٥٪ عما كان عليه قبل عقدين من الزمن تقريباً.اي ان العالم احتضن سنوياً خلال هذه الفترة قدر سكان فرنسا تقريباً .

٤ـ تضاعف عدد سكان اسيا نحو اكثر من ستة امثال ماكان عليه قبل ثلاثة قرون من الزمن تقريباً،في حين حقق النمو السكاني في اوربا زيادة قدرها اربعة امثال ماكان عليه خلال الفترة ذاتها. والحقيقة ان نمو اعداد سكانها كان متشابها خلال الفترة١٦٥٠/ ١٨٥٠.الاان التأثيرات الاقتصادية والمجتمعة المختلفة للنهضة الاوربية وما تلاها قد عمل على ضبط النمو السكاني في القارة الاوربية.بينما نجد ان اسيا شهدت قفزات سكانية ضفدعية هائلة،لاسيما خلال الفترة١٩٥٠/١٩٧١.

٥ـ التناقص النسبي لسكان القارة الافريقية خلال الفترة، ١٦٥٠/١٨٥٠ الذي يرجع اساساً الى الهجرات المستمرة من اجل توفير الرقيق . واجبار المستعمرين السكان الوطنيين للقيام بمختلف الاعمال الشاقة كالمناجم وبناء الطرق وفي ظل اقسى الظروف المعيشية والصحية.وعلى سبيل المثال ان بناء خط سكة الحديد الواصلة بين قلب الكونغو وساحل المحيط الاطلسي غرباً،الذي بني في فترة مابين الحربين قد كلف نحو زنجي واحد لكل عارضة خشبية (متر واحد)مقابل رجل أبيض واحد لكل ألف عارضة(كيلو متر)(١). هذا بالاضافة الى مستوى الحياة الاقتصادية والمعيشية المنخفض.

٦ـ ازداد عدد سكان الامر يكتين زيادة كبيرةخلال الفترة ١٩٠٠/١٩٧١ الذي يمكن ربطه بتزايد الهجرة اولا،والتطور الزراعي والصناعي والتجاري والثقافي الذي شهدته القارة الشمالية منهما على وجه الخصوص.

---

(١) انظر:أيف لاكوست:ترجمة د=.عبد الرحمن حميدة، العالم الثالث او جغرافية التخلف،دار الحقيقة،بيروت ١٩٧١،ص١٥٧ .

والحقيقة ان تباين النمو السكاني في العالم لايقتصر على ماسبق ذكره، اي على القارات وحدها، بل يمتد الى داخلية القارات ذاتها والى الدول المختلفة المكونة لها.فعلى سبيل المثال ان تزايد السكان في الصين الشعبية قد بلغ نحو٧٠ مليون نسمة خلال السنوات الخمس٥٣ /١٩٥٨في حين اتم نمو سكان فرنسا بالثبات النسبي.(١)

والخلاصة، يمكن القول بان تطور النمو السكاني عامة في العالم قد مر بالمراحل الثلاث التالية ، وهي : ـ

أ ـ مرحلة الركود السكاني منذ بدء الخليقة وحتى١٦٥٠.

ب ـ المرحلة الانتقالية من١٦٥٠وحتى١٨٥٠.

ج ـ مرحلة الانطلاق السكاني من١٨٥٠وحتى الان.

ولعل التطورات الحضارية والتكنولوجية والاقتصادية هي المسؤولة عن تحديد سمات مراحل تطور النمو السكاني هذه.التي انعكست آثارها في رفع نسب المواليد وانخفاض نسب الوفيات وطول امل الحياة للسكان.والسؤال الذي يطرح هنا: ماهي العلاقة بين تطور النمو السكاني في العالم وتوزيع الموارد الاقتصادية؟او ماهي صورة التفاعل بين الانسان وبيئته الجغرافية حاليا،وفي المستقبل؟هذا ماسنحاول الاجابة عنه في النقاط التالية.

ثالثاً ـ دراسة مقارنة للنمو السكاني وعلاقته بتوزيع موارد الثروة (أو دراسة الابعاد الجغرافية للنمو السكاني في العالم) خلال السنوات ١٩٥٠ ـ ١٩٧١ : ـ

يربو سكان العالم حاليا ـ مطلع السبعينات ـ على٣٫٧بليون نسمة.وقد ازداد بمعدل ٦٠مليون نسمة سنوياً خلال العقدين الماضيين من القرن الحالي.وبمعدل

(١) للتفاصيل انظر :

د.حسن الساعاتي ود.عبد الحميد لطفي:دراسات في علم السكان،مكتبة الانجلو المصرية القاهرة،١٩٦٣،ص ص ١٣-٢٣.

وكذلك فيليب هوسر ترجمة د. خليل حسن خليل:السكان والسياسات الدولية،مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر،القاهرة يناير ١٩٦٣،ص ص ٣٠-٤٥.

يزيد عن ٧٠ مليون نسمة بالنسبة لعام ٧٠/١٩٧١ اي بزيادة سنوية تبلغ نحو ٢٪. وهذا يعني ان سكان العالم يتزايد بمعدل مليون نسمة كل خمسة ايام، اي بمعدل ٣ر٢ نسمة في الثانية وبتعبير آخر فأن العالم يحتضن نحو ضعف سكان الوطن العربي او بقدر سكان الولايات المتحدة كل ثلاث سنوات.

غير ان معدلات نسب الزيادة هذه ليست على وتيرة واحدة في انحاء العالم، بل تتباين طبقا لاقاليمه المختلفة ، كما يظهرها جدول رقم (٢) الشكل (٢). ومن تحليله يتضح :

جدول رقم (٢)

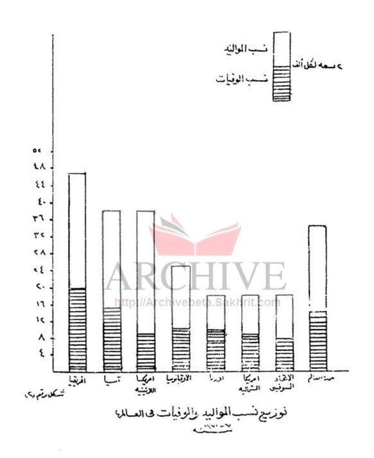
توزيع سكان ومساحة ومعدلات النمو السكاني في العالم للفترة ١٩٧١/٥٠ (١) (السكان بالملايين)

المناطق الرئيسية							المعدلات السنوية للنمو السكاني٪		المساحة الف كم	الكثافة
الاقاليم	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٦٣	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧١/٦٣	١٩٧١/٦٥	١٩٧١	١٩٧١
العالم	٢٤٨٦	٢٩٨٢	٣١٦٢	٣٢٨٩	٣٦٣٢	٣٧٠٩	٢ر٠	٢ر٠	١٣٥ر٧٨٣	٢٧
افريقيا	٢١٧	٢٧٠	٢٨٩	٣٠٣	٣٤٤	٣٥٤	٢ر٦	٢ر٦	٣٠ر٣٢٠	١٢
غربي افريقيا	٦٤	٨٠	٨٥	٩٠	١٠١	١٠٤	٢ر٥	٢ر٥	٦ر١٤٢	١٧
شرقي افريقيا	٦٢	٧٧	٨٢	٨٦	٩٨	١٠٠	٢ر٥	٢ر٥	٦ر٣٣٨	١٦
شمالي افريقيا	٥١	٦٥	٧١	٧٥	٨٧	٨٩	٣ر٠	٣ر١	٨ر٥٢٥	١٠
وسط افريقيا	٢٥	٢٩	٣١	٣٢	٣٦	٣٧	٢ر١	٢ر١	٦ر٦١٣	٦
جنوبي افريقيا	١٤	١٨	١٩	٢٠	٢٣	٢٣	٢ر٣	٢ر٤	٢ر٧٠١	٩
امريكا	٣٢٨	٤١٢	٤٤١	٤٦٠	٥١١	٥٢٢	٢ر١	٢ر١	٤٢ر٠٨٣	١٢

امريكا الشمالية	١٦٦	١٩٩	٢٠٨	٢١٤	٢٢٨	٢٣٠	١٫٣	١٫٢	٢١٫٥١٥	١١
امريكا اللاتينية	١٦٢	٢١٥	٢٣٢	٢٤٠	٢٨٣	٢٩١	٢٫٩	٢٫٩	٢٠٫٥٦٧	١٤
آسيا	١٣٥٥	١٦٤٥	١٧٥٤	١٨٣٣	٢٠٥٦	٢١٠٤	٢٫٣	٢٫٣	٢٧٫٥٣٢	٧٦
شرق آسيا	٦٥٧	٧٨٠	٨٢٢	٨٥٢	٩٣٠	٩٤٦	١٫٨	١٫٨	١١٫٧٥٧	٨٠
اليابان	٨٣	٩٣	٩٦	٩٨	١٠٣	١٠٥	١٫١	١٫١	٣٧٠	٢٨٣
جنوب أسيا	٦٩٨	٨٦٥	٩٣١	٩٨١	١١٥٦	١١٥٨	٢٫٨	٢٫٨	١٥٫٧٧٥	٧١
أسيا الوسطى	٤٨١	٥٨٨	٦٣٢	٦٦٥	٧٦٢	٧٨٣	٢٫٧	٢٫٨	٦٫٧٧١	١١٦
جنوب شرقي آسيا	١٧٣	٢١٩	٢٣٦	٢٤٩	٢٨٧	٢٩٥	٢٫٨	٢٫٦	٤٫٤٩٨	٦٦
جنوب غرب أسيا	٤٤	٥٨	٦٣	٦٧	٧٧	٧٩	٢٫٩	٢٫٩	٤٫٥٠٦	١٨
اوربا	٣٩٢	٤٢٥	٤٣٧	٤٤٥	٤٦٢	٤٦٦	٠٫٨	٠٫٨	٤٫٩٣٦	٩٤
غربي اوربا	١٢٢	١٣٥	١٤٠	١٤٣	١٤٩	١٥٠	٠٫٨	٠٫٧	٩٩٥	١٥٠
جنوبي اوربا	١٠٩	١١٨	١٢٠	١٢٣	١٢٨	١٣٠	٠٫٩	٠٫٩	١٫٣١٥	٩٩
شرق أوربا	٨٩	٩٧	٩٩	١٠٠	١٠٤	١٠٥	٠٫٨	٠٫٨	٩٩٠	١٠٦
شمالي أوربا	٧٢	٧٦	٧٨	٧٩	٨١	٨١	٠٫٦	٠٫٦	١٫٦٣٦	٥٠
الاوقيانوسية	١٢٫٦	١٣٫٨	١٦٫٨	١٧٫٥	١٩٫٤	١٩٫٨	٢٫١	٢٫٠	٨٫٥١٠	٢
الاتحاد السوفياتي	١٨٠	٢١٤	٢٢٥	٢٣١	٢٤٣	٢٤٥٠	١٫١	١٫٠	٢٢٫٤٠٢	١١

United Nations : Statistical Year Book 1972 (I) New York 1973, P.8

تتضمن المساحات اعلاه مساحة المسطحات المائية الداخلية، باستثناء المناطق غير المسكونة في الجهات القطبية وبعض الجزر الاخرى.



شكل رقم (٢)

توزيع نسب المواليد والوفيات في العالم

انافريقياواسياتحظى بأعلى معدلات الزيادة السنوية وهذا يشير الى ان هاتين القارتين ستستأثران بأكبر عدد ممكن من السكان .اما قارة اوربا فأن نسبة الزيادة فيها منخفضة وهي تمثل اقل المعدلات قاطبة.وهي لاتحظى الا بأقل من نصف

معدلات الزيادة السنوية لسكان العالم اجمع ،ونحو ثلث نصيب اسيا وبعبارة اخرى يمكن القول،ان اقطار العالم الثالث(١): الاقطار الناقصة العمران under-developed Countries ستشهد تضخما سكانيا هائلا، طالما انها تحظى بمعدلات زيادة سنوية عالية. بينما نلاحظ ان الاقطار المتقدمة Dereloped Countries أن نسبة النمو السكاني فيها محدودة جداً. (٠ر٨ ٪في اوربا عامة و٠ر١٪في الاتحاد السوفيتي و٢ر١٪في امريكا الشمالية).مما يمكن القول بأنها تمر في الدور الاستقراري من ادوار التطور الديموغرافي لنمو السكان.في حين يمكن القول ان اقطار العالم الثالث تمر في الدور الانتقالي الان.زد على ذلك ان بعضاً منها لايزال في الدور البدائي(٢).

نستخلص مما تقدم،ان اقطار العالم الثالث على الرغم من المستوى المعاشي والاجتماعي والصحي المنخفض الذي تحيا في ظله الان،الا انها ستشهد انفجاراً سكانياً خطيراً في المستقبل،مما يستلزم العمل الجاد الهادف من قبل الاسرة العالمية لحل مشكلات البشرية عامة والمشكلة السكانية بوجه خاص.

(١) يمكن ان نخضع كل سكان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بأستثناء الارجنتين واليابان والاتحاد السوفيتي(الجزء الاسيوي)تحت لواء اقطار العالم الثالث
للتفاصيل عن هذا الوضوع انظر :
ايف لاكوست:المصدر السابق، ص ص١٥-٣٣ .

(٢) يمكن تمييز ثلاثة أدوار ديموغرافية لنمو سكان المعمورة وهي :
آ- الدور البدائي -ومن سماته رتفاع نسب المواليد والوفيات (٤٥-٣٥ بالالف على التوالي) .
ب- الدور الانتقالي- تنخفض فيه نسبة الوفيات وتظل نسب المواليد على حالها تقريباً (٢٥-٤٥ بالالف على التوالي) .
ج- الدور الاستقراري- انخفاض نسب المواليد ونسب الوفيات(١٥-٧بالالف على الترتيب).
يعكس هذا التقسيم درجة التقدم الحضاري والتكنولوجي والاقتصادي والصحي للمجتمعات البشرية المختلفة.
للتفاصل انظر :
د. محمد السيد غلاب ود.محمد صبحي عبدالحكيم:السكان جغرافيا وديموغرافيا،مكتبة الانجلو المصرية،القاهرة ١٩٦٦.

والحقيقة ان التزايد السكاني السريع الذي تشهده اقطار العالم الثالث هذا يعكس بجلاء طبيعة الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة. متمثلة بسوء تخطيط استغلال مواردها الطبيعية والبشرية المتاحة.والذي يعكس في جوهره الاثار السلبية المختلفة التي تركها الاستعمار في تلك المناطق.وقد تمثل ذلك في انماط الاهرامات السكانية المختلفة(تركيب فئات الاعمار)ومتوسط امل الحياة ونصيب الفرد الواحد من الدخل القومي ومعدلات نموه بالمقارنة مع معدلات النمو السكاني والمواد الغذائية ونوعيتهاوغيرها كما سنرى لاحقا.

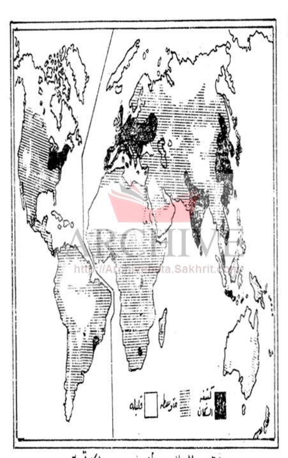
والآن. فان ماتقدم قد كشف عن حقيقة جوهرية؛وهي ان عدد سكان العالم اخذ في التزايد السريع مما يحتم العمل على ضرورة ايجاد الحلول المناسبة لهذه المشكلة الخطيرة التي ستجابه البشرية مستقبلا.وهنا يثار السؤال التالي:هل ان عدد سكان العالم يفوق موارده الاقتصادية أو هو دونها؟وبتعبير آخر؛مالعلاقة بين النمو السكاني وتوزيع الموارد الاقتصادية في العالم؟

ان الاجابة عن هذه التساؤلات ترتبط تماما بمعرفتنا الجغرافية عن النمو السكاني اولا والموارد الاقتصادية المتاحة ثانيا.وعليه؛فان توضيح العلاقة بين عدد السكان والموارد الاقتصادية يمكن ان يتم فيما لو افترضنا ان هناك منطقة ما (مساحة من الارض)يمكن ان تعيل١٠٠٠عائلة بمستوى معاشي لائق.ووضعنا بهذه المنطقة٥٠٠عائلة،فان ذلك يعني ان هذا العدد سوف يعيش في مستوى ادنى من المستوى المطلوب .ذلك ان قلة عدد الأسر الموجودة فيه هي دون استغلال امكانياته المتاحة(١٠٠٠عائلة).وبالتالي،فأن هذا يعني انها سوف لاتنتج من السلع والخدمات الضرورية لبقائها سوى الحد الادنى.اما لو اسكنا١٣٠٠عائلة فعلا في المنطقة ذاتها؛فأن هذا يعني ان مايصيب الفرد الواحد من هذا المجموع من السلع والخدمات اقل بكثير من المستوى المحدد ايضاً،طالما ان عدد الافراد فيها اصبح اكثر من امكانياتها المتوفرة.اما اذا وضعنا في هذه المنطقة١٠٠٠عائلة فقط فانها ستعيش بمستوى معاشي مثالي،لان عدد سكانها سيكون مطابقاً تماماً لامكانياتها الاقتصادية.

ففي الحالة الاولى يمكن القول إن هذه المنطقة متخلخلة سكانياً Under Populated وفي الحالة الثانية مزدحمة سكانياً Over-Populated. اما في الحالة الثالثة فهي تمثل حالة الانسب سكاناً (المثالية) Optimum-Populated من هنايتبين ان أساس العلاقة في مثالنا - آنف الذكر - هو دخل الفرد، وما يمكن أن يغطي به من سلع وخدمات. وهذا يعني - اذا كان تزايد السكان في أقليم ما يقابله زيادة مماثلة في نصيب الفرد من اجمالي الدخل القومي او يزيد فإن ذلك يشير الى ان هذا الاقليم في حالة تخلخل سكاني، اي بإمكانه إعالة المزيد من السكان حتى يتسنى استغلال موارده استغلالا أمثل. اما اذا فاق النمو السكاني نمو نصيب الفرد من الدخل القومي، فان هذا يعني ان هذا الاقليم قد تشبع بالسكان، وانه في حالة ازدحام او تشبع سكاني. مما يستلزم اتخاذ الاجراءات الكفيلة لضبط الاوضاع السكانية فيه. اما اذا تطابق منحنيا الدخل القومي والنمو السكاني، فان هذا يعني أن هذه البلاد في حالة الانسب سكانا. اي أن عدد سكانها يتماشى مع مواردها الاقتصادية المتاحة.

والحقيقة أن خريطة العالم السكانية، الشكل رقم(٣) جدول رقم(٢). تظهر أمثلة عديدة للحالات الثلاث آنفة الذكر. إذ يوجد الآن مناطق عديدة كاستراليا والارجنتين وكندا تشكو من نقص في عدد سكانها، بينما تعاني الاخرى من مشكلة ازدحام السكان كشرق وجنوب شرق قارة آسيا (اليابان - الصين - الهند جزر اندنوسيا وغيرها)، ومصر من شمال أفريقيا. في حين ان مناطق أخرى تعيش في حالة الانسب سكانا، كالولايات المتحدة ومعظم دول القارة الاوربية، ولنا من جدول رقم(٣) خير الادلة على ذلك.

ومن تحليله نستنتج ان اعلى معدلات نسب الزيادة السنوية للدخل القومي خلال العقد المنصرم قد تحقق في القارة الاوربية(١٤٪) في حين ان معدلات نسب الزيادة السنوية للسكان - خلال الفترة ذاتها - لم تكن تبلغ الواحد صحيح (٩ر٠٪) فقط. وهذا يشير الى النمو السريع والمطرد لنصيب الفرد الواحد من الدخل



خريطة العالم السكانية

شكل رقم (٦)

جدول رقم (٣)

توزيع معدلات الزيادة السنوية للدخل القومي والنمو السكاني ونصيب الفرد الواحد من هذا الدخل في العالم للفترة ٦٠/١٩٧١(١)

	سنة الاحصاء	الدخل القومي نصيب الفرد بالدولار	نسبة الزيادة السنوية للدخل القومي للفترة ٦٠/١٩٧٠ %	نسبة الزيادة السنوية للنمو السكاني للفترة ٦٠/١٩٧١ %
	١٩٦٠			
افريقيا		١٢٠	٤ر١٧	٣ر١
امريكاالشمالية		٢٤٩٠	٧ر٥	١ر٥
آسيا		٢٢٠	٧ر٧	٢ر٨
أوربا		٩٧٠	١٤ر٠	٥ر٩
الاوقيانوسية		١٢٠٠	٨ر٢٨	٣ر٤
أفريقيا	١٩٦٩	١٧٠		
امريكاالشمالية	١٩٧١	٤٣٥٠		
أسيا	١٩٦٩	٣٩٠		
أوربا	١٩٧١	٢٣٣٠		
الاوقيانوسية	١٩٧٠	٢١٩٠		

عمل الباحث «معتمدا على»

احتسبت بيانات الزيادة السنوية للدخل القومي والنمو بالاعتماد على الارقام المطلقة الواردة في جدول رقم (٢).

United Nations : Op . Cit, p. 8 and pp. 621-623.

القومي الذي لا يقابله سوى نسبة نمو سكانية ضئيلة جداً. وهذه الظاهرة تعكس -في اعتقادنا- حقيقتين أساسيتين هما: ان شعوب هذه القارة قد وصلت مرحلة النمو الاستقراري للسكان اولا، وبلغت عامة درجة عالية من التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والصحي والتكنولوجي ثانياً. مما يمكن استبعاد أية مشكلة لتزايد السكان فيها، على الاقل خلال العقود الثلاثة القادمة وفيما لو ظلت معدلات الزيادة السنوية للدخل القومي على حالها او تزيد. والملاحظ أيضاً ان أمريكاالشمالية والاوقيانوسية، بالاضافة الى ارتفاع نصيب الفرد الواحد من سكانهما من اجمالي الدخل القومي فانهما يحظيان بمعدلات زيادة سنوية كبيرة في هذا المجال أيضاً: (٥ر٧٪ و٢٨ر٨٪) لكل منهما على التوالي. في حين نسبة الزيادة السكانية لا تزال محدودة، لاسيما في القارة الشمالية. وهذا يعني امكانية هذه المناطق على اعالة المزيد من السكان. اما قارتا افريقيا وآسيا فما يصيب الفرد الواحد منهما أقل بكثير من زملائه في القارات الاخرى: فما يصيب الفرد الافريقي مثلا نحو ١ الى ٢٠ بالمقارنة مع زميله الامريكي وزهاء ١ الى ١٠ بالنسبة لنصيب الفرد الاسيوي مقارنة بزميله الامريكي أيضاً. ولا تقف المسألة عند حد انخفاض نصيب الفرد الواحد من الدخل القومي الذي يمكن ان يكون مؤشراً هاماً للتعبير عن المستوى الاقتصادي الذي تحيا في ظله، بل تتعداه الى أبعد من ذلك. إذ الملاحظ ان قارة أفريقيا هي أقل مناطق العالم نمواً في معدلات الدخل القومي. كما يظهرها جدول رقم(٣) وهي ١٧ر٤٪. زد على ذلك ارتفاع نسبة الزيادة السنوية السكانية فيها التي تبلغ نحو ١ر٣٪.

وعليه يمكن القول إن هذه المناطق تحيا في ظل حالة الازدحام السكاني حالياً، وان الزيادة السكانية المستقبلة ستزيد من مشكلاتها الحالية كثيراً ما لم تتخذ الاجراءات الكفيلة لضبط الاوضاع السكانية فيها. على ان هذا لا يعني تقليل نسب المواليد والوفيات فقط. لان بلوغ هذا الهدف يعكس في جوهره درجة التقدم الحضاري والتكنولوجي والاقتصادي لشعوب تلك الجهات، التي ما زال

غالبية سكانها يخضع للسيطرة الاستعمارية المباشرة وغير المباشرة حتى الان. فالمقصود اذن هو العمل على تخطيط استغلال موارد هذه الاقاليم الطبيعية والبشرية استغلالا هادفاً لتحقيق تنمية اقتصادية مثلى.

وقد يتساءل البعض هنا. هل يمكن تحديد كم من الانفس يمكن ان يعيلها الكيلومتر المربع الواحد؟ ليس هناك جواباً شافياً عن مثل هذا السؤال(١). طالما ان أنماط الاستغلال الاقتصادي متنوعة ومتشعبة لاسباب جغرافية وتكنولوجية وحضارية وبشرية. فاذا كان بمقدور الكيلومتر المربع الواحد ان يعيل راعيين مثلا في الاقاليم شبه الجافة، فان وجود راع ثالث قد يكون أكثر من امكانياته الاقتصادية. ولو فرضنا ان المساحة ذاتها(كم٢ واحد) في اقليم صناعي فان بامكانه اعالة أكثر من الف نسمة وان بمقدوره إعالة المزيد ان كانت صناعاته في حاجة الى المزيد من العمال لاستغلال طاقاتها الانتاجية المعطلة. اي أن هذه المساحة تمثل منطقة تخلخل سكاني في حين ان الحالة الاولى هي منطقة ازدحام سكاني. هذا من الناحية المثالية النظرية. اما واقع الحال على خريطة العالم فان المسألة أكثر تعقيداً أوتداخلاً. فقد يكون وجود الراعي الثالث في مثالنا آنف الذكر سبباً في تطوير المنطقة حتى يمكن له أن يعيل عدداً أكثر من السكان(٢).

واذا كانت حاجة الفرد الواحد لتغطية احتياجاته من الغذاء نحو فدانين ونصف بالاستناد الى ما توصل اليه علماء التغذية(٣). واذا كان ما يصيب الفرد الواحد من الاراضي الزراعية لا يزيد على فدان واحد باعتبار ان مساحة الاراضي الزراعية اربعة بلايين فدان وعدد سكان العالم نحو أربعة بلايين نسمة أيضاً فإن ذلك يعني أن الارض مكتضة بسكانها وان العديد من السكان يعيشون في حياة هي دون المستوى المطلوب بكثير. مما يؤكد مرة أخرى ضرورة التخطيط الامثل لمشكلة ازدحام السكان في العالم وتنمية موارده.

---

(١) للتفاصيل انظر: د محمد محمود الصياد: مقدمة في الجغرافية الاقتصادية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١، ص٣٩.

(٢) نفس المكان.

(٣) نفس المكان.

والجدير بالذكر ان هذا القياس نسبي وليس أمراً مطلقاً. ذلك ان هناك قسماً من سكان العالم قد يصيبه أكثر مما سبق تحديده من المساحات الصالحة للزراعة وذلك من ناحية الكم. كما أن كيفية استغلال تلك المساحات تتباين أيضاً بالنسبة لدول العالم المختلفة. أو بعبارة أخرى سوء التوزيع الجغرافي بالنسبة للفرد والدول على حد سواء. فما يصيب الفرد الواحد من اوربا الغربية قد لا يزيد على ٠٫٧٥ من الفدان. ومع ذلك فليس هناك مشكلات غذائية طالما انه بمقدورها تغطية احتياجاتها من المواد الغذائية بالاستيراد من الخارج. يعينها في ذلك ما يحققه انتاجها الصناعي من قيم مضافة متزايدة. وإذا ما علمنا أن الفرد الواحد في هذه الأقطار يحظى بمستوى معاشي غذائي جيد يفوق نظيره في أقطار العالم الثالث. جداول رقم (٤٫٥) الشكل رقم (٤). أدركنا مدى خطورة تزايد السكان في مثل هذه الاقطار وما يمكن ان ينتظرها من مجاعات ما لم تبادر للتخطيط الشامل والدقيق لاستغلال مواردها الطبيعية والبشرية. وليس أدل على ذلك (التباين الجغرافي لمستويات المعيشة) مما يظهره الجدولان آنفاً الذكر: ومن تحليلهما نستنتج: —



شكل رقم ١٠

نصيب الفرد من الدخل القومي ... الزيادة السكانية في بعض اقطار العالم

جدول رقم (٤)

توزيع نصيب الفرد الواحد من المواد الغذائية في أقاليم العالم الرئيسية بالارقام القياسية .سنة الاساس ١٩٦٣= ١٠٠

الاقاليم	١٩٦٠	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٨	١٩٧١
العالم	٩٩	١٠٠	١٠٢	١٠٧	١٠٨
افريقيا	١٠٠	١٠٠	٩٨	٩٩	١٠١
امريكا الشمالية	٩٨	١٠٠	٩٩	١٠٤	١١١
امريكا اللاتينية	٩٦	١٠٠	١٠٠	١٠١	١٠٠
آسيا	—	—	—	—	—
الشرق الادنى	٩٧	١٠٠	١٠٢	١٠٥	١٠٢
الشرق الاقصى	٩٩	١٠٠	١٠١	١٠٠	١٠١
اوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي	١٠٤	١٠٠	١١٠	١٢٦	١٢٩
اوربا الغربية	٩٧	١٠٠	١٠٠	١٠٨	١١٤
الاوقيانوسية	٩٢	١٠٠	١٠٣	١١٥	١٠٨

١ــ ان نصيب الفرد الواحد من المواد الغذائية بالارقام القياسية في قارات أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية(١٠١و١٠٢و١٠٠ على التوالي)ــأقطار العالم الثالثــلا يظهر نمواً ملموساً فيها وهو عموماً أقل من متوسط إجمالي العالم (١٠٨).في حين نجد نمواً سريعاً ومطرداً بالنسبة لاقطار قارات أوربا وأمريكا الشمالية والاوقيانوسية(١٢٢ بالمتوسط،و١١١و١٠٨ على التوالي).هذا ناهيك عن الذبذبات الاكثر نسبياً التي أصابت معدلات النمو لقارات العالم الثالث،كما يؤكد ذلك عام ١٩٦٨،والتي لا يمكن تفسيرها بمعزل عن أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية السائدة.

United Nations: Statistical Year book 1972, New York 1973, p. 12 (1)

جدول رقم (٥)

توزيع عدد السعرات الحرارية لما يصيب الفرد الواحد في بعض اقطار العالم(١)

القطر	سنة الاحصاء	المجموع الكلي للسعرات الحرارية	نسبة مساهمة الانتاج الحيواني٪
١ ــ الولايات المتحدة	١٩٧٠	٣٣٠٠	٤٠
٢ ــ بريطانيا	١٩٧١/٧٠	٣١٧٠	٤٣
٣ ــ الاتحاد السوفييتي	١٩٦٦/٦٤	٣١٨٠	٢١
٤ ــ السويد	١٩٧١ /٧٠	٢٨٥٠	٤٢
٥ ــ سويسرا	١٩٧٠ /٦٩	٣١٩٠	٣٧
٦ ــ النرويج	١٩٧٠ /٦٩	٢٩٤٠	٣٤
٧ ــ هولنده	١٩٦٧ /٦٦	٣٢٠٠	٣٨
٨ ــ المانيا الغربية	١٩٧٠ /٦٩	٣١٨٠	٤٣
٩ ــ فرنسا	١٩٧٠ /٦٩	٣٢٧٠	٤١
١٠ــ الدانمارك	١٩٦٥ /٦٣	٣٢٥٠	٤٦
١١ــ كندا	١٩٦٨ /٦٦	٣٢٠٠	٤٦
١٢ــ استراليا	١٩٦٥ /٦٣	٣١٦٠	٤٥
١٣ــ بلغاريا	١٩٦٦ /٦٤	٣٠٧٠	١٣
١٤ــ فلسطين المحتلة	١٩٧٠ /٦٩	٢٩٩٠	٢١
١٥ــ اليابان	١٩٧٠	٢٤٧٠	١٥
١٦ــ اسبانيا	١٩٧٠ /٦٩	٢٧٧٠	٢١
١٧ــ الصين	١٩٦٦ /٦٤	٢٠٥٠	٩
١٨ــ الكونغو	١٩٦٦ /٦٤	٢١٦٠	٦
١٩ــ كوبا	١٩٦٦ /٦٤	٢٥٠٠	١٦
٢٠ــ مصر	١٩٦٩ /٦٨	٢٧٧٠	٧
٢١ــ الهند	١٩٧٠ /٦٩	١٩٩٠	٥
٢٢ــ اندنوسيا	١٩٧٠	١٩٢٠	٢
٢٣ــ ايران	١٩٦٦ /٦٤	٢٠٣٠	٩
٢٤ــ العراق	١٩٦٦ /٦٤	٢٠٥٠	١١
٢٥ــ اليمن	١٩٦٦ /٦٤	١٩١٠	١١

UN. statistical Yearbook 1972, pp. 524.530

٢- تعاني شعوب العالم الثالث من نقص في التغذية كماً ونوعاً. إذ أن دراسات منظمة الغذاء العالمية F.A.O. تشير الى أن حاجة الفرد الواحد تتراوح بالمتوسط بين ٢٥٠٠-٣٠٠٠ سعرة حرارية يومياً. غير أن الكمية المطلوبة هذه لا تتحقق الا في الاقطار المتقدمة فقط: كأقطار أوربا وأمريكا الشمالية بدرجة أساسية.

ولا تقف المسألة عند هذا الحد، بل تتعداها الى نوعية هذه الكمية: إذ المفروض أن يساهم البروتين من الاصل الحيواني بكمية لا تقل عن ٣٠ غرام يومياً. الا أن واقع الحال يظهر تناقضاً كبيراً إذ تشكو أقطار العالم الثالث جميعها من النقص المزمن في كمية البروتين الحيواني، بالاضافة الى بعض أقطار العالم المتقدم. وإذا أمعنا النظر في البيانات المتاحة في هذا المجال، والبيانات الاخرى في ثبت احصائية الامم المتحدة لعام ١٩٧٢(١). نلاحظ ان ثلاثة ارباع سكان العالم لا تتوفر لديهم ٧٠٪ من عدد السعرات الحرارية المطلوبة وان نحو ٦٠٪ من سكان المعمورة لا يغطي احتياجاته من البروتينات الحيوانية الضرورية. مما ممكن القول إن نحو ثلاثة أرباع سكان العالم يشكون الجوع بمعناه الواضح في حين يعاني أكثر من نصف البشرية من سوء التغذية.

فما يصيب الفرد الواحد في الولايات المتحدة وبريطانيا مثلا نحو ٣٣٠٠ و٣١٧٠ سعرة حرارية بينما لا يصيب الفرد الهندي أو اليماني سوى ١٩٩٠ و١٩١٠ سعرة حرارية. صحيح أن الاختلافات المكانية الجغرافية بين هذه الاقطار وتركيب أعمار سكانها، قد يؤثر على القيمة الفعلية لكمية السعرات الحرارية هذه، الا أن تباين نصيب هذه الدول من البروتين الحيواني، يؤكد لنا المستويات المعيشية البائسة التي تحيا في ظلها شعوب الهند واليمن مثلا. إذ لا يساهم البروتين الحيواني في الغذاء اليومي للهندي واليماني سوى نحو ٥٪ و١١٪ لكل منهما على التوالي. مقابل ٤٠٪ و٤٣٪ للفرد الامريكي والبريطاني على الترتيب أيضاً.

---

(1) United Nations: "Statistical yearbook 1972, "New York 1973, PP. 524-530

ولعل المقارنة التالية بين الهند والولايات المتحدة يمكن أن تمثل مقارنة بين بيئة العالم الثالث والعالم المتقدم.وهي كفيلة بابراز الفروق الاساسية لمستوى حياة الانسان في كلا الاقليمين والتي ترسم وتؤكد ملامح الصورة لكلا البيئتين.

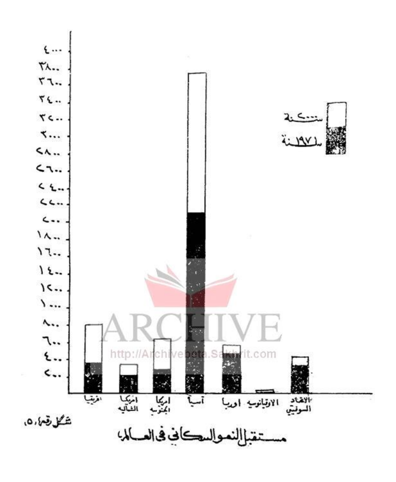
جدول رقم (٦)

دراسة مقارنة لبعض المؤشرات الاقتصادية بين الهند والولايات المتحدة(١)

أوجة المقارنة	الهند	الولايات المتحدة الامريكية
عدد السعرات الحراريةللفردالواحد	١٩٩٠	٣٣٠٠
عدد الغرف لكل عشرة أشخاص	٢	١٠
عدد الأ طباء لكل٠٠٠ر١٠٠نسمة	٢٠	١٢٠
نسبة المتعلمين لاكثرمن١٠ سنة	١٨	١٠٠
عدد الطلبة لمرحلة التعليم العالي لكل ٠٠ر١٠ نسمة	١٢	١٥٠
عدد نسخ الصحف التي تطبع يومياً لكل ١٠٠٠ نسمة	٨	٣٤٠
عدد اجهزة الراديو لكل١٠٠٠ نسمة	٢	٧٥٠
السيارات لكل ١٠٠٠ نسمة	١	٣٩٠

والآن اذا كانت تلك هي الملامح الجغرافية لصورة النمو السكاني في العالم، فما هي ابعاد هذه الصورة مستقبلا؟ هذا ماسنحاول تبيانه في النقطة التالية

United Nations; "Statistical Year Book,,Varrious Issues,Varrious pages (I)



شكل رقم (٤،٥)

مستقبل النمو السكاني في العالم

جدول رقم(٧)

توزيع الاعداد المنتظرة لسكان العالم(١)
خلال السنوات ٧٥–٢٠٠٠م

القارات	١٩٧١	١٩٧٥	١٩٨٥	١٩٩٥	٢٠٠٠
أفريقيا	٣٥٤	٣٩٥	٥٣٠	٧١٣	٨١٨
أمريكا الشمالية	٢٣٠	٢٤٨	٢٨٠	٣١٧	٣٣٣
أمريكا الجنوبية	٢٩١	٣٢٧	٤٣٥	٥٧٢	٦٥٢
آسيا	٢١٠٤	٢٣٠٧	٢٨٧٤	٣٤٨٠	٣٧٧٨
أوربا	٤٦٦	٤٧٩	٥١٥	٥٥١	٥٦٨
الاوقيانوسية	١٩ر٨	٢١	٢٧	٣٢	٣٥
الاتحاد السوفيتي	٢٤٥	٢٥٦	٢٨٧	٣١٦	٣٢٩
جملة العالم	٣٧٠٩ر٨	٣٩٣٣	٤٩٤٨	٥٩٨١	٦٥١٣(٢)

---

(1) United Nations : "Statistical Year book 1972, New York 1973,P.8, and P.10.

(٢) ان تباين الارقام النسبية بين الجدول اعلاه وما ورد في المصدر آنف الذكر يرجع الى تباين وحدة القياس(الالاف–الملايين)حيث اضطررنا الى تقريب الارقام الى الواحد الصحيح (الملا يين).

جدول رقم(٨)

توزيع نسب المواليد والوفيات بموجب ارقام ٧٠–١٩٧١(٢ نسمة لكل الف)(١)

أقاليم العالم الرئيسة	نسب المواليد	نسب الوفيات	نسبةالزيادة السكانية
أفريقيا	٤٧	٢٠	٢٧
آسيا	٣٨	١٥	٢٣
أمريكا اللاتينية	٣٨	٩	٢٩
الاوقيانوسية	٢٥	١٠	١٥
أوربا	١٨	١٠	٠٨
أمريكا الشمالية	١٨	٩	٠٩
الاتحاد السوفيتي	١٨	٨	١٠
جملة العالم	٣٤	١٤	٢٠

(1) Population Bulletin , April 1971, P. 6

جدول رقم(٩)

اتجاهات التجارة العالمية منذ ١٩٣٨ بالمقارنة مع اتجاهات النمو السكاني والانتاج ونصيب الفرد من المواد الغذائية في العالم(١) بالارقام القياسية. سنة الاساس ١٩٦٣=١٠٠

	١٩٣٨	١٩٤٨	١٩٥٨	١٩٦٣	١٩٦٨	١٩٧١
الصادرات						
كافة السلع	٤٠	٣٩	٧١	١٠٠	١٥٢	١٩٦
الغذاء والمواد الخام	٦١	٥٠	٧٥	١٠٠	١٢٢	١٤٢
الوقود	٢٩	٣٤	٧١	١٠٠	١٥٥	٢٠١
البضائع الصناعية	٢٨	٣٣	٦٧	١٠٠	١٦٩	٢٢٨
السكان	٦٨	٧٥	٩٠	١٠٠	١١١	١١٩
نصيب الفرد من الموادالغذائية(٢) -	-	-	٩٩	١٠٠	١٠٧	١٠٨
الانتاج	-	-	-	-	-	-
السلع الاولية	٦٠	٦٧	٨٦	١٠٠	١١٥	١٢٢
المصنوعات	٣٠	٤٥	٧٣	١٠٠	١٣٧	١٥٦

(1) United Nations : "Statistical Year book 1972, P.43.
(2) Ibid, P.12.

رابعاً – مستقبل النمو السكاني في العالم.

من تحليل جداول رقم(٧و٨و٩)الشكل رقم(٥)نستنتج:

١– ان سكان العالم سوف يتضاعف تقريباً خلال العقود الثلاثة التالية.(١) وليس هناك أدنى خطورة في هذه الزيادة فيما لو صاحبها زيادة مماثلة في الموارد الغذائية.الا أن واقع الحال لا يؤيد مثل هذا التفاؤل.فدراسة الارقام القياسية لنمو نصيب الفرد الواحد في العالم خلال السنوات ٥٨–١٩٧١ يظهر نمواً بطيئاً في هذا المجال بالمقارنة مع نمو السكان.اذ ارتفع نصيب الفرد من المواد الغذائية خلال الفترة ٦٨–١٩٧١ من ١٠٧ الى ١٠٨ في حين ارتفع الرقم القياسي لنمو السكان خلال الفترة ذاتها من ١١١ الى ١١٩،جدول رقم(٩).

واذا كان ما يصيب الفرد الواحد في العالم الان هو فدان واحد من الاراضي الزراعية،فان نصيب الفرد هذا سيهبط الى ٧ر٠ من الفدان فقط بحلول عام ٢٠٠٠م تقريباً.وستزداد الصورة سوءاً لو تذكرنا ما انتهينا اليه آنفاً من أن حاجة الفرد الواحد–طبقاً لتقديرات خبراء التغذية هي ٥ر٢ فدان لتطمين احتياجاته الغذائية.فكيف ستكون صورة المستقبل اذن؟هذا ما سنحاول الاشارة اليه في خاتمة هذه الدراسة.

٢– ولا تقف الخطورة عند هذا الحد بل تتعداها الى أبعد من ذلك بكثير، كما كشفت عن ذلك الدراسة السابقة،التي انتهت الى ان هناك تبايناً كبيراً في نصيب الفرد الواحد من المواد الغذائية ونمو السكان بين أقاليم ودول العالم المختلفة.ومما يزيد المسألة تعقيداً أن أعلى معدلات الزيادة السكانية ستشهدها

---

(١) تضاعف سكان العالم منذ بداية الخليقة(آدم وحواء)وحتى نهاية عام ١٩٧٠ نحو ٣١ مرة. واذا تضاعف ١٦ مرة أخرى سيصبح نصيب الفرد الواحد نحو ياردة مربعة واحدة لكل نسمة على سطح الارض.ولكن هذا التوقع مستبعد الان.
للتفاصيل انظر:

Population Bulletin: "Man's population predicament
A publication of the population Reference
Bureau INC., "April 1971, Vol 27. No.2. P.5.

أقطار العالم الثالث التي يعاني سكانها الان من سوء التغذية كماً ونوعاً.فنسب الزيادة السنوية السكانية تبلغ نحو ٢٩و٢٧و٢٣ بالالف في كل من امريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا على الترتيب.بينما لا يقابلها في أقاليم العالم المتقدمة(أوربا وأمريكا الشمالية والاتحاد السوفيتي والاقيانوسية)سوى ٨و٩و١٠و١٥ بالالف لكل من المناطق المذكورة على التوالي أيضاً.جدول رقم(٨).

والحقيقة ان الاعتبارات الجغرافية الثلاثة هي المسئولة في اعتقادنا عن ملامح الصورة الحالية والمستقبلة لسكان العالم. وهذه الاعتبارات هي سوء التوزيع الجغرافي لسكان العالم اولا،وسوء توزيع معدلات النمو السكاني ثانياً،وسوء توزيع الموارد الغذائية ثالثاً على مستوى القارات والاقاليم والدول والافراد على حد سواء.فما هي السبل الكفيلة بتبديد ضباب المستقبل اذن؟اننا نعتقد ان التوصيات التالية يمكن أن تكون حلولا لمشكلات الانسان هذه متمثلة في مشكلة تزايد اعداده ونقص وسوء تغذيته. وهي لا تعدو ان تكون خطوطاً عريضة جداً تمثل وجهة النظر الجغرافية- طالما ان الجغرافية ذاتها تعرف بانها وجهة نظر point of View يمكن للدراسات الاخرى طبقاً لتخصصاتها الضيقة وبالتعاون مع التخصصات الاخرى(١) القيام بالبحث والتمحيص لرسم اطار السياسة العامة لحل هذه المشكلات،وهذه التوصيات هي:-

١- ضرورة تخطيط الانتاج الزراعي:نباتياً وحيوانياً، والتوسع في عمليات هذا النشاط أفقياً وعمودياً.وما يتطلب ذلك من استصلاح الاراضي وتغطيتها بنظم ري كاملة وتعميم استخدام أحدث الاساليب ووسائل التقنية الزراعية

---

(١) يهتم الكثير من الاقتصاديين بدراسة التغيرات الاقتصادية المختلفة وهذا ينطبق حتى على المتخصصين بدراسات التطور والتخطيط الاقتصادي.

أنظر:

Levine, A. L., "Economic Sience and population Theory, "Population Studies (A Journal of Demography) November 1965, P. 153.

الحديثة المتطورة في هذا المجال.حتى يمكن رفع إمكانية إنتاج الوحدة الواحدة من الارض مما يحقق بعثاً حقيقياً في معدلات نمو هذا القطاع لكي يتسنى له مواكبة نمو معدلات الزيادة السكانية.

٢- الاسراع بتعميم أساليب التقنية الحديثة متمثلة في تنمية عمليات النشاط الصناعي وتطويره وتطبيق نظامي التكامل الافقي والعمودي في عمليات الانتاج الصناعي وما يرتبط بهما. وبما يكفل تطوير هذا القطاع لخدمة القطاعات الانتاجية الاخرى في النشاط الاقتصادي الانساني،لاسيما الزراعة والنقل.

واذا كانت هناك عقبات أساسية تعترض سبل تحقيق ذلك في أقطار العالم الثالث: كضآلة حجم السوق المحلية،ونقص رأس المال والخبرة الفنية،فإن الروابط الانسانية بين أعضاء الاسرة العالمية قاطبة كفيلة بان تلتزم حكومات الدول المتقدمة لكي تأخذ بيد هذه الكتل البشرية الجائعة بما يمكنها من تخفيف وازالة مظاهر التخلف الذي يرزخ تحت نيرها . وهي المسؤولة - الدول المتقدمة الاستعمارية-في اعتقادنا عن تحديد أبعاد هذه الصورة.

٣- رفع القيود المختلفة التي وضعتها حكومات الامريكتين واستراليا وبعض الاقطار الاوربية أمام كافة المهاجرين من أقطار جنوب وجنوب شرق آسيا ووسط وجنوب القارة الافريقية.اي ضرورة التعاون بين الأقطار المتخلخلة سكانياً وأقطار الفائض السكاني.ذلك يحقق في اعتقادنا امرين اولهما: تخفيف مشكلة الازدحام السكاني في أقطار العالم الثالث،وبلوغ درجة الاستغلال الامثل لموارد الاقطار المتقدمة طالما انها تعاني حالياً من نقص في السكان.أو بعبارة أخرى أن فتح أبواب الهجرة أمام سكان العالم،يبعد شبح الحرب العالمية الثالثة،لانه كفيل بأن يزيل أسباب التوتر السكاني الذي قد يسفر في النهاية عن تطاحن بشري دموي رهيب.

٤- تخطيط النسل البشري وتعميم ضوابطه المشروعة بما يتفق والمبادىء الاساسية للاديان والمذاهب الفكرية المختلفة التي يعتنقها سكان هذا العالم.وبالفعل

فإن أقطاراً عديدة خطت خطوات واسعة في هذا المجال، كالصين والهند. إذ أعادت هذه الدول النظر في تشريعاتها المختلفة ذات العلاقة بموضوعات الاجهاض والعقم(الصين ١٩٥٦)وتأخير سن الزواج الى ٢٠ سنة للرجل و١٢ سنة للانثى في الصين(وإباحة عمليات العقم عند الجنسين(الصين الشعبية)اما الهند فقد عملت على نشر العيادات الطبية المختلفة التي تقدم النصح والارشاد لمنع الحمل وتحديد التسل(١٩٥٨)وتوزيع العقاقير الطبية مجاناً.

والحقيقة أن مسألة تحدياً النسل ستظل مرتبطة بتعاليم الاديان السماوية المختلفة اولا وبالمستوى الثقافي لشعوب العالم أجمع ثانياً.

وأخيراً فإن التوجيه الأ مثل لحل المشكلات السكانية هذه يرتبط -في اعتقادنا- بالتعاون المخلص بين سكان العالم أجمع. طالما أن دول العالم المتقدمة -الدول الاستعمارية- هي المسؤولة عن تحديد أبعاد الصورة الحالية لسكان العالم الثالث بكافة مظاهرها السلبية: نمو سكاني مفرط، ونقص غذائي كمي ونوعي وغير ذلك. ويمكن تحديد اتجاهين رئيسين لسبل هذا التعاون هما: فتح أبواب الهجرة أمام كافة شعوب الاجناس البشرية بغض النظر عن لون بشرتها او طبيعة معتقداتها او مذاهبها، ذلك ان غنى دول العالم المتقدمة هو في الحقيقة صدفة تاريخية وجغرافية، بالاضافة الى طبيعة الاهداف الاستعمارية لحكوماتها. مما يحتم عليها تقديم المساعدات الجادة لشعوب أقطار العالم الثالث. فالأرض ملك للبشرية جمعاء.

وإذا كان ما حدث إذن هو مصادفة -كما أوضحنا- فليس من المعقول أن تسمح لمصادفة أخرى الا وهي إشعال نيران حرب عالمية أخرى، والتي تعزى في جوهرها الى مشكلات سكانية، فمن أجل كسب لقمة العيش الهانئة قد يضطر الانسان الى استعمال القوة وما قد ينجم عن ذلك من مشكلات عديدة أخرى: اقتصادية واجتماعية تلحق الويلات بالبشرية جمعاء.

اما الأ تجاه الثاني فيقضي بضرورة تحقيق سبل التعاون العلمي والتكنولوجي

الحديث(١)لتطوير كافة قطاعات اقتصاديات أقطار العالم الثالث، التي تنعكس في رفع المستوى المعاشي والثقافي(٢)والصحي.وما قد يترتب عليه من خفض نسب المواليد، بما يكفل تحقيق نمو سكاني أنسب.حتى يمكن تحقيق الرفاهية لسكان العالم بأسره.

وقبل أن نختتم بحثنا هذا،لابد من التذكير مرة أخرى بخطورة النمو السكاني المتزايد،وبأهمية دراسة هذه المشكلة والمشكلات العديدة الناجمة عنها دراسات مستفيضة من وجهة نظر العلوم الاقتصادية والاجتماعية الاخرى.والعمل على تحقيق توعية سكانية عامة على مستوى جماهيرنا وسكان العالم أجمع (٣)، طالما أعتبر عامنا الحالي–١٩٧٤–عام السكان.

---

(١) يمكن للتطورات التكنولوجية الحديثة ان تحقق نموا متزايداً في معدلات الدخل القومي للاقطار الناقصة العمران(أقطار العالم الثالث)اعلى من معدلات النمو السكاني فيه.
نظر:
Committee on Science and puplic policy National Academy of Science,The Groeth of World population, Washington D. C. 1963, p. 17

(٢) دلت احدى الدراسات التي قام بها البروفسور Mayone ان اختلاف المستويات الثقافية بين سكان الحضر والريف في بيرو(احدى دول أمريكا اللاتينية.مسؤولة الى حد كبير عن اختلاف الخصوبة الجنسية وفرض الانجاب بين سكان تلك المنطقة.
لتفاصيل أنظر:
Mayone, S. J., "Culture and Differential Fertility in Peru", population Studies (A Journal of Demography), Vol. XVI, No.3 March 1963., (published by the population investigation Committee London School of Economics)' P. 266

(٣) ان التوعية العلمية الهادفة الى مشكلات النمو السكاني في العالم تعتبر هدفاً سامياً لكل الدراسات المعنية بهذا الموضوع.
Committee on Science and public policy, op. cit p. 38

قائمة المراجع

١ـالمراجع الاجنبية:

Committee on Science and Puplic Policy National ncademy of Science " The Growth of World Population "Washington D. C. 1963.

Levine, A. L. : Economic Science and population Theory, ,'population Studies (A Journal of Demography) November 1965.

Mayone, S. J. "Culture and Differential Fertility in Peru," Population Studies, (A Journal of Demography) Vol. XVI. No. 3. March 1963.

Perpillou, A. V. "Human Geography," Translated by Laborade E . D . Longmans 2nd ed. London 1960 .

Population Bulletin: Man's population predicament", A puplication of the population Reference Bureau INC. April 1971 vol. 27. No2.

Shimm, M. G. : population Control Oceon publications INC. New York 1961.

United Nations: Statistical Year Book 1972, Twenty-Fourth Issue, Statistical office of th United Nations Department of Economic and Social Affairss New York 1973.

United Nations: Statistical Year Book Varrious Issues, New York.

٢ـ المراجع العربية:

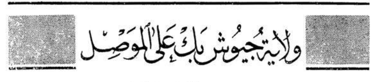
ايف لاكوست : ترجمة د.عبدالرحمن حميدة : العالم الثالث او جغرافية التخلف
دار الحقيقة بيروت ١٩٧١

د.حسن الساعاتي ود. عبدالحميد لطفي. دراسات في علم السكان ، مكتبة
الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٣

فيليب هوسر ، ترجمة الدكتور خليل حسن خليل: السكان والسياسات
الدولية ، مؤسسة فرانكلين للطباعة
والنشر ، يناير ١٩٦٣.

د.محمد السيد غلاب ود. محمد صبحي عبد الحكيم : السكان جغرافيا
وديموغرافيا : مكتبة
الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٦

رشيد الجميلي



(٥٠٩هـ-٥١٥هـ)

أقطع السلطان محمد بن ملكشاه الموصل واعمالها للامير آقسنقر البرسقي ، بعد مصرع مودود سنة ٥٠٧هـ(١)، وسير معه ولده الملك مسعود في جيش كثيف وأمره بقتال الفرنج(٢). وما ان استقر البرسقي في الموصل، حتى اجتمعت اليه عساكرها، وفيهم عمادالدين زنكي(٣)، وتميرك صاحب سنجار، فشرع البرسقي

(١) هو الامير شرف‌الدين مودود بن التونتكين ، كان قد تولى امارة الموصل سنة ٥٠٢هـ، وقد قتل بيد الباطنية في جامع دمشق، أنظر: رشيد الجميلي: الامير مودود والحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب العدد ١٤ .

(٢) ورد في التاريخ الباهر لا بن الاثير ص١٩ وأخذ عنه ابو شامة في الروضتين ج١ص ٦٩ أن السلطان محمد اقطع بلاد الموصل للامير جيوش بك بعد مصرع مودود ، في حين يذكر ابن الاثير نفسه في الكامل ج١٠ ص٥١٤ حوادث سنة ٥٠٩هـ(وفيها أقطع السلطان‌محمد الموصل وما كان بيد آقسنقر البرسقي للامير جيوش‌بك. وسير ولده الملك مسعوداً، وأقام البرسقي بالرحبة، وهي أقطاعه، الى أن توفي السلطان محمد) ، وهذا دليل قاطع على أن البرسقي كان تولى الموصل بعد مصرع مودود لفترة قصيرة، ثم أخذها السلطان وأقطعها الامير جيوش‌بك سنة ٥٠٩هـ -أنظر: ابو الفدا: المختصر ج ٤ ص ١٤٦-١٤٨، ابن الوردي: تتمة المختصر ج٢ص٣٢، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص١٧٨، ابن خلدون: العبر ج ٥ ص٨٩، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٥ ص٢٠٧. وقد رأيت من المفيد ان استعرض فترة حكم البرسقي القصيرة ليكون الحديث متصلا.

(٣) عمادالدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر. كان والده من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي، وتولى عمادالدين امارة الموصل سنة ٥٢١هـ ، قتل في سنة ٥٤١هـ عند قلعة جعبر وقد استمر حكم آخر خلفائه في الموصل حتى سنة ٦٣١هـ، انظر: رشيد الجميلي: دولة الاتابكة في الموصل بيروت ١٩٧٠

بإخضاع الإمارات الاسلامية المجاورة، وتمكين نفوذه فيها استعداداً للجهاد ضد الصليبيين. فسار الى جزيرة ابن عمر فسلمها اليه نائب مودود، وسار معه الى ماردين، فتمكن البرسقي من إخضاع صاحبها ايلغازي بن ارتق. وأرسل الأخير ولده أياز ليشارك في الحملة ضد الفرنج، واجتمع لدى البرسقي خمسة عشر الف فارس من المسلمين، فزحف الى الرها، وحاصرها في ذي الحجة من سنة ٥٠٨هـ(١).

واستطاع الفرنج مقاومة الحصار الذي ضربه المسلمون حول الرها، فضاقت الميرة على المسلمين. واضطروا للرحيل بعد حصار دام شهرين وأياماً، وأخذوا يوجهون غاراتهم ضد المناطق المحيطة بالرها وسروج وسميساط، في نفس الوقت الذي أرسل فيه صاحب مرعش وكيسوم ورعبان يعلن ولاءه وتبعيته للبرسقي(٢). ثم أقدم البرسقي على اعتقال أياز بن ايلغازي، متذرعاً بعدم حضور أبيه للجهاد، وهاجم ماردين ونهب سوادها، فأسرع ايلغازي يطلب النجدة من ركن الدولة داود بن سقمان صاحب حصن كيفا. فخرج الاخير بمن معه من التركمان، وانضم الى ايلغازي وأنزلا الهزيمة بعساكر البرسقي، وأرغماه على العودة الى الموصل، وتخلص أياز من الاسر، فلما بلغ السلطان محمد هزيمة

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج١٠ ص٥٠١، ابو شامة: الروضتين ج١ص٦٩. ابن خلدون: العبر ج٥ ص٨٩.

(٢) ابن الاثير: الكامل ج١٠ص٥٠١، ابن خلدون: العبر ج٥ القسم الاول ص٨٩. (كان كواسيل «كوغ باسيل» الارمني حاكم كيسوم ورعبان قد توفي سنة ٥٠٨هـ-١١١٢م، تارك لارملته وابنهما بالتبني حكم المملكة، فساورها الشك من قبل الافرنج احست بأطماع تنكرد أمير انطاكية في بلادها، فراسلت البرسقي وطلبت ان يرسل اليها مندوباً للتفاوض في أمر تسليم بلادها، فتم لها ذلك واذعنت بالطاعة لاقسنقر البرسقي، وقد دلت هذه السياسة على سخط الارمن على السياسة التي اتبعها الفرنج وترتب عليها ان دخلت هذه الجهات في دائرة النفوذ السلجوقي. رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ص٢٠٩-٢١٠، العريني: الشرق الاوسط والحروب الصليبية ج١ ص٤٦٥، عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٤٧٢).

البرسقي، أرسل مهدداً ايلغازي، فخشي هذا الانتقام، وبادر بالتحالف مع طغتكين صاحب دمشق(١).

وبعد عودة آقسنقر البرسقي، بادر السلطان محمد الى عزله عن ولاية الموصل واعمالها، وأقطعها للامير جيوش بك سنة ٥٠٩هـ، وأرسل معه ولده الملك مسعود يتدرب على شؤون الحكم. واقام البرسقي في الرحبة وهي اقطاعة حتى توفي السلطان محمد (٢).

مشاركة الموصل في القتال ضد الصليبيين (٥٠٩هـ-١١١٥م).

كان السلطان محمد يسعى الى تحقيق نصر حاسم ضد الصليبيين، وكان ما تعرضت له حملاته التي وجهها الى الشام من الفشل، قد كشف عن أهمية توحيد الجبهة الاسلامية قبل المضي في قتال الصليبيين، ورأى انه لابد من فرض سلطانه على سائر الامراء المسلمين في الشام، الذين استغلوا فرصة انشغال المسلمين بالحرب مع الصليبيين، فعملوا على قطع صلتهم بالسلطنة السلجوقية في أصفهان، ولم يبق على الولاء والاخلاص للسلطان السلجوقي سوى بني منقذ في شيزر، الذين تعرضوا لتهديد الفرنج بأنطاكية، وقيرخان بن قراجا امير حمص، الذي كان يحرص على انتزاع حماة من طغتكين(٣).

وفي رمضان من سنة ٥٠٨هـ، ربيع ١١١٥م عهد السلطان محمد الى الامير برسق صاحب همذان، بقيادة حملة لاخضاع الامارات الاسلامية في الشام وشمال الجزيرة، ثم التفرغ لقتال الصليبيين(٤).

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج١٠ ص٥٠٢-٥٠٣، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص١٧٨، ابن خلدون: العبر مجلد ٥ قسم ١ ص٩٠.

(٢) الكامل، ص٥١٤، ابو الفدا: المختصر ج ٤ ص ١٤٨، ابن الوردي: تتمة المختصر ج٢ ص ٣٣، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص١٨٧، ابن خلدون: العبر ج ٥ص ٨٩.

(٣) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ص٢١٢، العريني: الشرق الاوسط والحروب الصليبية ج١ ص ٤٦٦-٤٦٧، القاهرة ١٩٦٣، عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٤٢٨-٤٢٩.

(٤) ابن الاثير: الكامل ج١٠ ص٥٠٩، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص١٧٨، ابن خلدون: العبر، المجلد الخامس قسم ١ ص٩٠.

وانضمت الى برسق قوات الموصل بقيادة جيوش بك، وعساكر سنجار والجزيرة بقيادة تميرك، فعبروا الفرات آخر سنة ٥٠٨هـ، ثم اتجهوا نحو حلب وكان برسق يريد اتخاذها قاعدة لحروبه في الشام. فأرسل الى لؤلؤ الخادم(١) ومقدم العسكر شمس الخواص، يطلب منهما تسليم حلب، فامتنعا عن الاجابة وبادرا بطلب النجدة من طغتكين وايلغازي، فحضرا على رأس الفي فارس (ودخلا حلب، فامتنع من بها حينئذ عن عسكر السلطان، وأظهروا العصيان)(٢). فاضطر برسق الى مهاجمة «حماة» وكانت تابعة لطغتكين صاحب دمشق فاستولى عليها عنوة، وسلمها الى (قرخان) صاحب حمص، تنفيذاً لأمر السلطان محمد، الذي يقضي بتسليمه كل بلد يفتحونه، وكان لذلك أثر سيء في نفوس الامراء. فثقل ذلك عليهم، (وضعفت نياتهم في القتال)(٣).

وبعد سقوط حماة بيد برسق، بادر طغتكين وايلغازي وشمس الخواص للاتصال بروجر امير أنطاكية، فعقدوا معه حلفاً، واتفقوا على محاربة عساكر السلطان محمد، وكان روجر قد تمركز على نهر العاصي عند جسر الحديد. فتقدم نحو أفامية، حيث اجتمع مع حلفائه، وأرسلوا من هناك يستنجدون بالملك بلدوين الاول (صاحب بيت المقدس) والامير بونز صاحب طرابلس، فأسرعا بالحضور، وكان بصحبة بلدوين خمسمائة فارس والف راجل، في حين حضر أمير طرابلس على رأس مائتي فارس والفين من المشاة(٤).

---

(١) بعد وفاة رضوان بن تتش صاحب حلب في سنة ٥٠٧هـ خلفه ولده الب ارسلان وقام بأمره لؤلؤ الخادم فقبض الاخير على زمام الحكم بحلب، ولم يبق لألب ارسلان سوى الرسم، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص١٧٦.

(٢) ابن الاثير: الكامل ج ١٠ ص ٥٠٩، ابن خلدون: العبر ج ٥ ص٩١.

(٣) نفس المصدر: الكامل ج ١٠ ص ٥٠٩–٥١٠، ابو الفدا: المختصر ج ٤ ص ١٤٧، ابن خلدون: العبر ج ٥ ص ٩١.

(٤) ابن خلدون: العبر ج٥ ص٩١، رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ص٢١٢–٢١٣؛ عاشور الحركة الصليبية ج١ ص٤٢٩.

امابرستق فقد تقدم الى شيزر، واتخذها قاعدة لشن الهجمات ضد كفرطاب التابعة للصليبيين، ثم تظاهر بالانسحاب والتراجع نحو الجزيرة، فظن بلدوين وبونز ان الخطر قد زال، فعاد كل منهما الى إمارته، في نفس الوقت الذي عادت فيه قوات دمشق وحلب الى بلادها، فنجحت بذلك خطة برسق وتفرق الحلفاء فأسرع في العودة الى كفرطاب واستولى عليها عنوة، واسر صاحبها، وسلم المدينة الى حلفائه بني منقذ امراء شيزر(١).

ثم واصل المسلمون تقدمهم نحو معرة النعمان، وأخذوا يهددون أنطاكية وحلب، واستعد برسق للاستيلاء على قلعة زردنا—احدى القلاع الصليبية بالقرب من حلب—في نفس الوقت الذي أرسل فيه الامير جيوش بك على رأس قوة كبيرة الى حلب، وقد كان لهذه الخطوات التي اتخذها برسق أثر خطير على سلامة وجوده في تلك المنطقة فتفرق قسم كبير من قواته، في نفس الوقت الذي أثارت فيه هذه التحركات روجر صاحب أنطاكية واخذ يستعد لمهاجمة برسق في الوقت المناسب(٢). وذكر بعض المؤرخين ان اتجاه جيوش بك الى حلب جاء تلبية لرغبة لؤلؤ الخادم، الذي طلب من برسق ارسال كتيبة لاحتلال حلب وعبر له عن اعتذاره لامتناعه عن تسليم البلد(٣). وبينما كانت عساكر برسق متجهة الى حلب، كان روجر امير أنطاكية، قد أضاف اليه قوات بلدوين دي بو صاحب الرها، وانتظر الفرصة المناسبة للهجوم، فما كاد برسق يعسكر غربي سرمين—عنددانث—حتى انقضت القوات الصليبية في هجوم مفاجيء، فحلت الهزيمة بالمسلمين وقتل منهم عدد كبير، وكان تميرك صاحب سنجار قد نجح

(١) ابن الاثير: الكامل ج ١٠ ص ٥١٠، ابو الفدا: المختصر ج ٤ ص١٤٧، ابن خلدون: العبر ج٥ ص٩١، رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ص٢١٤، العريني: الشرق الاوسط والحروب الصليبية ج١ ص٤٦٨.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٤٣٠–٤٣١.

(٣) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ص٢١٤، (جاء في رواية ابن الاثير في الكامل ج ١٠ص٥١٠ ان الامير جيوش بك انسحب في عسكر الموصل بعد الاستيلاء على كفر طاب وتوجه الى وادي بزاعة وملكه، وأورد ابن خلدون نفس الرواية الا انه ذكر ان جيوش بك استولى على مراغة وليس بزاعة انظر: ج٥ص٩١).

في بادىء الامر في صد ميمنة الصليبيين، الا ان وصول الامدادات الجديدة من حارم قلب الموقف وأحاط الفرنج بقوات سنجار وتمت الهزيمة(١)، وقد رفض برسق الفرار من المعركة عندما أشار عليه أصحابه بذلك وقال: (لا افعل، بل أقتل في سبيل الله، وأكون فداء للمسلمين، فغلبوه على رأيه فنجا هو ومن معه، فتبعهم الفرنج نحو فرسخ، ثم عادوا وتمموا الغنيمة والقتل، وحرقوا كثيراً من الناس، وتفرق العسكر، وأخذ كل واحد جهة)(٢).

تدخل جيوش بك في النزاع بين دبيس بن صدقة والبرسقي سنة ٥١٢ هـ

في جمادى الاول من سنة ٥١٢هـ عزم دبيس بن صدقة امير الحلة، على مهاجمة بغداد وجمع جموعاً كثيرة من العرب والاكراد، وفرق الاموال والسلاح، فخرج آقسنقر البرسقي لقتاله ومنعه من دخول بغداد، ويظهر ان خروج البرسقي لقتال دبيس قد أثار أطماع الملك مسعود بن السلطان محمد(٣) الذي كان مقيماً آنذاك في الموصل مع أتابكة جيوش بك، واورد المؤرخ ابن الاثير ان بعض الامراء في الموصل قد اشاروا على مسعود بقصد العراق (فانه لا مانع دونه)، فخرج مسعود وأتابكة جيوش بك بعساكر الموصل، وانضم اليهما كل من فخر الملك ابو علي بن عمار، صاحب طرابلس ووزير مسعود، وعمادالدين زنكي، وصاحب سنجار، والامير ابو الهيجاء صاحب اربل، وكرباوي بن خراسان التركماني، صاحب البوازيج، وتقدمت هذه القوات مجتمعة نحو بغداد، وكان البرسقي معسكراً بأسفل الرقة، وما أن علم باقترابها حتى أسرع في العودة الى بغداد، وعزم على الدفاع عن المدينة ومنع قوات مسعود من دخولها، فبعث مسعود وجيوش بك، رسولا الى البرسقي يوضح له بأنهما لم يحضرا لقتاله،

---

(١) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ص٢١٤-٢١٥، عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٤٣١.
(٢) ابن الاثير: الكامل ج١٠ ص٥١١، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص١٧٩.
(٣) كان السلطان محمد بن ملكشاه قد توفي في ذي الحجة من سنة ٥١١هـ، فخلفه ولده محمود في السلطنة، فتحركت أطماع مسعود وخرج على أخيه اكثر من مرة، وكان السلطان محمود قد عهد الى البرسقي بشحنكية بغداد في ٥١٢هـ. ابن الاثير ج١٠ ص٥٣٣-٥٣٤

وإنما جاءا نجدة له على دبيس. فاطمأن البرسقي من جهتهما وتم الصلح، وسمح لمسعود بدخول بغداد وأنزله بدار المملكة(١).

ثم جاءت الاخبار بوصول عساكر عمادالدين منكبرس(٢)، فأسرع البرسقي للقائه ومنعه من دخول بغداد، فاضطر منكبرس للتوجه الى النعمانية، فعبر دجلة هناك، واجتمع بدبيس بن صدقة، وكان الاخير قد شعر بضعفه، وأدرك أنه لا طاقة له في حرب مسعود ومن معه، فعمد الى استرضائهم (فأهدى لمسعود هدية حسنة، وللبرسقي، وجيوش بك)، وبعد وصول منكبرس وجد دبيس ان المصلحة تقتضي التعاون المشترك بينهما، فاتفقا على حرب مسعود (وكل واحد منهما قوى بصاحبه)، وهكذا عاد الموقف الى التأزم من جديد، فسار مسعود والبرسقي وجيوش بك لقتال دبيس وحليفه منكبرس، فلما وصلوا المدائن : بلغهم كثرة عساكرهما، فقرروا التراجع، وعبروا نهر صرصر، وحفظوا المخاضات عليه، ليمنعوا عساكر دبيس من العبور(٣).

تدخل الخليفة المسترشد بالله ودعوته للصلح(٤)

كان النزاع بين البرسقي وحلفائه من جهة، ودبيس ومنكبرس من جهة أخرى قد أدى الى قيام حالة من الفوضى والاضطراب وضياع الامن في منطقة السواد، «فنهبت الطائفتان السواد نهباً فاحشاً، نهر الملك، ونهر صرصر، ونهر عيسى، وبعض دجيل، واستباحوا النساء»(٥) فأرسل الخليفة المسترشد بالله، وفداً الى الملك مسعود، والبرسقي، يبلغهما استنكاره هذه الحال، (ويأمرهما بحقن الدماء،

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج ١٠ ص٥٣٩–٥٤٠، ابن خلدون: العبر ج ٥ ص٩٦.

(٢) عماد الدين منكبرس هو ابن الملك بوربرس بن الب ارسلان، وهو ابن عم السلطان محمد بن ملكشاه. انظر: ابن الاثير: الكامل ج ١٠ ص٣٩٨.

(٣) ابن الاثير: الكامل ج١٠ ص٥٤٠، ابن خلدون: العبر ج٥ ص٩٧.

(٤) الخليفة المسترشد بالله ولي الخلافة بعد وفاة ابيه المستظهر بالله في ربيع الآخر من سنة ٥١٢هـ، وكان المسترشد ذا همة عالية، وشهامة زائدة، وهيبة شديدة، باشر الحروب بنفسه، وقتل سنة ٥٢٩هـ في شهر ذي القعدة. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٤٣١، طبعة مصر ١٩٦٤).

(٥) ابن الاثير: الكامل ج ١٠ ص٥٤٠، ابن خلدون: العبر ج ٥ ص٩٧.

وترك الفساد، ويأمر بالموادعة والمصالحة)، وكان وفد الخليفة يتألف من سديد الدولة بن الانباري، والامام الاسعد الميهني، مدرس النظامية، فأنكر البرسقي أن يكون قد جرى منهما شيء من ذلك، وأعلن استعداده للعودة الى بغداد(١).

أما دبيس ومنكبرس فانهما اعدا حملة من ثلاثة الاف فارس بقيادة منصور أخي دبيس، والامير حسين بن ازبك، ربيب منكبرس، وامروهما بعبور مخاضة عند نهر ديالى ومهاجمة بغداد، لخلوها من العساكر في ذلك الوقت، فلما علم البرسقي بمسيرهما انسحب بفرقة من العسكر وترك باقي الجند بصحبة ولده عزالدين مسعود، على نهر صرصر، وكان يصحب البرسقي عمادالدين زنكي. فنجحا في منع قوات دبيس وحليفه من عبور ديالى، وأقام البرسقي يومين في ذلك الموضع، فوصله كتاب ولده عزالدين مسعود يخبره فيه ان الصلح قد استقر بين الفريقين(أي بين دبيس ومنكبرس من جهة، والملك مسعود وجيوش بك من جهة أخرى)، فاستاء البرسقي من ذلك لوقوعه دون علمه، فعاد الى بغداد، وعبر الى الجانب الغربي، وعبرت في أثره عساكر منصور بن صدقة وحسين بن ازبك ودخلا بغداد ونزلا عند جامع السلطان، اما الملك مسعود وجيوش بك فنزلا عند البيمارستان، في حين ضرب دبيس ومنكبرس معسكرهما تحت الرقة(٢).

وقد أرجع ابن الاثير سبب هذا الصلح المفاجيء الى جيوش بك فذكر ان الاخير كان قد أرسل الى السلطان محمود يطلب زيادة الاقطاع له ولمسعود، (فوصل كتاب الرسول من المعسكر يذكر انه لقي من السلطان إحساناً كثيراً، وانه اقطعهما اذربيجان ، فلما بلغه رحيلهما من بغداد اعتقد انهما قد عصيا عليه، فعاد عما كان استقر، ويقول ان السلطان قد جهز عسكراً الى الموصل فوقع الكتاب بيد منكبرس، فأرسله الى جيوش بك، وضمن له اصلاح السلطان

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج١٠ ص٥٤٠، ابن خلدون: العبر ج ٥ ص٩٧.
(٢) المصدر السابق: الكامل ج١٠ ص٥٤٠-٥٤١، المصدر السابق: العبر ج٥ ص٩٧.

له وللملك مسعود، وكان منكبرس متزوجاً بأم الملك مسعود، وأسمها سرجهان وكان يؤثر مصلحته لذلك. وأستقر الصلح)(١)، فخشى منكبرس وجيوش بك، من أن يحول البرسقي دون هذا الصلح، فاتفقا على ارسال فرقة من العسكر لتهديد بغداد، وارغام البرسقي على الانسحاب والابتعاد عن مسرح الاحداث، فتم عقد الصلح بين الفريقين كما قدمنا.

دور جيوش بك في الحرب بين مسعود وأخيه السلطان محمود

استمر دبيس بن صدقة في سياسته الرامية الى إثارة الفتنة بين سلاطين وملوك البيت السلجوقي، فوجد في الملك مسعود خير من يسخره لهذا الغرض، لما كان يعلمه من أطماعه في السلطنة ومنافسته لاخيه محمود، فعمل على مكاتبة جيوش بك أتابك مسعود في الموصل، يحرضه على طلب السلطنة لمسعود، ويعده بالعون والمساعدة، (وكان غرضه ان يختلفوا فينال من الجاه وعلو المنزلة ما ناله أبوه باختلاف السلطانين بركياروق ومحمد ابني ملكشاه)(٢).

وكان قسيم الدولة آقسنقر البرسقي(٣) مقيماً آنذاك في الرحبة، وهي أقطاعه من الملك مسعود، وكان بينه وبين دبيس عداوة مستحكمة، فراسل الاخير جيوش بك يحرضه على البرسقي ويشير بالقبض عليه، بحجة ميله الى السلطان محمود، وبذل دبيس اموالا كثيرة لصاحب الموصل لهذا الغرض، فعلم البرسقي بأخبار هذه الاتصالات بين جيوش بك ودبيس، فترك الرحبة، وسار الى السلطان محمود وأبلغه عصيان أخيه مسعود وخروجه عن طاعته، فأرسل السلطان محمود الى أخيه مسعود وأتابكة جيوش بك يحذرهم من مغبة العصيان(٤). (ويعدهم بالاحسان ان اقاموا على طاعته وموافقته، فلم يصغوا الى قوله، وأظهروا ما

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج١٠ ص ٥٤١-٥٤٢.
(٢) نفس المصدر: الكامل ج ١٠ص٥٦٢.
(٣) كان البرسقي قد فارق شحنكية بغداد، الى الرحبة، وأضاف اليه مسعود مراغة.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص٢١٧، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٩٦-٩٧.

كانوا عليه، وما يسرونه. وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة. وضربوا له النوب الخمس)(1).

وكانت عساكر السلطان محمود آنذاك متفرقة، فشجع ذلك مسعوداً واتابكه فأسرعوا في الخروج لقتاله. وجمع جيوش بك جموعا كثيرة وجعل مؤيد الدين الطغرائي وزيرا للملك مسعود(2)، فكان اللقاء بينهما في عقبة اسد اباذ منتصف ربيع الاول ٥١٤ هـ وكان السلطان محمود في خمسة عشر الفاً في مقدمتهم آقنسقر البرسقي فأبلى بلاء حسنا، وانكشفت المعركة عن هزيمة عساكر الملك مسعود، وأسر عدد كبير من امرائه وقادة عسكره، فيهم الاستاذ أبو اسماعيل وزير مسعود، فأمر السلطان بقتله(3).

اما مسعود فقد قصد بعد هزيمة اصحابه جبلا بينه وبين الوقعة اثناء عشر فرسخا حيث اختفى هناك مع عدد من غلمانه، وارسل (ركابي عسكره عثمان) الى اخيه السلطان محمود يطلب الامان، فأجابه الى ذلك، وامر البرسقي بالمسير اليه واحضاره، وكان بعض الامراء قد اتصلوا بالملك مسعود بعد ان ارسل الاخير يطلب الامان، واشاروا عليه بالتوجه الى الموصل، ومكاتبة دبيس بن صدقة والاجتماع معه لاستئناف الحرب ضد اخيه السلطان محمود، فوافق مسعود على ذلك وسار الى الموصل، فلما وصل البرسقي اخبر بمسيره، فجد في اللحاق به، فأدركه على بعد ثلاثين فرسخا من مكانه، واخبره بعفو اخيه واقنعه بالعودة معه(4). (فأمر السلطان محمود العساكر باستقباله وتعظيمه، ففعلوا ذلك،

---

(1) ابن الاثير: الكامل ج١٠ ص٥٦٣.

(2) هو الاستاذ ابو اسماعيل الحسين بن علي الاصبهاني الطغرائي، كان قد اتصل بالملك مسعود فاستوزره وعزل أبا علي بن عمار، سنة ٥١٣هـ، وحسن له مخالفة أخيه السلطان محمود والخروج عن طاعته. ابن الاثير: الكامل ج ١٠ص ٥٦٢-٥٦٣.

(3) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ص ٢١٧، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص١٢١، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٩٦-٩٧، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ص ١٨٥.

(4) المصدر السابق: المنتظم ج٩ ص٢١٧، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٩٧، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص١٢١، ابن الاثير: الكامل ج ١٠ص٥٦٣-٥٦٤.

وامر السلطان ان ينزل عند والدته،وجلس له،واحضره،واعتنقا،وبكيا، وانعطف عليه محمود،ووفى له بما بذله وخلطه بنفسه في كل أفعاله)(١).

مصير جيوش بك بعد هزيمة مسعود

كان جيوش بك قد سار الى عقبة أسداباذ بعد هزيمته امام عساكر السلطان محمود على امل لقاء مسعود والاجتماع به،الا ان مسعودا لم يصل اليه كما كان متفقا معه،ثم انتظره بمكان آخر،فلم يصل،فقرر جيوش بك العودة الى الموصل فنزل بظاهرها،وباشر في الاستعداد لحرب السلطان محمود واعد المدينة لمقاومة أي حصار قد يضرب حولها،فجمع الغلات من السواد،واجتمعت اليه العساكر فلما بلغه مسير مسعود الى اخيه وعفوه عنه،اسقط في يده،وادرك خطورة موقفه(وعلم انه لا مقام له على هذا الحال،فسار كأنه يريد الصيد،فوصل الى الزاب،وقال لمن معه:انني قد عزمت على قصد السلطان محمود،وأخاطر بنفسي فسار اليه،فوصل وهو بهمذان،ودخل اليه،فطيب قلبه وأمنه،واحسن اليه).(٢)

وفي صفر من سنة ٥١٤هـ،اقطع السلطان محمود مدينة الموصل واعمالها، وما يضاف اليها،كالجزيرة،وسنجار،وغيرهما،الامير آقسنقر البرسقي، وتقدم الى سائر الامراء بطاعته،وامره بمجاهدة الفرنج(٣).

اما جيوش بك فبقي ملازما للسلطان محمود بهمذان،فأمره بالمسير الى حرب اخيه الملك طغرل في اذربيجان فسار اليه جيوش بك،فلما علم طغرل واتابكه كنتغدى بذلك،سارا الى كنجة هربا من عساكر السلطان،فلم يجر قتال بينهما ولم يلبث كنتغدى ان توفي في شوال من سنة ٥١٥هـ، فانضم الامير آقسنقر الاحمديلي،صاحب مراغة،الى الملك طغرل واتفقا على قتال السلطان محمود، فسارا الى تبريز،فجاءهم الخبر ان السلطان محمودا سير الامير جيوش بك

---

(١) ابن الاثير:الكامل ج ١٠ ص٥٦٤.
(٢) ابن الاثير:الكامل ج ١٠ ص٥٦٤؛ابن الوردي:تتمة المختصر ج٢ص٣٦.
(٣) نفس المصدر:الكامل ج ١٠ ص٥٨٨.

الى اذربيجان، واقطعه البلاد، وانه نزل مراغة في عسكر كثيف من عند السلطان، فمالوا الى الصلح، وراسلوا السلطان بالطاعة، فأجابهم الى ذلك، وتم الصلح في المحرم من سنة ٥١٥هـ (١).

مصرع جيوش بك:

وفي رمضان من سنة ٥١٦هـ أقدم السلطان محمود على قتل الامير جيوش بك، على باب تبريز، وكان السلطان قد اقطعه اذربيجان وجعله مقدم عسكره، (فجرى بينه وبين جماعة من الامراء منافرة ومنازعات، فأغروا به السلطان، فقتله في رمضان)(٢).



---

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص٥٨٧-٥٩٧-٥٩٨.
(٢) نفس المصدر: الكامل ج ١٠ ص ٦٠٣-٦٠٤.

مصادر البحث

١ـ ابن الاثير: الكامل في التاريخ طبعة بيروت ١٩٦٦

٢ـ ابن الاثير: التاريخ الباهر طبعة القاهرة ١٩٦٣ تحقيق عبد القادر طليمات

٣ـ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة وزارة الارشاد بمصر

٤ـ ابن الجوزي: المنتظم طبعة حيدر اباد ١٣٥٩هـ

٥ـ ابن خلدون: العبر طبعة بيروت

٦ـ ابن كثير: البداية والنهاية طبعة بيروت ١٩٦٦

٧ـ ابن الوردى: تتمة المختصر طبعة النجف ١٩٦٩

٨ـ ابو الفدا: المختصر في اخبار البشر طبعة بيروت ١٩٦٠

٩ـ أبو شامة: الروضتين في اخبار الدولتين القاهرة ١٩٥٦

١٠ـ البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق طبعة مصر ١٩٠٠، ١٣١٨هـ

١١ـ الحسيني: اخبار الدولة السلجوقية، لاهور ١٩٣٣

١٢ـ السيوطي: تاريخ الخلفاء، طبعة مصر ١٩٦٤.

١٣ـ رنسيمان: الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني

١٤ـ عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة ١٩٦٣

١٥ـ العريني: الشرق الاوسط والحروب الصليبية. القاهرة ١٩٦٣